عبد الملك بن مروان

والدولة الأموية

تأليف

الدكتور
محمد ضياء الدين الريس
أستاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامي
بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة

الطبعة الثانية
١٩٦٩



عبد الملك بن مروان

والدولة الأموية

تأليف

الدكتور

محمد ضياء الدين الريس

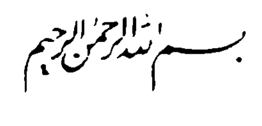
أستاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامى

بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة

الطبعة الثانية

١٩٦٩

مطابع سجل العرب



مقدمة الطبعة الثانية

حول هذا الكتاب

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى سلسلة « أعلام العرب » التى تصدرها «وزارة الثقافة » بالجمهورية العربية المتحدة ، ونفدت عقب صدورها . ونقدم اليوم الطبعة الثانية ، وهى تمتاز عن الأولى باضافةمواد جديدة فى مواضع مختلفة من الكتاب ، بحيث أصبح الكتاب يعطى صورة كاملة لهذا العصر من تاريخ الدولة العربية الإسلامية الذى هو مجال الدراسة .

وإذ كنا بسبيل إصدار هذه الطبعة الجديدة ، تلقينا نسخة من مجلة «معهد الدراسات الإسلامية » التى تصدر بمدريد (المجلد الثالث عشر — مدريد ١٩٦٥ — ١٩٦٦) وهى تحتوى على مقال عن هذا الكتاب ، بقلم الأستاذ مدير المعهد الدكتور « حسين مؤنس » أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب بجامعة القاهرة سابقا ومدير المعهد الآن . فرأينا من الأنسب أن نجعل هذا المقال — وهو من قلم أستاذ باحث متخصص — مقدمة هذه الطبعة الثانية . وها نحن أولاء نثبت هذا المقال فيما يلى : —

عبد الملك بن مروان

تأليف : الدكتور ضياء الدين الريس

« لا بد أن نحمد لوزارة الثقافة فى القاهرة ذلك الجهد المتعدد النواحى ، الذى تقوم به لتثقيف الناس أولا ، ثم لخدمة العلم فى عالم العرب ثانيا، بكل ما أتيح لها من وسائل : من نشر كتب علمية عالية المستوى إلى تحقيق مخطوطات ، إلى إصدار سلاسل كتب من طراز « أعلام العرب » ، وما إلى ذلك .

وهذه السلسلة «أعلام العرب» تعتبر من أحسن السلاسل التى تنشرها الوزارة . فهى مجموعة ممتازة لأعلام من العرب فى كل ميدان تقريباً. وسنكتب فى هذه الفقرة عن كتاب «عبد الملك بن مروان». وهو فى رأينا من أحسن أجزاء هذه السلسلة .

***

مؤلف كتاب «عبدالملك بن مروان» هو « الدكتور ضياء الدين الريس» : رئيس قسم التاريخ الإسلامى بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة . وهو فى يومنا هذا من أعلام مدرسة التاريخ المصرية . يوالى جهده من سنوات فى خدمة تاريخ المسلمين ، كأستاذ لذلك التاريخ فى تلك الكلية الإسلامية التى ينتشر خريجوها فى طول العالم الإسلامى وعرضه ، مواصلين رسالة العلم المجيدة التى فرضها الله على أهل العلم من أبناء أمة الإسلام .

الكتاب يدرس عبد الملك بن مروان وأعماله . وعبد الملك هو واسطة

عقد «آل مروان» وصخرة بنى أمية فى الشرق . وهو لا يعادل إلا بالعظام من أمراء بنى أمية فى الأندلس : فهو مثلا صنو عبد الرحمن بن معاوية ذكاء وحزما وشخصية وقدرة على مواجهة الصعاب . وقد كان هو النموذج الذى طالما احتذاه الحكم بن هشام . وقصارى القول فيه أنه سيد عربى أصيل وفارس شهم ومسلم جدير بالإعجاب . وهذه الصفات هى التى نهضت به إلى خلافة المسلمين .

* * *

درس « الدكتور الريس » حياة عبد الملك وعصره فى عمق واتساع . فأحاط إحاطة تامة بالأصول العربية . وقرأ كل ما كتب عن عبد الملك والأمويين فى العصر الحديث . وهذا بيِّن من مطالعة فصوله . فإننى معنى منذ حين بإنشاء كتاب عن بنى أميــة فى الشرق والغرب ، ومن هنا فإننى عندما أقرأ شيئا عن بنى أمية فإننى أعرف الأصول التى رجع إليها صاحب الكلام . وقد أعجبنى فى ذلك الكتاب اتجاه المؤلف إلى إنصاف بنى أمية بما يقضى به الحق، فان مؤرخينا القدامى كان يحملهم حبهم لآل البيت وأسفهم لما أصاب الكثيرين منهم أيام بنى أمية على معاداة هؤلاء ، وتحميلهم مسئولية كل ما أصاب الإسلام .

وقــد عرف «الدكتور الريس» كيف يعالج موضوع انتقال الخلافة إلى بنى أمية ثم إلى بنى مروان، وذلك من أصعب الأمور على المؤرخ . لأن المراجع التى تؤرخ لأحداث مملكة الإسلام من قبيل مقتل عثمان إلى موت عبد الملك بن مروان تتضارب فيما بينها تضاربا شديدا . ومعظم من كتب فى الموضوع من القدماء كتب عن عصبية وعاطفة . وقد كان مؤرخونا القدماء لا يزالون يتعجبون من وصول معاوية إلى الخلافة، فلما حازها مروان بن الحكم تعدى الأمر إلى الغضب . ولكن فاتهم أن يلاحظوا أن الظروف العصيبة التى مرت بها دولة الإسلام فى أثناء

الحرب الأهلية بين على ومعاوية، كان لا يمكن أن تتحسن إلا على يد رجال ذوى حزم وتجربة وسياسة وإيمان .

وقد أثبت معاوية بن أبى سفيان أنه على جانب كبير من ذلك . ولكن ابنه يزيد لم يكن من طرازه ، ثم كان حفيده خالد بن يزيد شاباً لا تجربة له . ومن بعيد وقف عبد الله بن الزبير ، وقد كاد الأمر يتم له . فاستطاع مروان أن يحوز الأمر بذكائه وحزمه وسياسته ، ومعاونة وإخلاص مؤيديه والرجال الذين اعتمد عليهم .

* * *

هذا الكتاب من الدراسات الجيدة فى تاريخ المسلمين. وقارؤه يجد فيه إلى جانب الفائدة طلاوة فى القصص ، وسهولة فى ترتيب الحوادث. وهو من أحسن ما يوصَّى به أولئك الذين يبحثون عن الكتب الجيدة ذات الفائدة الأصيلة. »

الطبعة الثانية { ذى الحجة ١٣٨٨ / مارس ١٩٦٩ }

مدير معهد الدراسات الإسلامية
بمدريد

مقدمة الكتاب

هذا أول كتاب يصدر عن عبد الملك بن مروان . أليس هذا عجيباً ؟ أليس عجيباً أن علماً كبيراً من أعلام تاريخنا القومى : تاريخنا العربى الإسلامي ، وشخصية متميزة لعبت دوراً من أهم الأدوار فى حياة أمتنا — لم يكتب عنه كتاب خاص إلى الآن ؟

إننا فى عهد نعمل فيه لبعث مجد الأمة العربية وتحقيق نهضتها وتجديد قوتها ، ونتحدث فيه كثيراً عن القومية العربية ، فهل يمكن أن يتحقق ذلك الهدف ، أو هل يمكن أن يكون فهمنا لهذه القومية واضحاً ، وإيماننا بها عميقا — إلا إذا فهمنا تاريخ الأمة العربية ، والأحداث الخطيرة التى مرت بها ، والرجال أو الزعماء أو الأبطال الذين صنعوا هذا التاريخ ؟

لذا كان مشروعا جيداً أن قامت « وزارة الثقافة والإرشاد القومى » باصدار هذه السلسلة عن « أعلام العرب » ، لتحقق شيئاً من هذه الغاية وتملأ جانباً من هذا الفراغ ، ورحبت بالفرصة فاقترحت أن يكون موضوع الكتاب الذى أقوم بتأليفه عن « عبد الملك بن مروان » ، لما أعرف من أهمية الدور الذى قام به فى التاريخ ، وهو أحد كبار خلفاء « الدولة الأموية » : تلك الدولة التى ظهرت فى عهدها شخصية الأمة العربية بكامل قوتها ، وكان الطابع السائد فيها فى نواحى الحياة العامة عربياً محضاً .

* * *

فى هذا الكتاب نستعرض سيرة عبد الملك : حياته وأعماله ، فتوحاته

وإصلاحاته — لكن سيرته مرتبطة بتاريخ أسرته وتاريخ أمته، فلابد إذن من معرفة هذه الأسرة، ودراسة تاريخ الأمة فى ذلك العهد.

لذا جاءت فصول الكتاب متتابعة تتناول هذه الجوانب: فالأول عن «الخليفة والدولة»، والثانى يوضح كيف قامت «دولة آل مروان»، والثالث عن الأسرة الأموية، ثم بينت الفصول التالية أحوال الأمة والأحزاب، وما حدث من ثورات وما دار من صراع، ثم جهود «عبد الملك» وسط هذه المعارك، حتى وصل إلى تحقيق هدفه الأكبر — وهو أعز وأغلى هدف للأمة أيضاً — ألا وهو تحقيق وحدة الدولة العربية.

ثم بعد أن تحققت الوحدة استعادت الدولة قوتها كعهدها السابق، واستطاع عبد الملك أن يقودها إلى النصر فى جميع الميادين، فقهر الأعداء وتمت فى عهده الفتوحات العظيمة، التى كان من أكبرها تحرير بلاد المغرب من ربقة الروم، فأصبحت تلك البلاد منذ ذلك الوقت من أهم أقطار العروبة والإسلام — كما تمكن أيضاً فى ذلك الدور من تنفيذ إصلاحات كان لها أكبر الأثر فى تدعيم بناء القومية العربية. فبعد أن بينت الفصول كل هذه الجوانب، جعلت الخاتمة خاصة بالحديث عن شخصية عبد الملك وصفاته وسياسته العامة وإدارته للدولة، ثم عن بيته وأولاده الخلفاء الذين قاموا بالأمر من بعده، فأدوا للأمة خدمات جليلة.

* * *

فالواقع أنه فى الوقت الذى عرض فيه الكتاب سيرة عبد الملك وفصلها تفصيلا، رسم صورة واضحة دقيقة لتاريخ الأمة العربية فى فترة من أهم فترات حياتها، وهى فترة تبلغ نحو ربع قرن فى خلال القرن الأول الهجرى — فترة تقرر فيها مصير الدولة العربية وحضارتها ومكانها فى التاريخ والعالم.

وإذا كان هناك عصر فى التاريخ العربى الإسلامى يستلزم أن يدرس

ويكتب عنه أكثر من غيره ، فهو عصر الدولة الأموية، لأن تلك الدولة كثيراً ما صورت على غير حقيقتها ، أو كتب تاريخها على غير ما يرضى الحقيقة والعدل ، وطالما حمل عليها وأسيء تقدير رجالها ، وذلك لأنها قامت نتيجة صراع ، فكان لها منذ نشأتها أعداء كثير ، وبقى العداء لها مستحكما إلى اليوم . فأكثر ما كتب عنها كانت تمليه إذن وتفسده النزعة الطائفية ، ولا سيما من غلاة الشيعة ومن يحذو حذوهم .

كما أنه جنى أيضاً على تاريخ هذه الدولة — وكثيراً ما يتعرض التاريخ كله لمثل هذا — أن تناوله غير المختصين ، فبنوا أحكامهم على معلومات سطحية أو خاطئة أو دراسة ناقصة . والتاريخ — بصفة خاصة — ينبغى أن لا يتعرض له إلا المتخصصون أو من يسير على منهجهم ، لأنه يعتمد على الدراسة والتحقيق ، ويشتمل على إصدار أحكام ، وهو مجموعة من قضايا مثل القضايا التى تعرض فى المحاكم أو الحياة العامة الآن — وإن كان زمنها فى الماضى — فكما لا يستطيع أن يفصل فى قضايا الحاضر أو يصل إلى الأحكام الصحيحة فيها إلا القضاة أو الفاقهون فى القانون ، كذلك لا يستطيع أن يصدر الأحكام السليمة العادلة فى قضايا التاريخ إلا من خصصوا جهودهم للبحث والتحقيق فيها ، وتكونت عندهم ملكة النقد التاريخى ، وتوفرت فيهم شروط الباحث - ومن أهمها التجرد للحقيقة .

* * *

فقد بذلنا كل الجهد إذن لكى نصل إلى الحقيقة ، ونقدم الصورة التاريخية الصادقة عن هذه الفترة من تاريخ الدولة الأموية — وهى التى يجدر أن تسمى عصر عبد الملك بن مروان — وعن الأحداث التى تكونت منها سيرته

وحرصنا فى إصدار الأحكام عن موقفه وعلاقاته بالأشخاص الذين ناضلهم أو كانت له بهم صلة ، وكذلك فى الحكم على هؤلاء الأشخاص ، وما عدا ذلك — أن تكون الأحكام كلها قائمة على مبدأ الموضوعية ، دون تأثر بالميل لبعض الطوائف أو بالأفكار العامة الشائعة — وإن كان ذلك كله لا يقدم بأسلوب الدراسة « الأكاديمية » ، ولكن بالأسلوب المناسب للكتاب الذى يقصد به الثقافة العامة ، وهو فى ذات الوقت دراسة علمية جامعية .

فعسى أن تكون الصورة التى سيحصلها القارىء من هذا الكتاب بالغة حد الإنصاف لتلك الدولة ، التى طالما عانت من الحملات الظالمة لذوى الأهواء — مع أنها أدت خدمات جُلّى للعروبة والإسلام . وعسى أن نكون بذلك قد أدينا خدمة لتراثنا القومى ، وللثقافة الأساسية التى هى ضرورية لتقوية الوعى بالقومية العربية والإيمان بها . وهل هناك ماهو أجدر — لتحقيق هاتين الغايتين — من الوقوف على حقائق تاريخ الأمة العربية ، وسيرة الزعماء أو القادة أو الرجال الذين صنعوا حياتها الماضية ، التى صارت أساسا لحياتها الحاضرة .

وقد يدرك القارىء مشابهات عديدة بين صور الماضى والحاضر . وفى هذا التشابه كثير من الصدق ، ومنه يمكن استخلاص كثير من الدروس والعظات ، لأنه لا يبعد التشابه فى تاريخ الأمة الواحدة — وإن كان التاريخ لا يعيد نفسه تماماً بجزئياته وتفاصيله . فهل الدور الذى تمر به الأمة العربية الآن ، يشبه الدور الذى كانت فيه الأمة العربية عندما تولى عبد الملك بن مروان الخلافة ؟ إننا نترك الحكم عن ذلك للقارىء بعد أن يطالع الصورة فى الكتاب ويدرسها .

والآن يسرنا أن نقدم كتابنا هذا ، الذى جعلنا عنوانه : « عبد الملك بن مروان والدولة الأموية » . والله هو الموفق .

القاهرة { ٢٦ ذى الحجة ١٣٨١
٣٠ مايو ١٩٦٢ }

ضياء الدين الريس

الفصل الأول

الخليفة والدولة

أتته الخلافة منقادة :

فى غرة رمضان من عام ٦٥ هـ وجد « عبدالملك بن مروان» نفسه خليفة .

أقبل عليه زعماء بنى أميـة وأمراء الجنود ورؤساء القوم ، فسلموا عليه بالخلافة فى « دار الخلافة » بدمشق .

ذلك أنه فى بـكرة ذلك اليوم روعت « دمشق » بنبأ سرى فى جميع أرجائها ، وهو أن الخليفة الذى عقدت له البيعة منذ عشرة شهور فقط ، وعلقت عليه كبار الآمال — قد مات فجأة ! . مات « مروان بن الحـكم » دون أن يـكمل العام الأول من خلافته .

ومع أنه لم يـكن هناك شىء عجيب فى أن رجلا بلغ الخامسة والستين من عمره أو جاوزها ، و بذل جهداً فوق الطاقة فى أواخر أيامه ، يدركه الأجل فى أى وقت — فإن الشائعات ، أو الروايات فيما بعد ، أرادت أن تجد وراء ذلك الموت الفجائى سراً ، وأن تقدم له تعليلا غير عادى، فنسجت حوله قصة مثيرة، هى أن موت « مروان » الخليفة لم يـكن طبيعياً ، ولا بسبب علة طارئة — كما ذكرت أقوال أخرى — ولـكنه كان اغتيالا ، نتيجة مؤامرة دبرتها زوجته الأخيرة — على أنها امرأة جليلة من نفس الأسرة — وهى بنت أبى هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس :أم خالد بن يزيد— وذلك انتقاماً لحرمان

ابنها من ولاية العهد ، ولعبارة إهانة قيل إن مروان وجهها إليها فى شخص ابنها على ملأ من الناس — وإن كانت الروايات اختلفت بعد ذلك فى الصورة التى تم بها ذاك الاغتيال !

* * *

هل نقف لنحقق هذه القضية ؟ وهل هناك ضرورة لذلك، وهذه القصة — مع ما تحتويه من عناصر متناقضة — تبدو لأول وهلة وكأنها أسطورة اخترعتها مخيلات عجائز القوم ، ثم رددتها الألسن : إما حبا فى الثرثرة ، أو لتنال من سمعة هذه الأسرة الرفيعة المكانة ، حسداً لما وصلت إليه من مجد ؟ ! إننا لا نرى هذه المسألة على كل حال ذات أهمية الآن؛ وسنعود إليها فى مناسبة قادمة ،لنبين وجه الحق فيها فى ضوء القرائن التاريخية . ولكن كيفما كان الأمر ، فالحقيقة المؤكدة التى لا شك فيها هى أن « مروان بن الحكم » — سيد بنى أمية وشيخ قريش ومؤسس دولة آل مروان — قد انتهت مدته فى هذه الدنيا فى ذلك اليوم . فلما فرغ ابنه والقوم من أمره ، توجه ابنه — وهو ولى عهده — على الفور إلى دار الخلافة ، وأقبل عليه الرؤساء وكبار رجال الدولة فبايعوه.وهكذا تمت البيعة لابنه الخليفة الجديد ، وهو «عبد الملك بن مروان» فى نفس اليوم .

كانت هذه البيعة أمراً مقرراً ، إذ كان مراون حكيما بعيد النظر ، فاحتاط للأمر واتخذ له عدته قبل وقته . فما أن استتب له الأمر ، وشعر باستقرار دولته ، حتى حرص على دعوة الرؤساء ممن يدعون أهل الحل والعقد ، وأخذ عليهم المواثيق والبيعة بولاية العهد لابنيه : « عبد الملك » ثم « عبد العزيز » فانعقد الأمر لهما . وتم ذلك قبل وفاة مروان بأقل من شهرين . وكان هذا تدبيراً بالغ الحكمة . فتـ[illegible] البيعة لعبد الملك دون حدوث نزاع أو خلاف ،

وأدى ذلك إلى استمرار الدولة ، وانتقل الأمر بكل هدوء من الأب إلى أرشد أولاده ، وقد حفظت وحدة القوم ، والكل مجمع على مواصلة الجهد لإكمال البناء الذى وضع أساسه الخليفة السابق ، حتى يصير صرحا شامخاً .

فى دار الخلافة

بدأت اذن خلافة « عبد الملك » فى مستهل رمضان من عام ٦٥ هـ (وهو الموافق عام ٦٨٥ م) .

ولا بد أنه وهو جالس فى دار الخلافة أخذت تجول بذهنه الذكريات وتتوارد الصور. فهو جالس فى نفس المكان الذى جلس فيه قبله الخليفة الكبير « معاوية بن أبى سفيان » ثم ابنه « يزيد »، ثم أبوه هو نفسه الشيخ « مروان بن الحكم » ، بل إنه يمثل اتصال السلسلة فى تألف نظام الخلافة الذى بدأ منذ قيام دولة الخلفاء الراشدين ، ومن بينهم الخليفة « عثمان بن عفان » الذى كان بمثابة رأس لأسرتهم ، وهو الذى وضع أساس المجد للدولة الأموية بصفة عامة والمروانية خاصة .

فترتيب عبد الملك بين خلفاء الإسلام منذ بدء تاريخ الخلافة أنه الخليفة التاسع ، أو العاشر — ان عددنا خلافة الحسن — والخامس بين الخلفاء الأمويين والثانى فى دولة آل مروان . فياله من منصب خطير تقلده ، وما أعظمها من مسئولية ، وما أجله من مجد فى الدنيا ، وأثقله من تبعة بالنسبة للاخرة ! لقد أصبح عبد الملك «أمير المؤمنين» يتولى رعايتهم وحفظهم وعليه أن ينهض بعبء قيادتهم ، ويحرص على صيانة حقوقهم ، ويذود الأخطار عن دولتهم . بل عليه أن يرفع من شأن هذه الدولة حتى تصل إلى ذروة المجد التى تبوأتها منذ عهد غير بعيد، وتبقى أبدا فى مكان القوة والزعامة بين دول العالم، كما كانت دائماً

ثم ها هو ذا يجلس فى مقر الخلافة فى « دمشق » : هذه المدينة الكبيرة العريقة ، ذات التاريخ القديم منذ عهد الآراميين ، والتى شهدت مختلف الأقوام إلى أن صارت عاصمة إقليم سوريا فى عهد الروم ، ثم تحولت إلى مدينة إسلامية عربية ، ومضى عليها منذ هذا التحول نصف قرن ، وفدت عليها وأقامت فيها فى خلاله وفود العرب : من قبائل وجنود وساسة وعلماء وتجار ، وتكلمت باللسان العربى ، وأصبحت مدينة إسلامية ، يشرق عليها النور بالدين والعلم والحضارة ، ثم عظم شأنها فصارت عاصمة الدولة أو الامبراطورية الإسلامية الكبرى ، الممتدة حدودها من أواسط آسيا إلى أقطار المغرب ، ومركز العالم الإسلامى كله ، وذلك فى عهد الخليفة معاوية وابنه يزيد ، ومضى عليها فى ذلك ربع قرن ، فكانت أهم مدينة فى العالم فى ذلك الوقت .

***

كل هذه الخواطر — وأمثالها — لابد أنها كانت تجول فى ذهن خليفة دمشق الجديد : « عبد الملك » ، وكانت جديرة بأن تشيع فى نفسه مشاعر الغبطة والفرح ، وتقدير النعمة والافتخار . ولكن المسألة كانت لها وجوه أخرى ، وكانت توجد إلى جانب هذه الذكريات الحقائق الواقعة الصارمة ، وهى لا تثير إلا مشاعر الأسف والقلق والإحساس بالخطر ، وتقدير المصاعب التى كانت تنتظر العهد الجديد .

فاذا قورنت حال الدولة فى أكثر عهودها السابقة : فى عهد عمر أو عثمان أو معاوية ، بحالها حينما تقلد الخلافة عبد الملك ، فإنه يتبين أن أحوالها تبدلت وتغير وضعها : كانت الدولة وحدة : كتلة متضامة ، فأصبحت الآن منقسمة متوزعة ، كان يسودها الهدوء ، فأصبحت الآن تسودها الفتن والاضطرابات .

كانت جهودها كلها متجهة إلى محاربة العدو فى الخارج ، فأصبحت الآن مشغولة بالتحارب بين أحزابها فى الداخل . كانت قائمة على أسس التضامن والألفة وتأييد الرأى العام ، فأصبحت الآن لا يقرر مصيرها إلا السيف والمال والسياسة ولا بد من التصارع ، «والملك لمن غلب» .

فاذا فكر عبد الملك فى ذلك ، فانه كان يشعر أنه لا يحق له أن يخالط قلبه السرور ، ولا يرى أن ماورثه من والده خير محض بل هو مسئولية وتركة ثقيلة وهم مؤرق ، ويتبين أن ما آل إليه ليس نعمة خالصة ولكن أيضا محنة ، ستكلفه الكثير من الجهود المضنية ، وسيبتلى فيها فكره وعزيمته وإرادته ، إلى آخر مدى تتحمله القدرة البشرية . ذلك أنه إذا نظر إلى ماحوله ، ماذا يرى ؟

* * *

يرى أنه يوجد فى الجانب الآخر من الدولة خليفة آخر — فلم يعد على العالم الإسلامى خليفة واحد ، بل خليفتان — خصم قوى عنيد ، شخصية كبيرة ذات تاريخ مجيد وجهاد مذكور ، أحد أبطال الإسلام ، وهو من الطبقة الأولى من التابعين ، له صلات قرابة بالنبي عليه السلام وأبى بكر والسيدة خديجة ، وأبوه حوارى رسول الله ومن كبار الصحابة ورجال الشورى — وهذا هو « عبد الله بن الزبير » الذى أبى منذ البدء البيعة ليزيد وأقام بمكة عائذا بالحرم ، ثم عقب موت يزيد (٦٤ هـ) أعلن خلافته ، فبايعه أهل مكة والمدينة : أى الحجاز ، وأهل البصرة والكوفة : أى العراق ، وأرسل إليه بالبيعة أهل مصر واليمن وخراسان أيضاً ، وكاد أن يتم له الأمر لولا أن ظهر مروان وبايعه أهل الشام بعد سبعة أشهر ، ولم يستطع مروان أن ينتزع منه غير مصر فقط ، وذلك قبل وفاته بشهرين .

بذلك كان مع ابن الزبير القسم الشرقى كله من الدولة ، وهو الجزء الأكبر .

فحين تولى عبد الملك خلفا من أبيه لم يكن فى يده غير الشام ومصر فقط ، وهذه كانت حدود خلافته المحصورة . هذا على أن دولتهم لم تقم بالشام الا منذ عشرة أشهر فقط ، ولم تضم مصر الا منذ شهرين ، وأخذت البيعة لعبد الملك وفى بعض نفوس بنى أمية مافيها ، فكانت الدولة بحاجة إلى تثبت أقدامها .

ولم يكن الأمر قاصراً على هذا الحد . فهناك فريق من الأمة أعلن الثورة على هذه الأوضاع كلها — وثورته على بنى أمية كانت أشد — وهؤلاء هم الخوارج . وقد أقام جمع منهم دولة لهم بالأهواز فى إقليم فارس جنوبى البصرة ، وأقامت جماعة أخرى دولة ثانية فى جزيرة العرب فى اليمامة والبحرين وحضرموت وفوق هذا كله ، كان هناك رجال الشيعة بالكوفة وغيرها يتأهبون وينظمون صفوفهم ، استعدادا للقيام بثورة أو تكوين دولة ، وجل غضبهم منصب على الأمويين بالذات ، لأنهم — فى نظرهم — هم الذين اغتصبوا الخلافة من آل البيت وأساءوا إليهم ، وقتلوا كبار أئمتهم .

* * *

فكانت الدولة الإسلامية العربية إذن ، التى كانت موحدة من قبل — فيما عدا فترة الفتنة التى لم تطل بين على ومعاوية — منقسمة الآن إلى أجزاء وفرق متباينة ، أو دول : فهناك دولة ابن الزبير فى الحجاز ، ودولة بنى أمية فى الشام ، ودولة الخوارج « الأزارقة » بالأهواز ، ودولة الخوارج « النجدات » بجزيرة العرب ، ودولة الشيعة بالكوفة فى العراق . ولكن دولة بنى أمية بالشام تقف وحدها ، ويقف ضدها الباقون موحدين فى هدف محاربتها والقضاء عليها .

فهكذا حين ألقيت مسئولية الخلافة على كاهل عبد الملك ، كانت دولته —

— وهى محصورة فى منطقتها — محاطة بالأخطار مهددة من كل جانب . وكان عليه إذا أراد أن يضمن بقاء دولته أو يوسع حدودها ، أو يعمد إلى إعادة الوحدة للدولة الكبرى ، أن يواجه كل هذه الدول الأخرى ، ويخوض معها غمرات القتال . هذا على أن الدولة كانت معرضة للأخطار من الخارج ، أيضاً : فهناك دولة الروم لاتزال بالمرصاد ، تنتهز فرصة الانقسام لتغير على الحدود فى الشمال والغرب ؛ وقد ارتدت الجيوش فى شمال أفريقية بعد أن وصلت إلى شاطىء المحيط ، وفقدت بعض الأقاليم . كما أنه كانت على الحدود — فى الشرق — الجموع المتربصة من ترك وهنود وخزر وغيرهم . فالأخطار ماثلة فى الداخل والخارج .

هذا هو مجمل الوضع كما وجده عبد الملك فى بدء خلافته .

* * *

لكن كيف وصلت الأمور إلى هذا الحد ؟ وكيف تطورت الأحداث حتى تصدعت الدولة ، ووجدت هذه القوى التى يقف بعضها فى مواجهة بعضها الآخر ؟ وما سبب هذا السخط أو العداء ، الذى كان موجها من سائر أجزاء العالم الإسلامى ضد دولة بنى أمية ؟ . ثم كيف وصل الملك أو الخلافة لمروان وبنيه ، وذلك منذ أواخر سنة ٦٤ هـ — مع أن مروان وأسرته وابنه عبد الملك قضوا كل حياتهم فى الحجاز ، ولم يهاجروا إلى الشام إلا قبل البيعة لمروان بستة أشهر فقط ، إذ أن قدومهم كان فى شهر ربيع الثانى من سنة ٦٤ هـ ، ثم تمت البيعة لمروان وبدأت دولته فى ذى القعدة من نفس هذا العام ؟ . وقد كان هذا تطوراً عجيباً ، وضربة فذة من ضربات القدر .

فلا تفهم التطورات ولا تتم الصورة إذن إلا إذا عرفنا أحوال الدولة فى هذا العام التاريخى ، الذى كان فى الواقع عام انتقال فى حياة الدولة كلها ، وكانت

الدولة تمر فيه بدور أزمة ، والأحداث التي وقعت فيه كانت الأصل لما تلاها من أحداث ، وهو عام ٦٤ من الهجرة .

الدولة فى أزمة

افتتح هـــذا العام وجيش يبلغ عدده نحو عشرة آلاف مقاتل يتحرك متجهاً إلى « مكة » — لمحاربة أهلها ، بعد أن فرغ من قتال أهل « المدينة » . وهذا الجيش أرسله « يزيد بن معاوية » ، الذى كان يحكم الدولة فى ذلك الوقت ، من الشام للقضاء على الثورة التى شبت فى المدينة ، ثم الأخرى فى مكة . وهذه الحقيقة وحدها ترمز إلى حال السخط ، الذى عم أنحاء الدوله ضد حكم « يزيد » بصفة خاصة ، وبنى أمية بصفة عامة .

وقد كانت أسباب السخط متعددة : فكثير من الناس لم يكونوا راضين عن تولية يزيد منذ البداية ، وكثير لم يرضوا عن أعماله فيما بعد . ولكن كان فى مقدمة الأسباب سياسة الغشم والتجبر ، التى اتبعها بعض ولاة « يزيد » ضد الخصوم السياسيين لهذا الحكم ، والتى تمثلت بأبشع صورها فى مأساة قتل «الحسين» . سنتكلم عن هذه المأساة فيما بعد ، ونحدد مسئولية ارتكابها ، ولكن يلزم مبدئياً أن نقرر أن المسئول الأول عنها هو الآثم الظالم : «عبيدالله بن زياد» — والى يزيد على العراق — ثم تقع التبعة بعد ذلك على يزيد ، لأنه كان يجب عليه أن لا يطلق يد واليه فى التصرف ،وينهاه عن حد الوصول إلى سفك الدم .

وإن هذه الفاجعة التى حدثت فى عاشوراء المحرم من عام ٦١ هـ — أدمت قلوب الناس ، وهزت مشاعر المسلمين هزاً حتى فى داخل بيت يزيد نفسه . وقد عبر هو نفسه — فى عبارات مختلفة — عن أسفه وتحسره لما حدث . وقد أخذ الأثر السيىء الذى أحدثته الفاجعة يزيد ، ويعظم فى النفوس ، حتى تحول إلى

شعور بالنقمة والسخط على الحكومة ، التي كانت السبب فى وقوع الكارثة .

* * *

وفى العام التالى بعد حدوثها ، توجه وفد من أهل المدينة لزيارة الشام ، فشاهدوا مظاهر الترف والإسراف ، وسمعوا عن بعض سيرة يزيد ما أغضبهم ، فقد قيل أنه يميل إلى اللهو والغناء ، وهم الذين يتطلعون إلى السير المثالية من أمثال سيرة أبى بكر وعمر ، فعادوا وقد ازداد سخطهم ، وهم مصممون على القيام بثورة .

فمنذ قدومهم أعلنوا خلع يزيد ، وولوا عليهم رئيساً منهم ، وحاصروا بنى أمية الذين كانوا بالمدينه ثم أخرجوهم . فكانت هذه الثورة هى السبب الذى حدا بيزيد إلى إرسال جيشه الذى أشرنا إليه ، وذلك بقيادة « مسلم بن عقبة » المرى — وكان رجلا جباراً — لمقاتلة أهل المدينة ، فحدثت الموقعة التى تسمى موقعة الحرة فى أواخر سنة ٦٣ ، وقد قتل فيها عدد غير قليل من أهل المدينة ، واستولى الجيش عليها .

* * *

ثم بعد أن فرغ الجيش من مهمته ، سار متوجها إلى مكة لمحاربة أهلها الذين خرجوا على يزيد وحكومتة ، وانضموا إلى ابن الزبير الذى ظل معتصماً بالحرم فى مكة ويدعو سرا إلى نفسه ، وكان ذلك فى أوائل سنة ٦٤ هـ — كما ذكرنا — فى المحرم . وفى الطريق مات « مسلم بن عقبة » ، وخلفه على قيادة الجيش « الحصين بن نمير السكونى » ، فوصل الجيش إلى مكة فى أواخر المحرم سنة ٦٤ ، وضرب الحصار عليها .

وكانت جموع من الخوارج من « البصرة » قد قدمت على عبد الله بن الزبير ،

لما سمعت بمسير هـذا الجيش إلى مكة ، وذلك لتشترك مع عبد الله بن الزبير في الدفاع عن الحرم ، وليوحدوا جهودهم معه في مقاومة الدولة الأموية وإنجاح الثورة ضدها . كما انضم إليه بعض الأبطال ، مثل المختار بن أبي عبيد الثقفي : من زعماء الشيعة ، الذي سيكون له شأن فيما بعد .

وقد ولى ابن الزبير ـ قائدا على جيشة ـ أخاه المنذر بن الزبير ، وخرج بمن معه لمقاتلة جيش الشام ، فقاتلهم قتالا شديداً . وقتل في الموقعة المنذر وبعض أبناء المهاجرين . ولـكن ابن الزبير ـ وكان من فرسان قريش وأبطالها المعدودين ـ ظل يجالدهم طويلا في ذلك اليوم ، والأيام التالية ، ولم يمكنهم أبداً من دخول مكة . فاضطروا إلى الاكتفاء بالحصار ، وظلوا محاصرين لمكة طوال شهر صفر ، ثم أوائل ربيع الأول .

وفي ٣ من هذا الشهر ، حدث حادث اهتمت له كتب السير ، وهو احتراق الكعبة . وقد اختلفوا في السبب الذي أدى إلى هذا الحادث ، ولـكن الأرجح أنه حدث بسبب أن رجلا من أصحاب ابن الزبير أخذ قبساً في رأس رمح ـ وكانو يوقدون حول الكعبة ـ فطيرت الريح شرارة منه ، فوقعت على أستار الكعبة ، فأحرقتها وأحرقت خشب البيت . وقيل أن ذلك كان بسبب قذف البيت بالمنجنيق ، ولـكن الحقيقة أن القذف به حصل في الحصار الثاني ـ وهو الذي سيحدث بعد سنين لا في الحصار الأول .

وفاة يزيد

واستمر الحصار حتى آخر ربيع الأول ، وقد ضاق الأمر على أهل مكة ضيقاً شديداً . وبينما هم كذلك ، إذا بالخبر يصل ـ في أول ربيع الثاني ـ إلى

ابن الزبير ، قبل أن يصل إلى أهل الشام : بأن يزيد ، الخليفة فى دمشق ، قد توفى منذ منتصف الشهر : فقد توفى فى ١٤ ربيع الأول سنة ٦٤ هـ . فنادى ابن الزبير ومن معه فى جند الشام : « علام تقاتلون ؟ قد هلك طاغيتكم ؟ ! » . فلم يصدقوا بادىء الأمر ، ثم جاءهم من أبلغهم الخبر اليقين ، فوقع فيهم الفشل ، وكفوا عن القتال .

وكانت وفاة يزيد بسبب أنه كان يركض فرساً فى سباق ، فوقع من فوق فرسه فأصيب بكسور ، قضت عليه . وكانت مدة حكمه ثلاث سنوات وثمانية أشهر : (٦٠ — ٦٤ هـ) ، تميزت بوقوع هذه الأحداث الثلاثة ، التى أثارت الرأى العام وبثت شعور الكراهية ضده : وهى قتل الحسين ، ومقاتلة أهل المدينة ، وحصار مكه . فمات وسط شعور البغض له ولحكم بنى أمية .

ولم يكن يزيد مرضياً عنه منذ توليته — على كل حال — لأن كثيراً من الأمة كان يقاوم فكرة انتقال الحكم من نظام الشورى إلى الوراثة ، وامتنع بعض الزعماء ـ الذين كان يؤيدهم جانب كبير من الرأى العام ـ عن مبايعته ، وهم : الحسين بن على ، وعبدالرحمن بن أبى بكر ، وعبدالله بن الزبير ، وجرت هذه الأحداث . وإن كان معاوية رأى ـ عند عقد البيعة له بولاية العهد ـ أنه لا يستطيع أن يترك الأمة « كالضأن لاراعى لها » ، فيحدث التنازع والخلاف ، وتسفك الدماء ـ كما حدث بعد مقتل عثمان ـ فكانت هذه وجهة نظره . وإن كانت الأحداث أثبتت ، فيما بعد ، أن الاختلاف لم يمنع ـ مع ذلك ـ وسالت الدماء . وكان من الممكن ـ حقاً ـ تفادى ذلك ، لو استعملت الحكمة والسياسة ، بدلا من العنف والعسف ! .

* * *

وبدت الدولة كأنها تنهار بعد وفاة يزيد .

فأما فى الحجاز ، فان عبد الله بن الزبير أعلن الدعوة إلى نفسه بالخلافة جهرة ، بعد أن كان يدعو سراً . وقد أجابه وانضوى تحت لوائه أهل مكة وأهل المدينة ، وسائر الحجاز — فيما عدا بعض الزعماء مثل عبد الله بن عباس ، ومحمد بن على (المشهور بابن الحنفية) . وقوى مركزه لأنه أصبح بغير منافس ، فأخذت تفد عليه بعد قليل مبايعات الأقاليم : من العراق ومصر وخراسان ، حتى كاتبه عدد من الرؤساء فى الشام أيضاً .

وكان قائد جند الشام — الذين قاموا بحصار مكة — وهو « الحصين ابن نمير » ، قد طلب — عندما تيقن من موت يزيد — أن يقابل ابن الزبير ليفاوضه ، فتمت المقابلة بمكان خارج مكة . وروى أن الحصين عرض على عبد الله أن يبايعه هو والجند الذين تحت امرته ، على أن يخرج معهم إلى الشام ، فيأخذ له البيعة على باقى الجند والقواد فى دمشق ، ويتم له بذلك أمر الخلافة .

وكان مما قال له : «أنت اليوم أحق الناس بهذا الأمر ؛ هلم فلنبايعك . ثم اخرج معى إلى الشام ، فإن هذا الجند الذين معى هم وجوه أهل الشام وفرسانهم ، فوالله لا يختلف عليك اثنان ، وتؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التى كانت بيننا وبينك ، والتى كانت بيننا وبين أهل الحرة » . فأبى عبد الله بن الزبير أن يجيبه إلى ما طلب ، وكره أن يغادر مكة ، ورفض أن يهدر الدماء . ويظهر أيضاً أن أمله فى تحقق ذلك لم يكن قوياً . ولم يكن مقتنعاً بأن الأمر سيتم على هذا النحو . فانتهت المقابلة بأن اختلفا . وحينئذ أمر الحصين جنوده بالعودة وتوجه بهم نحو الشام .

هجرة بنى أمية

وفى طريق عودته مر على المدينة ، فقال له بنو أمية : لا تبرح حتى تحملنا معك إلى الشام ، فخرجوا معه . وذلك لأن موقفهم صار حرجاً بعد موت يزيد ، واضطراب الأمر بالشام ، وبعد ما كان من علاقتهم بالقتال مع أهل المدينة ، في موقعة الحرة . كما أن ابن الزبير — وقد استقر له الأمر — عين أخاً له والياً على المدينة ، وأمره أن يخرج من بقى بها من بنى أمية .

ففى هذا الوقت ، اضطر مروان بن الحكم أن يتخذ قراره — الذى كانت الحوادث ستظهر أنه كان قراراً تاريخياً ، لأنه ترتبت عليه أخطر النتائج — وهو المهاجرة مع أسرته من المدينة إلى دمشق ، مع أنه قضى طول حياته هو وأسرته فى الحجاز .

وكانت هذه أول مرة يفدون فيها على الشام ، للإقامه . وذلك لسر كان يعلمه الله ، ولم يكن يخطر على بالهم إذذاك ولا على خاطر أحد ، كحقيقة قريبة ، وهو أنهم يتولون الخلافة ويصير إليهم الملك ، ويؤسسون دولة يكون لها شأن كبير فى المشرق ثم المغرب . وكان مروان فى آخر حياته ، إذ كانت سنه إذ ذاك نحو الرابعة والستين ، أو أكثر . وكان ابنه عبد الملك فى نحو الأربعين من عمره . وقدموا على الشام (فى ربيع الثانى ٦٤ هـ) فوجدوا أنه بويع لمعاوية بن يزيد ، ولكن الأمر فى غاية الاضطراب ، والقوم فى حيرة وتفرق ، لأن معاوية قد تخلى عن الأمر ، ولم تكن له رغبة فى المنصب ولا قدرة عليه ، وطلب إليهم أن يختاروا غيره ، وهم لا يستطيعون أن يتفقوا على شىء .

فى الشام

وكان ماحدث بالشام هو أن يزيد ـ قبيل وفاته ـ كان عهد بالأمر من بعده لابنه « معاوية » فبايع له الناس عند وفاة أبيه . ولـكن معاوية هذا كان كارها لتولى المنصب أو أية مسئولية ، لأنه كان ضعيفاً أو مريضاً ، أو تغلب عليه نزعة زهد فى الدنيا وتفكر فى أمر الآخرة ، فلم يخرج لمباشرة أى عمل من أعمال الدولة ، وطلب من القوم أن يولوا غيره ، وأمر الضحاك بن قيس أن يصلى بالناس حتى يجتمع الناس على إمام

وقيل أنه فى آخر ولايته جمع الناس فخطبهم ، وقال : « إنى قد نظرت فى أمركم فضعفت عنه ، فابتغيت لـكم رجلا مثل عمر بن الخطاب فلم أجد ، فابتغيت لـكم ستة فى الشورى مثل ستة عمر فلم أجد ، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم » . وتغيب فى منزله ثم مات بعـد قليل ، دون أن يعهد لأحد ، وهو فى العشرين من عمره . واختلف فى سبب موته : فهل كان طبيعياً ، أم بالسم ، أم بإصابة بطاعون ؟ كما اختلف فى مدة ولايته : من أربعين يوما ، إلى ثلاثة أشهر ؟ وعلى ذلك نقدر أن تـكون مدته قد انتهت حوالى جمادى الثانيـــة سنة ٦٤ هـ .

فوقع الاختلاف حينئذ شديداً بين أهل الشام ، وانقسموا شيعاً ، أو على الأقل فريقين رئيسيين : الأول أخذ يتصل بابن الزبير ويريد أن يبايعه ، ويخرج الأمر نهائياً من البيت الأموى ، والفريق الثانى يرفض ذلك ، ويصر على بقاء الأمر فى بنى أميــة كما هو ، ولـكنه لا يستطيع اتخاذ قرار موحد ، لأن « خالد بن يزيد » صغير السن لا يرضى به كثير من الناس ، ولا يصلح بعد لتولى هذا المنصب الخطير ، وليس من السهل اختيار غيره ـ كما أن بعض

الرءوس أخذت تتطلع إلى اعتلاء المنصب . فاشتد الخلاف ولم يمكن الوصول إلى قرار . وبقى الشام بدون خلافة : أى بدون حكومة أودولة ، واستمر الحال كذلك نحو ستة أشهر .

* * *

ووسط هذه الأزمة ، وصل « مروان » وابنه « عبد الملك » وأسرتهما من المدينة إلى دمشق ، ينوون الإقامة بالشام . فاشتركوا فى المداولات ، ثم وفد عليهم آخرون ، وبدأت الأمور تتطور . ثم بعد قليل أخذت اتجاها جديداً .

الموقف فى العراق

أما فى العراق ، فإن تطور الأمور كان أقرب إلى طبيعة رواية تمثيلية ، تحتوى على عنصر المفاجأة والتقلب .

كان الوالى على العراق ليزيد هو الغاشم « عبيد الله بن زياد » ، الذى تحمل الإثم الأول أو الأكبر فى مقتل الحسين . وكانت سياسته على العموم سياسة جبرية وجور ، فكان الناس يكرهونه فى قلوبهم .

فلما بلغه نعى يزيد وتخلى ابنه معاوية ، واضطراب الأمر بالشام ، فكر فى حرج مركزه ، فدعا الناس إلى الاجتماع فى مسجد البصرة وقام يخطبهم . فذكر لهم اختلاف الناس بالشام بعد وفاة يزيد ، وتحدث عن نفسه فقال : إن البصرة هى مهاجر أبيه وأهله وفيها مولده وداره ، ونوه بعمله فقال : إن عدد المقاتلة أى : (جيش البصرة) قد زاد فى عهده من سبعين ألفاً إلى ثمانين ألفاً ، وأن عدد عمال الديوان قد زاد كذلك ، من تسعين ألفاً إلى

مائة وأربعين ألفاً . ثم طلب إليهم أن يختاروا أميراً يولونه عليهم ، يدبر أمورهم حتى يجتمع أهل الشـام على إمام ، وقال إنه يرضى بمن يختارون .

فقال أهل البصرة : قد سمعنا مقالتك وما نعـلم أحداً أقوى عليها منك ، فهلم فلنبايعك » . فأظهر التمنع ثلاثاً ، ثم بسط يده فبايعوه . ثم انصرفوا فجعلوا يمسحون أيديهم بالحيطان وأبواب الدار ، وهم يقولون : « أيظن ابن مرجانة أننا ننقاد له فى الجماعة والفرقة ؟ كذب والله ! » . وما لبثوا أن انفضوا عنه .

وكان قد أرسل أيضاً رسولين إلى أهل الـكوفة يدعوهم إلى مبايعته . فلما قدما الـكوفة وقاما يخطبان الناس ، قاطعهما أحد الرؤساء ، قائلاً : « الحمد لله الذى أراحنا من ابن سمية . أنحن نبايعه ؟ لا ، ولا كرامة !» . وقذفهما بالحصى ، فتبعه الناس وأخذوا يحصبونهما . ورموا كذلك نائب ابن زياد فى الـكوفة وعزلوه . وهـكذا رفض أهل الـكوفة أن يبايعوا لابن زياد ، وردوا الرسولين خائبين . فلما قدما البصرة ، قال أهل البصرة : « أيخلعه أهل الـكوفة ونوليه نحن؟» فزادهم ذلك إصراراً على خلعه . وأخذوا جميعاً يتفرقون عنه فذهب سلطانه ، وصار لا يجاب له أمر . فـكان يأمر بالأمر فلا يقضى ، ويرى الرأى فيرد عليه ، ويأمر بحبس المخطىء فيحال بين أعوانه وبينه .

* * *

وفى هذا الوقت ظهر أحد فرسان البصرة وهو : سلمة بن ذؤيب التميمى ، فجاء إلى سوق المدينة ممتطياً جواده لابساً سلاحه ، وهو يرفع لواءه ويقول : « أيها الناس ، هلموا إلى . إنى أدعوكم إلى مالم يدعكم إليه أحد . أدعوكم إلى العائذ بالحرم — يعنى :عبدالله بن الزبير» . فأقبل عليه الناس ، وأخذوا يبايعونه . وصار جمعه يـكثر .

فلما بلغ الخبر ابن زياد قام بآخر محاولة له ، فجمع الناس وقام فيهم خطيباً . فقص ما كان من أمره معهم وكيف أنه دعاهم إلى أن يختاروا من يرضونه ، وأنه كان مستعداً أن يوافق على اختيارهم ، ثم قال — وهو يوجه الخطاب إليهم — « ولكنكم أبيتم غيرى . وأنه بلغنى أنكم مسحتم أكفكم بالحيطان وباب الدار ، وقلتم ما قلتم . وإنى آمر بالأمر فلا ينفذ ، ويرد على رأيى ، وتحول القبائل بين أعوانى وطلبتى . ثم هذا سلمة بن ذؤيب يدعو إلى الخلاف عليكم ، إرادة أن يفرق جماعتكم ويضرب بعضكم جباه بعض بالسيف ! ». فقال الأحنف بن قيس زعيم تميم : نحن نأتيك به . ولكنهم حين أتوه ، وجدوا أن الناس قد اجتمعوا عليه وكثر أتباعه ، فتخلوا أيضاً عن ابن زياد .

هرب ابن زياد

وجد ابن زياد حينئذ أنه أصبح وحيدا ، وشعر بالخطر ، فحاول أن يحمل الحرس الخاص وأفراد أسرته على أن يقاتلوا معه ، فأبوا ، وحذره أحد إخوته من عاقبة ذلك بل هدده إذا أقدم على ذلك أن يزهق نفسه ، بأن يستند بثقله على حد السيف ، حتى ينفذ من ظهره ! ثم بدأ الناس يهاجمون ابن زياد ، فرماه بعضهم بسهم فأيقن بالهلكة ، ولم يجد بدا من الهرب ، فاختفى . .

وكان اختفاؤه بأن لجأ إلى أحد أشراف الأزد — وهو «الحارث بن قيس» وطلب منه أن يحميه ، لأن الأزد كانوا أصدقاء أبيه . فخرج به الحارث فى جنح الظلام ، وسار به فى خوف فى دور الأحياء حتى أتى به منزله ، فأخفاه عنده . لكن الهارب كأنه لم يشعر بالاطمئنان ، فأشار على الحارث أن يذهب به إلى منزل «مسعود بن عمرو » — سيد الأزد — وكانت له الرئاسة عليهم ، فتوجه

به إليه . فلما رآهما مسعود كره ذلك فى أول الأمر ، ثم غلبت عليه طبيعة النجدة وحب الذكر ، فأنزل ابن زياد فى داره وأجاره .

ولما اختفى ابن زياد ، رأى أهل البصرة أنه لابد أن يولوا عليهم أميرا يدبر شئونهم ، فاختلفوا أولا . ثم اتفقوا على اختيار (عبد الله بن الحارث — وهو ينتمى من جهة أبيه إلى عبد المطلب ، ومن جهة أمه إلى أبى سفيان — وكان أهل البصرة يلقبونه (ببه)— فبايعوه ؛ وكانت مبايعتهم له فى أول جمادى الآخرة سنة ٦٤ هـ . فبقى أميرا عليهم نحو ثلاثة أشهر ، إلى أن أرسل ابن الزبير إليهم أميراً آخر .

* * *

وفى أثناء ذلك ، دبر ابن زياد — وهو فى مخبئه — مؤامرة حاول أن يتمكن بها من الرجوع إلى الإمارة .

وذلك بأن سعى إلى عقد تحالف بين قبائل الأزد وربيعة واليمن ضد تميم ، وأنفق فى ذلك أموالا . فتم له ذلك . ثم بعث « مسعودا » على أنه خليفة له ، فسار على رأس القوات المتحالفة ، ليستولى على المدينة ، فلما علمت تميم بذلك ورئيسها الأحنف بن قيس ، سارت — بعد تلكؤ — بقواتها ، لتمنع تنفيذ المؤامرة . فالتقوا عند باب مسجد البصرة ، وحدث قتال بينهم . وبينما كان « مسعود بن عمرو » على المنبر يخطب ويحرض الناس ، أصابه سهم فقتل . أو استنزله رجال من تميم وقتلوه ، فانهزم قومه . ولما بلغ خبر مقتله ابن زياد — وكان يتتبع أخبار القوم ، وهو يتهيأ ليذهب إلى دار الإمارة — أسرع إلى الرحيل فوضع رجله فى ركابه — وأرسلت الأزد معه من يؤمنه فى الطريق — وتوجه على الفور هاربا إلى الشام . وكان ذلك فى أول شعبان سنة ٦٤ هـ .

وفد ابن زياد على الشام ، فوجد هناك مروان بن الحكم وعبد الملك وجميع بنى أمية ،ووجد القوم مختلفين مترددين ، لم يستطيعوا أن يتفقوا على شيء ، حتى إن مروان بدأت تساوره فكرة أن يكاتب ابن الزبير ، أو يذهب إليه ليبايعه ويأخذ منه أمانا لبنى أمية .

دولة ابن الزبير

هذا، على حين أن الأمر أخذ يستحكم لابن الزبير ، ويمتد نفوذ دولته. فإلى جانب الحجاز الذى التف حوله منذ البداية ، أتته البيع من سائر الأقاليم .

فلما تمت له بيعة أهل البصرة ، وأرسلوا إليه يسألونه أن يولى عليهم أميرا من قبله — أرسل اليهم ابن الزبير عمر بن عبيد الله بن معمر « القرشى » واليا عليهم ، وذلك فى شوال سنة ٦٤ . كذلك لما أرسل إليه أهل الكوفة—ماعدا الشيعة — يطلبون أن يولى عليهم واليا — أرسل إليهم محمدبن يزيدالأنصارى واليا عليهم ، ومعه ابراهيم بن محمد بن طلحة على الخراج ، فقدما إلى الكوفة فى رمضان سنة ٦٤ . وعين ابن الزبير محمد بن الأشعث الكندى على الموصل .

وحوالى هذا الوقت ، أرسل إليه عبدالله بن خازم السلمى ـ بعد أن استولى على مرو وخراسان ـ ببيعته أيضا ، فأقره بن الزبير وجعله واليا على خراسان . وأرسل إليه كذلك أهل مصر ببيعتهم ، فولى عليهم عبد الرحمن بن عتبة الفهرى، فقدم مصر وانضم إليه أهلها ، وذلك فى شعبان سنة ٦٤ هـ .

وهكذا فى تلك السنة : سنة ٦٤ ، كاد يتم الأمر لعبيد الله ابن الزبير . وولى

الولاة من قبله — كما رأينا — على أكثر الأقاليم . بل إن أكثر أمراء الشام نفسه كتبوا إليه ، وأرسل يقرهم على إماراتهم . فكتب إليه الضحاك بن قيس الفهرى ، أمير دمشق . والنعمان بن بشير الأنصارى أمير حمص ، وزفر بن الحارث الكلابى أمير قنسرين . ولم يبق إلا أهل الأردن وفلسطين — وأميرهم حسان بن مالك الكلبى — وهو من زعماء العرب اليمنية .

وإذ ذاك قدم عبيد الله بن زياد من العراق ، فالتقى مع مروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان وعمرو بن سعيد بن العاص ، وسائر بنى أمية، واجتمعوا مع حسان بن مالك والحصين بن نمير ، وغيرهما من قواد الجيش. وحينئذ أخذت الأمور تتغير ، وتتجه اتجاها جديدا ، ستكون له النتيجة الحاسمة . وذلك منذ رمضان من ذلك العام .

شيعة وخوارج

ولكى تكمل الصورة عن أهم أحداث ذلك العام ينبغى أن نشير الى فرقتين : أى الخوارج والشيعة .

فأما الأولون : فكانوا قدموا على ابن الزبير بمكة فى أوائل العام — كما ذكرنا — ليؤيدوه فى الدفاع عن مكة والحرم . ثم فارقوه بعد موت يزيد (ربيع الأول ٦٤) . لأنهم اختلفوا معه فى العقيدة والهدف . فتوجه فريق منهم — وهو الأكثر — إلى البصرة. وعلى رأسهم نافع بن الأزرق . وتوجه فريق آخر إلى اليمامة ، وولوا عليهم رجلا يدعى أبا طالوت .

وفى أثناء اشتغال أهل البصرة بالوثوب على ابن زياد والمعركة بين تميم والأزد . خرج الخوارج ثائرين ورئيسهم نافع بن الأزرق — وهؤلاء هم «الأزارقة»

فطاردهم أهل البصرة . ثم أقاموا معسكرهم أو دولتهم بالأهواز . وذلك في شوال سنة ٦٤ . وفارق نجدة بن عطية نافع بن الأزرق لأنه لم يوافق على مبادئه ، فلحق باليمامة . وهناك تبعه الناس وخلعوا أبا طالوت . فكون نجدة دولة أخرى من الخوارج في قلب جزيرة العرب . وهؤلاء هم الذين يسمون الخوارج النجدات .

أما الشيعة ، فكانوا يكونون في الكوفة حزباً منظما قويا ؛ وفي بعض المدن الأخرى . بدأوا تكوينه منذ مقتل الحسين ، ثم أظهروا أمرهم بعد موت يزيد وإخراج ابن زياد ، وبدأوا ينشرون دعوتهم ويستعدون للحرب . وكان زعيمهم « سليمان بن صرد الخزاعي » - وهو من أصحاب علي وصحابي قديم . ولم يمنعهم بقية أهل الكوفة ولا ولاة ابن الزبير ، لأنهم كانو يشاركونهم الشعور ضد قتلة الحسين .

ثم قدم إلى الكوفة أيضاً « المختار بن أبي عبيد الثقفي » ، بعد أن كان مشتركا في القتال مع ابن الزبير ضد جيش يزيد ، وفارقه مختلفاً معه . وهو زعيم شيعي آخر ، قدم مظهراً الدعوة إلى « محمد بن علي » ، وساعياً إلى جمع الناس تحت لوائه . وسيبدأ حركة قوية ، ويكون له شأن . وكان قدومه في منتصف رمضان سنة ٦٤ .

* * *

ونكتفي الآن بهذه الإشارة إلى الشيعة والخوارج، لأننا سنفصل أمرهم فيما بعد . وهكذا في تلك السنة، أو ذلك العام التاريخي — أخذت القوات تتحرك والدعوات تظهر ، والاتجاهات تتحدد ، وكل حزب يجمع قوته ويعد وسائله ويختار مكانه ، وذلك استعداداً لما سيحدث من تطورات خطيرة .

وستلتحم هـذه القوى بعضها مع بعض ، وتستمر معاركها زمناً — كما سيتبين ذلك من سير الأحداث فى الأعوام التالية . لـكن أهم مسرح للحوادث ، وهو الذى يجدر أن توجه إليه الأنظار فى هـــذا الظرف ، لأنه ستتم فيه أهم التطورات وتتخذ القرارات الحاسمة ، التى ستغير مجرى التاريخ ، كان هو مسرح الشام . لأن الشام كان مقر الدولة ، وطالما كان مركزها الحساس ، وقلبها النابض وعقلها الموجه . فننظر الآن كيف تطورت فيه الأمور ، وماذا كان مصيرها ونتائجها ؟ .

الفصل الثانى

دولة آل مروان

كان وصول عبيد الله بن زياد إلى الشام من العوامل الحاسمة فى الموقف .

وصل عبيد الله هذا إلى الشام ، فوجد القوم فى أمر مريج. وهم منقسمون قسمين : فريق يدعو إلى ابن الزبير سرا أو جهرة ، وفريق يدعو إلى بنى أمية.

وزعيم الفريق الأول الضحاك بن قيس الفهرى ، الذى كان وقتذاك أمير دمشق ، وكانت له من قبل مكانة كبيرة عند معاوية وابنه يزيد . ويؤيده النعمان بن بشير الأنصارى أمير حمص ، وزفر بن الحارث الكلابى (رئيس قيس) وهو أميرقنسرين. وزعيم الفريق الثانى حسان بن مالك بن بحدل الكلبى: (رئيس القبائل اليمنية ، التى من أكبرها قبيلة كلب) وكان أمير فلسطين والأردن ، وذلك منذ عهد معاوية ويزيد . وهو صاحب النفوذ الأكبر فى الشام ، لأن العرب اليمنية كانت لها الأغلبية فى الشام ، ويكونون أكثرية الجنود . كما أن حساناً وعشيرته كانوا أخوال البيت المالك ، لأنهم أخوال يزيد بن معاوية وابنه . فيزيد أمه هى ميسون بنت بحدل الكلبية،من عشيرة كلب هذه . ويؤيد حسانا فى موقفه بنو أمية جميعاً ، وكذلك أكثر قواد الجيش والجنود .

ثم أن هذا الفريق الثانى كان — بدوره — ينقسم إلى شطرين : فجانب أو حزب يدعو إلى خالد بن يزيد بن معاوية بالذات ، بحق انتظام الوراثة . وهذا

هو حزب حسان ومن تبعه . وآخرون ، فى نفس الوقت الذى يؤيدون فيه بنى أميـة ، لا يرضون بخالد ، لأنه لا يزال غلاماً حديث السن ، ولـكنهم لا يعرفون من يرشحون بدلا منه . وكان فى مقدمة هـذه الطائفة الحصين ابن نمير السكونى ، الذى كان قائد الجيش الذى توجه من قبل لحصار مكة وابن الزبير ، فى العهد السابق . كما كان من هذا الرأى أهل الأردن جميعاً ، وهم قوة كبيرة بين العرب .

* * *

فهكذا كان أهل الشام مختلفين ، منقسمين إلى هذه الطوائف أو الأحزاب وظل أمرهم على هذه الحال ، ولم يكن هناك أمل فى أن يصلوا إلى اتفاق ، أو يتنازل فريق للآخر عن موقفه. وعلى ذلك استمر الشام بدون إمام ولا دولة ، عدة أشهـر . وكان لابد أن يؤدى التنازع والتوتر إلى حدوث مصادمات ، فوقعت بعض المناوشات ، التى باتت تنذر بنشوب حرب أهلية .

كتب حسان بن مالك — وهو بالأردن — كتاباً إلى الضحاك بن قيس ، وهو فى دمشق ، يبين له فيه حق بنى أمية فى هـذا الأمر ، ويدافع عنه ويشيد بأعمالهم ومآثرهم ، ويذكره بما أسدوا إليه من معروف وما رفعوا من قدره ، ويدعوه إلى الطاعة والجماعة والبيعة لبنى أمية ، كما يذكر ابن الزبير فيثلبه ويذمه ، ويقول إنه ناكث ، لأنه خلع خليفتين ، وهما يزيد وابنه ، وهكذا . وطلب من الضحاك أن يقرأ كتابه هذا على الناس، فى المسجد الجامع . ولـكنه فى نفس الوقت كتب نسخة ثانية أعطاها للرسول ، وقال له: أن لم يقرأ الضحاك كتابى على الناس ، فقم أنت واقرأ عليهم الكتاب — كما كتب نسخة ثالثة أرسلها إلى بنى أمية ، وطلب منهم أن يحضروا هذا الاجتماع .

فلما كان يوم الجمعة ، وصعد الضحاك المنبر ، قام إليه الرسول وطلب منه أن يقرأ كتاب حسان على الناس . فرفض الضحاك ، وأمره بالجلوس — فعل ذلك ثلاث مرات . فحينئذ ، قام الرسول وأخرج الكتاب الذى معه وقرأه على الناس . فقام بنو أمية وصدقوا حسانا ، وحملوا على ابن الزبير . وأيدهم الرؤساء من غسان وكلب . وقام آخرون من قيس من أتباع الضحاك ، فسبوا حسانا ، وأثنوا على ابن الزبير . وهكذا اضطرب الناس ، وجال بعضهم فى بعض بالمسجد وتضاربوا . وأمر الضحاك حرسه بأن يحبسوا الرؤساء ، الذين صدقوا مقالة حسان، وشتموا ابن الزبير ، فأخذوهم ،ونزل الضحاك فصلى بالناس الجمعة. فجاءت جموع من غسان وكلب ، فهاجموا السجن ، وأخرجوا المسجونين .

وهكذا زاد هذا الاشتباك العنيف من حدة التوتر . وهذا اليوم كان أهل الشام يسمونه « يوم جيرون الأول » — نسبة إلى الموضع بجوار المسجد الذى حدثت فيه المعركة .

وفى يوم جمعة آخر ، خرج الضحاك إلى مسجد دمشق ، فجلس فيه . فذكر يزيد بن معاوية ، ووقع فيه وذمه ،فقام إليه شاب من قبيلة كلب بعصا كانت معه فضربه بها ، والناس جالسون فى هيئة حلق ، وهم متقلدون سيوفهم . فقام بعضهم إلى بعض فى المسجد ، فاقتتلوا : قيس تدعو إلى ابن الزبير ونصرة الضحاك ، وكلب تدعو إلى بنى أمية ثم إلى خالد بن يزيد ويتعصبون ليزيد . ودخل الضحاك دار الإمارة وأصبح الناس فلم يخرج إلى صلاة الفجر وهكذا بلغ هياج النفوس أقصاه ، وكانت هذه بوادر تنذر بوقوع حرب داخلية .

مروان والخلافة

فى هذه الظروف وصل عبيد الله بن زياد إلى الشام من العراق ، هارباً

— كما قدمنا — قد أخرج من ملكه ودياره ، فكان وجوده بدمشق أحد العوامل الحاسمة فى الموقف .

فقد قابل « مروان بن الحكم » وتناقش معه عن الحال فوجد مروان يخامره اليأس ، وهو لا يرى أملا فى رأب الصدع وزوال الخلاف . ولم يكن مروان ـ حتى هذا الوقت ـ يفكر فى أنه يمكن أن ينهض ليرشح نفسه ، لنيل منصب الخلافة ، أو إذا كان عرض له هذا الخاطر ، فإنه ما كان يراه مشروعا قابلا للتحقيق. ذلك لأن مروان عاش طول حياته بعيداً عن الشام ، فى الحجاز . ولم ينتقل مع أسرته إلى دمشق إلا منذ بضعة أشهر ، وقد أشرف على الخامسة والستين . فكان يعد كأنه غريب عن أهل البلاد ، ليست له بهم صلات قوية ، وليست لهم به ألفة . ولذلك لم يذكر أحد اسمه كأحد المرشحين للبيعة ، ولم يقم أحد بالدعوة إليه . والدلائل تدل على أنه لم يكن يرضى بخالد لأنه ليس إلا كأحد أحفاده ، ولم يكن راضياً عن آل أبى سفيان فى قرارة نفسه ، وبخاصة يزيد . لهذا لم يكن عجيباً أنه أخذت تراوده فكرة أن يتوجه إلى ابن الزبير ـ وكانت بين أسرتيهما صلة قديمة بالمدينة ـ ليبايعه ويأخذ منه أماناً لأسرته وبنى أمية .

فوصل عبيد الله بن زياد وهو فى هذه الحال، فلما وقف ابن زياد منه فى هذه المقابلة على رأيه وما يجول بخاطره ، إذا به يعرب عن دهشته ويعلن استنكاره لهذه الفكرة ، التى جالت بخاطر مروان : وقال له فيما قال : « قد استحييت لك مما تريد أن تصنعه ، أنت كبير قريش وسيدها تمضى إلى أبى خبيب (يعنى ابن الزبير) فتبايعه ؟ ! . أنشدك الله أن لا تفعل ، فأنت أولى بها منه » . وفى رواية ثانية أنه قال له : « أنت سيد بنى عبد مناف » . فقال له مروان : « فما

الرأى ؟ » . قال: أن تنهض وتدعو إلى نفسك ؛ وأنا أكفيك قريشاً ومواليها فلا يخالفك منهم أحد . وكان بنو أمية وعمرو بن سعيد بن العاص حاضرين ؛ فقال عمرو : « صدق عبيد الله ، أنت شيخ قريش وسيدها ؛ وأنت أحق الناس بالقيام بهذا الأمر » .

فوقع هذا الكلام من نفس مروان الموقع الطيب، وصادف — على الفور — منه موضع القبول، كأنه كان ينتظر أحداً أن يفوه به فى أى وقت ، وتحدثه به نفسه فى العقل الباطن . وكأنما طرح — فجأة — كل ما كان يفكر فيه جملة واتجه إلى شئ جديد ، فقال : « مافات شيء بعد » . ثم قام ومعه بنو أمية ومن تبعه فسار ، وهو يقول « مافات شيء بعد » ! وحينئذ وضح الطريق ، وظهرت فكرة جديدة فى الموقف . وكانت — كما أن الحوادث ستثبت بعد قليل — هى الفكرة الحاسمة .

* * *

نهض مروان اذن للعمل . وتكفل عنه فى الدعوة إليه ونشر الفكرة « عبيد الله بن زيادة » وعمرو بن سعيد ، وكثير من بنى أمية وغيرهم ، وقد كانت هذه الفكرة حلا عملياً وسطا يمكن أن يوفق به بين الآراء بعد التقارب . وكان فيها الجواب ـ بصفة خاصة ـ لما كان يتمناه أهل الأردن ويرضونه . فإن « حسانا » حينما توجه إلى أهل الأردن ليدعوهم إلى بيعة ابن أخته : خالد بن يزيد ، قالوا له : « إننا نوافقك على آرائك : إنا نشهد مثلك أن ابن الزبير ناكث ، وأن الذين قتلوا يوم الحرة ليسوا ناجين ، وأن يزيد كان على حق ، وأن الذين قتلوا منا هم الناجون . نحن إذن على رأى واحد ، ونحن لا نريد أن يخرج هذا الأمر عن بنى أمية . وإنا نبايعك على أن نقاتل

معك من خالفك وأطاع ابن الزبير . ولـكن بشرط أن تجنبنا هذين الغلامين فإنا نـكره ذلك (يعنون ابنى يزيد بن معاوية : عبد الله وخالدا) — فإنا نـكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بصبى ! » — يعنون أن الناس فى الحجاز والعراق أتوا بشيخ كبير ، هو عبدالله ابن الزبير ، وهم يراد منهم أن يأتوا بصبى ، هو خالد أو عبد الله : ابنا يزيد . اذن ففـكرة ترشيح مروان وتنصيبه للخلافة - وهو شيخ مكافىء لابن الزبير ، وفى نفس الوقت من بنى أمية - لابد أن تلاقى منهم أحسن القبول ، ويجدوا فيها الجواب لما يتمنونه . وهـذا هو الذى حدث بالفعل . فإننا سنرى أنهم كانوا أكبر المؤيدين لمروان ، وأول من بايعه . ومن الأردن نبتت دولة آل مروان .

مؤتمر الجابيه

نشط ابن زياد فى الدعوة لمروان ، وناصب هو وبنو أمية جميعاً ومؤيدوهم - سواء منهم من تبعوا رأيه ومن بقوا على ولائهم لخالد - ناصبوا « الضحاك بن قيس » العداء وضيقوا عليه الخناق ، حتى فشا الانقسام بين الأجناد فى دمشق .

ولما حدثت المصادمات - كما ذكرنا من قبل - واعتدى على الضحاك نفسه وتحديث سلطته ، أحسن بالحرج وشعر بخطر مركزه ، فبدا عليه التردد أو مال إلى المساومة ، فاتصل ببنى أمية ودعاهم إلى الاجتماع عنده . فحضروا إليه من الغد ، فتكلم إليهم معتذرا ، وذكر حسن صنيعهم له ، وقال : إنه ليس يريد شيئاً يكرهونه . وبعد أن تفاوضوا عرض اقتراح فوافقوا عليه جميعاً - وكان اقتراحاً بارعا - وذلك أنهم قرروا أن يعقد اجتماع عام ، أو مؤتمر ، يحضره جميع الأطراف ويتبادلون الآراء ، ليتفقوا على اختيار رجل من بنى أمية يولونه

الخلافة . واختاروا أن يكون مكان الاجتماع « الجابية » - وهى موقع بين الأردن ودمشق . فيكتب بنو أمية والضحاك إلى حسان ومن معه من أهل الأردن أن يوافوهم هناك ، ويسير الضحاك ومن معه من أهل دمشق فيلتقوا بهم فى ذاك المكان . فكتب كل طرف إلى الآخر فعلا ، وخرج الناس بأعلامهم ، وبدأ الاستعداد لعقد هذا الاجتماع أو المؤتمر .

* * *

فأما حسان وأهل الأردن وبنو أمية فساروا إلى الاجتماع بدون تردد . وأما الضحاك بن قيس وأتباعه فتوقفوا فى الطريق ، ثم عدلوا عن حضور المؤتمر . والسبب - الذى قيل لتعليل ذلك - هو أن بعض أصحاب الضحاك ، ممن كانوا أجابوه إلى بيعة ابن الزبير لاموه بشدة على تغيير رأيه ، وأنكروا تحوله لبنى أمية ، وأثاروا فيه روح العصبية ثانية ؛ فانثنى إلى رأيهم ، وعاد إلى موقفه الأول . أو ربما كانت هذه المسألة كلها حيلة أو مناورة ، ليتخلص الضحاك من الحصار الذى كان حوله فى دمشق، ويتمكن من الخروج للدفاع أو لتعبئة قواته . وقد سار الضحاك إلى « مرج راهط » ، خارج دمشق ، وأقام معسكره فيه. وعلى كل ، فإن المؤتمر تم انعقاده - فعلا - فى «الجابية»، حضره أهل الأردن وفلسطين وأنصار بنى أمية من دمشق وغيرها ، وبنو أمية - وفى مقدمتهم مروان بن الحكم ، وابناه : عبد الملك وعبد العزيز ، ثم حسان بن مالك وأكثر قواد الجيش . واستمر انعقاد المؤتمر أربعين يوماً ، وكان حسان يصلى بالناس فيه : أى أنه كان إمام المؤتمر أو بمثابة رئيس له .

* * *

كان « مؤتمر الجابية » مؤتمراً تاريخياً . ويمكن أن يوصف - بلغة السياسة الحديثة - بأنه كان مؤتمراً « دستورياً » . فقد حضره ممثلو الرأى العام

فى الأمة ، ليتشاوروا بحرية ليصلوا إلى قرار ينهون به الأزمة القائمة ويحسمون الخلاف ، ويحفظون كيان الأمة ويصونون مستقبلها . وتمت الدعوة إليه بالرضا من عناصر الأمة ، لا من قبل حكومة ولا بإكراه من سلطة رسمية ، فهو مؤتمر ديمقراطى شعبى .

وقد لبث الحاضرون يتناقشون مدة طويلة . ويدل ما ورد من بعض المناقشات فيه على أن وجهات النظر كانت تتبادل فيه بحرية . فمن ذلك ماجرى بين مالك بن هبيرة السكونى والحصين بن نمير السكونى ـ وهما قائدان بارزان ، ينتميان إلى عشيرة واحدة .

فقد كان الأول يهوى هوى بنى يزيد ، ويحب أن تكون الخلافة فيهم ، فقال للآخر : « هلم فلنبايع لهذا الغلام الذى نحن ولدنا أباه وهو ابن أختنا ، فقد عرفت منزلتنا كانت من أبيه ، فإنه يحملنا على رقاب العرب غداً ـ يعنى : خالد ابن يزيد . فقال الحصين : « لا لعمر الله . لا تأتينا العرب بشيخ ونأتيهم بصبى » . فقال له مالك : « والله لئن استخلفت مروان ، وآل مروان ، ليحسدنك على سوطك وشراك نعلك ، وظل شجرة تستظل بها . إن مروان أبو عشيرة وأخو عشيرة فان بايعتموه كنتم عبيداً لهم » . فقال الحصين : « مروان شيخ قريش ، والطالب بدم الخليفة المظلوم ، وهو يدبرنا ويسوسنا ، ولا يحتاج إلى أن ندبره ونسوسه ، وغيره يحتاج إلى أن يدبر ويساس » . ثم روى له رؤيا رآها ، وهى أنه رأى فى المنام قنديلا معلقاً فى السماء وأن من يتناوله يلى الخلافة ، فلم ينله أحد إلا مروان . وقال : « والله لنستخلفنه » .

ومناقشة أخرى ، جرت بين حسان بن مالك ورجل آخر هو ابن عضاه

الأشعري . فقد قال لحسان : « أراك تريد هذا الأمر لخالد بن يزيد وهو حدث السن ! . فقال له حسان : « نعم إنه معدن الملك ومقر السياسة والرئاسة » .
فأتى ابن عضاه خالداً فى جماعة من نظرائه فوجده نائماً متصبحاً ، فقال : « يا قوم : أنجعل نحورنا أغراضا للأسنة والسهوم بهذا الغلام وهو نائم فى هذه الساعة ، وإنما صاحب هذا الأمر المجد المشمر الحازم المتيقظ ؟ ! »

ثم أتى مروان بن الحكم ، فألفاه فى فسطاط له ، وإذا درعه إلى جانبه والرمح مركوز بفنائه ، وفرسه مربوط إلى جانب فسطاطه ، والمصحف بين يديه — وهو يقرأ القرآن . فقال ابن عضاه : « ياقوم ، هذا صاحبنا الذى يصلح له الأمر ، وهو ابن عم عثمان أمير المؤمنين ، وشيخ قريش وسيدها » .

فرجعوا إلى حسان فأخبروه خبر ذلك ، وأعلموه أنهم مجمعون على مروان لأنه كبير قريش وشيخها . وحينئذ قال حسان : « رأيى لرأيكم تبع ، إنما كرهت أن تعدل الخلافة إلى ابن الزبير ، وتخرج من آل هذا البيت » .

* * *

ويظهر أنهم فى هذا الاجتماع عرضوا أسماء المرشحين ، وبحثوا فى أمر كل منهم . وممن ذكر اسمه : عبد الله بن عمر .
يدل على ذلك الخطبة التى ألقاها فى المؤتمر روح بن زنباع الجذامى — وكان أمير فلسطين خلفا لحسان — فقد قام روح ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس ، إنكم تذكرون عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وصحبته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقدمه فى الاسلام — وهو كما تذكرون ، ولكن ابن عمر رجل ضعيف ، وليس بصاحب أمة محمد الضعيف . وأما ما يذكر

الناس من عبد الله بن الزبير ويدعون إليه من أمره، فهو — والله — كما يذكرون بأنه ابن الزبير حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن أسماء بنت أبى بكر الصديق ذات النطاقين ، وهو — بعد — كما تذكرون ، فى قدمه وفضله . ولكن ابن الزبير منافق قد خلع خليفتين : يزيد وابنه معاوية ، وسفك الدماء وشق عصا المسلمين . وليس صاحب أمر أمة محمد — صلى الله عليه — المنافق . وأما مروان بن الحكم فوالله ما كان فى الإسلام صدع قط إلا كان مروان ممن يشعب هذا الصدع ، وهو الذى قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار ، والذى قاتل على بن أبى طالب يوم الجمل . وإنا نرى للناس أن يبايعوا الكبير ويستشبوا الصغير — يعنى بالكبير مروان بن الحكم ، وبالصغير خالد بن يزيد بن معاوية .

وهذا هو الرأى الذى أخذ به أخيراً بعد المداولة والمشاورة . فاتجه رأى الناس إلى البيعة لمروان ، ثم من بعده لخالد بن يزيد ، ثم لعمرو بن سعيد بن العاص . وقال أهل الأردن لمروان — وكانوا هم أكبر المؤيدين له منذ البداية —: أنت شيخ كبير ، وابن يزيد غلام وابن الزبير كهل ، وإنما يقرع الحديد بعضه ببعض ، فارم بنحرك فى نحره . ابسط يدك نبايعك . فبسط يده فكانوا أول من بايعوه . وعدل حسان نهائياً عن رأيه نزولا على إرادة الأكثرية ، واقتنع باختيارهم . فقام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ، ثم ذكر مروان فقال : هو كبير قريش وسنها ، وابن عم الخليفة المظلوم ، والطالب بدمه قبل الناس أجمعين فبايعوه — رحمكم الله — فهو أولى بميراث عثمان ، وأحق بالأمر من الناكث ابن الزبير ، الذى خلع الخلافة وجاهر الله بالمعصية . فسارعوا إلى بيعته .

* * *

وهكذا أجمع المؤتمر على رأى واحد واتفقت الـكلمة . وفى يوم الأربعاء ، لثلاث خلون من ذى القعدة عام ٦٤ هـ — قام الناس جميعاً فبايعوا لمروان بن الحـكم على أنه خليفة المسلمين ، وتفاهموا على أن يكون الأمر من بعده لخالد ثم لعمرو بن سعيد . والتفت بنو أمية حول مروان ، وقالوا : الحمد لله الذى لم يخرجها منا . وخرج الناس يدعون لمروان ، وأسرع عبيد الله بن زياد فأخذ البيعة على أهل دمشق لمروان. وأطبق الناس على البيعة له. وهكذا تمت البيعة لمروان ابن الحـكم بالخلافة . ومن ثم قامت دولة آل مروان .

وقد تبين من هذه الأقوال — التى ذكرت — أن الأسباب التى دعت الناس إلى انتخاب مروان هى : أنه شيخ قريش ، رجل كبير السن محنك ذو رأى وشجاعة ، له تاريخ فى الإسلام ، وهو من بنى أمية ، وابن عم الخليفة عثمان ووارثه ، وكان فى طليعة من دافع عنه وكان أول من طالب بدمه ، وهو كفء يصلح للقيادة فى الحرب والسياسة ، وهو معادل لابن الزبير يستطيعون أن يصطفوا تحت لوائه ، ويسيروا معه — فى ثقة — لمواجهة الخصوم .

لـكن كان أيضاً من بين الأسباب أن أهل الشام رفضوا أن يبايعوا لابن الزبير لأنه رجل بعيد عنهم ، كغريب مقامه فى الحجاز . فإذا بايعوه ، كان معنى ذلك أنهم رضوا بانتقال الدولة والملك من الشام إلى الحجاز : إلى قوم غيرهم . وقد كانت الدولة مقرها بينهم منذ أمد طويل . وليس هذا استنتاجاً ، ولـكن سجلته الأخبار منذ القدم .

فقد روى التاريخ أن ابن الزبير لما استخلف الضحاك الفهرى على الشام « كره أهله ذلك » واجتمع رجال بنى أمية وناس من أشراف أهل الشام ووجوههم ، منهم روح ابن زنباع وغيره ، فقال بعضهم لبعض : إن الملك كان

فينا أهل الشام ، فانتقل عنا إلى الحجاز ، لا نرضى بذلك . هل لكم أن تأخذوا رجلا منا ، فينظر فى هذا الأمر ؟ » . فأخذوا يبحثون ، حتى انتهى الأمر إلى اختيار مروان بن الحكم . وفى هذا معنى قومي له أهميته التى لا تخفى، إذ كان انتقال السلطان من دمشق معناه خسارة جسيمة للشام .

موقعة حاسمة

قامت دولة آل مروان — إذن — فى أواخر عام ٦٤ هـ ، واستقبلت أول عام لها فى فاتحة عام ٦٥ هـ . وقد بدأ تاريخها — من الوجهة القانونية — منذ عقدت البيعة لمروان فى المؤتمر وما بعده؛ ولكن من الوجهة الواقعية — ما كان يضمن لها البقاء والاستقرار إلا إذا خاضت حرباً مع المنشقين الذين لا زالوا بالشام وكتب لها النصر .

فإن الضحاك — ومن تبعه — الذين دعوا لابن الزبير ، كانوا لا يزالون يجمعون قواتهم فى (مرج راهط) . ولما علموا بقرار المؤتمر أظهروا خلافهم ، وخلعوا بنى أمية وأعلنوا مبايعتهم لابن الزبير . وأرسل الضحاك إلى النعمان بن بشير وزفر بن الحارث ، وناتل بن قيس — الذى ثار وأخرج روح بن بباع من فلسطين — كتب إلى هؤلاء جميعا أن يمدوه بالجنود ، فأمدوه . فكان أول واجب على مروان ودولته أن يواجهوا هذ الخصم ، ولا بد أن يجمع هو أيضا قواته ويسير إلى مرج راهط ، ويخوض الموقعة حتى يؤيد النصر الحربى — إذا انتصر — القرار القانونى ، الذى اتخذ فى المؤتمر .

عبأ كل طرف اذن قواته ، ولا يمكن تحديد أعداد الجيوش بالدقة ، فقد ذكرت أرقام فيها مبالغة . ولكن الظاهر أن كل جيش كان لا يقل عن اثنى

عشر ألفاً . واجتمعت على الضحاك قيس بفروعها ، واجتمعت على مروان كلب وغسان والسكون ، وكندة وطيء . وقاد مروان جيشه بنفسه ، وجعل على ميمنته عمرو بن سعيد ، وعلى ميسرته عبيد الله بن زياد . أما الضحاك ومن معه فكانوا يقاتلون عن ابن الزبير ، الذى كان غائباً بعيداً فى مكة .

* * *

وقبيل الموقعة ، استولى أحد قواد مروان من غسان على دمشق ، وغلب على الخزائن وبيت المال ، وأمد مروان بالأموال والرجال والسلاح . فكان أول فتح على بنى أمية . والتحم الجيشان . واقتتل الفريقان قتالا شديداً . حدثت الموقعة فى المحرم عام ٦٥ هـ — واستمر القتال عشرين يوماً ، وكانت موقعة هائلة .

وأسفرت الموقعة عن قتل « الضحاك » وهزيمة جيشه . وقتل من الجانبين أعداد كبيرة . ولكن قتلت قيس مقتلة عظيمة ، لم يصبهم مثلها ، وتفرق من بقى منهم . فتم النصر لمروان ، وثبتت دولته .

وهذه الموقعة ـ وتسمى فى التاريخ « موقعة مرج راهط » ـ كانت موقعة تاريخية حاسمة . فقد قررت مصير ابن الزبير فى الشام ومروان . وبالنصر الذى أحرزه مروان فيها ، خلصت له الشام كلها ، وأصبح هو الخليفة فيها بلا منازع . وانتهى أمر ابن الزبير بالنسبة لها . واتصلت دولة بنى أمية ـ وإن كان الملك فيها انتقل من فرع إلى فرع . ومن ذلك الوقت ، بدأت دولة مروان وآله الحقيقية ...

وكانت ذيول المعركة أن النعمان بن بشير — والى حمص — لما بلغه خبر

الهزيمة خرج هارباً ليلا ، فتحير ليلته كلها . ثم أدركه أهل حمص فقتلوه .

ولما بلغت الهزيمة زفر بن الحارث بقنسرين ، هرب فلحق بمدينة «قرقيسيا» وهى على الفرات شمال الجزيرة ، وغلب على المدينة ، وتحصن بها . وكانت منيعة ذات أبراج ، واجتمعت إليه فيها قبائل قيس التى كانت مقيمة على الفرات، فبقى متحصناً بها عدة سنين ، وكان عقبة فى طريق جيوش الشام إلى العراق . وسيكون له شأن مع عبد الملك — سنذكره فيما بعد . وقيل أن زفر حضر الموقعة ، ثم فر إلى تلك المدينة . وقال فى ذلك قصيدته المشهورة ، التى جاء فيها :

أريني سلاحى لا أبالك إننى   أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
لعمرى لقد أبقت وقيعة راهط   لحسان صدعا بيننا متنائياً

الخ ...

وهرب ناتل بن قيس الجذامى من فلسطين ، فلحق بابن الزبير بمكة .

وقيل إن مروان — لما جيء إليه برأس الضحاك ساءه ذلك ، وقال : الآن حين كبرت سنى ودق عظمى ، وصرت فى مثل ظمء الحمار (يعنى : أن بقيت من أجله مدة قصيرة) أقبلت بالكتائب أضرب بعضها ببعض ! »

خلافة مروان

صفت الشام لمروان ، واستقرت دولته بها . ولكن كان مكتوبا أنه لن يبقى بعد هذه الموقعة أكثر من ثمانية أشهر . وهذه لم تكن مدة كافية لإنجاز ما أمامه من مهام ، أو لمنازلة خصمه ابن الزبير، وتوحيد الدولة . لكنه بعد أن قضى فترة فى تنظيم شئون الدولة فى الداخل ، شرع فى العمل فى هذا السبيل .

وكان أهم ما حققه فى المدة الباقية من خلافته فتح مصر ، وانتزاعها من يد ابن الزبير ، فضمها إلى الشام .

وذلك أن بعض أهل مصر كانوا كتبوا إلى ابن الزبير بالبيعة ، فأرسل إليهم عبد الرحمن بن عتبة الفهرى واليا ، ولكن أكثرية أهل مصر كانوا يحبون بنى أمية . فما أن ظهر مروان وبلغهم خبر نصره ، حتى كاتبوه سراً ودعوه إلى القدوم إلى مصر . فجهز مروان جيشاً ، وأمر عليه ابنه عبد العزيز ابن مروان وبعثه أمامه ، وسار مروان . فلم يجد مقاومة تذكر ، وانهزم القواد الذين أرسلهم ابن عتبة ، حتى نزل مروان عين شمس . وبعد قتال يسير سفر أناس بينهم بالصلح . فصالح ابن عتبة مروان على أن يخلى مصر ويلحق بمأمنه ، فلحق بابن الزبير. وكان دخول مروان مصر فى غرة جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ ، وبقى بها شهرين إلى هلال رجب من هذا العام . وعين ابنه عبد العزيز والياً عليها ، وأوصاه . ثم رجع إلى الشام .

ولما أقبل راجعاً يريد دمشق ، بلغه أن عبد الله بن الزبير قد بعث أخاه « مصعباً » نحو فلسطين ، حين بلغه خبر ناتل وإقباله إليه هارباً . فوجه مروان إليه عمرو بن سعيد فى جيش قوى ، فلقيه عمرو قبل أن يدخل الشام ، فقاتله عمرو فهزم أصحابه . فرجع مصعب ومن معه إلى الحجاز . ورجع عمرو بن سعيد إلى مروان ، فوافاه فى دمشق .

* * *

ولم يكن من اليسير الآن فتح العراق . لكن ابن زياد كان بينه وبين أهله ثأر . فقد أخرجوه وسلبوا سلطانه ، وألجأوه إلى الهرب . ولم تكن الجهود

التى بذلها ابن زياد من أجل إنقاذ الدولة بالشام ، وإعادة سلطان بنى أمية - إلا بهدف أن يتمكن من العودة إلى العراق ، فيستعيد ملكه وسطوته ويأخذ بثأره . فيظهر أنه هو الذى حمل مروان على أن يسرع بإعداد جيش كبير ، يضعه تحت قيادته ، ليتوجه به لاسترداد العراق . وقد تكون هذا الجيش فعلا رسار به ابن زياد .

وكانت الخطة أن يسير أولا إلى « قرقيسياء » بالجزيرة ، لإخضاع زفر بن الحارث ، ثم بعد أن يفرغ من هذه المهمة يتجه جنوباً الى العراق لفتحه . لكن الذى حدث أن هذا الجيش قبل أن يصل الى قرقيسياء ، واجهه جيش قادم من العراق من متطوعين فدائيين ، لم يبعثهم أمير ، كانوا قادمين لمقاتلة ابن زياد بالذات . وهؤلاء هم « التوابون » - وهم قوم من الشيعة . وسنقص أمرهم وأمر الحرب التى جرت فى فصل قادم ، نخصصه لثورات الشيعة التى ستمتد الى عهد عبد الملك .

ولم يغفل مروان أمر الحجاز ، بعد ما رأى من الغارة التى شنها مصعب على فلسطين . فجهز أيضاً قبيل وفاته جيشاً أرسله إلى الحجاز ، وذلك بقيادة «حبيش ابن دلجة القينى » . وقد سار الجيش لغايته ، ولكن الحوادث التى تلت تمت فى عهد عبد الملك . فسنذكر أمره اذن فيما بعد ، لتعرف ماذا صار اليه أمره .

ولاية العهد

وكان أهم ما فعله مروان — من الوجهة الداخلية — وبرهن على حكمته وبعد نظره ، وأدى الى خير النتائج ، هو أنه عقد البيعة بالعهد من بعده — وكان ذلك قبيل وفاته بأقل من شهرين ، وكأنما كان ملهماً فى ذلك — عقد العهد لابنيه : عبد الملك ، ثم عبد العزيز .

ومع أنه فى ذلك ربما كان مخالفاً ما كان متفاهما عليه فى مؤتمر الجابية ، من أن يكون العهد من بعده لخالد بن يزيد ثم لعمرو بن سعيد ، إلا أن هذه المخالفة كانت تقتضيها الحكمة السياسية ولصالح الدولة ، فان انتقال الأمر من بعده لابنيه هو ضمان الاستقرار ، ويكفل استمرار الدولة . وكان عبد الملك بلا شك أكفأ من كل من خالد وعمرو . وشعور الناس برجحان شخصية عبد الملك هو الذى جعل هذا ممكنا .

فقد دعا مروان رؤساء القوم بعد ما عاد إلى الشام من رحلته فى مصر ، وأخبرهم بما كان عمرو يعلنه من أن الأمر سيكون له من بعد مروان ، وطلب إليهم أن يوافقوا على المبايعة بالعهد من بعده لابنيه . فأجابوه إلى ذلك ولم يلق اعتراضا . وكان من أول الموافقين حسان بن مالك نفسه ، الذى كان من أشد المتحمسين لخالد .

ذلك أن مروان كان مهد لهذا الأمر بحيلة سياسية ، وهى أنه بعد أن تم له النصر وآلت إليه الخلافة ، أشير عليه — ورحب بالفكرة — أن يتزوج أم خالد التى توفى عنها الخليفة السابق يزيد ، وقد كانت من نفس الأسرة الأموية ، فهى فاختة بنت أبى هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وكانت — كما روى — سيدة جليلة وعاقلة . فبهذا الزواج حقق غرضين : الأول أنه ربط بين الأسرتين : تلك التى كان فيها الحكم ، والأسرة التى آل إليها الحكم . وكان يرمى بذلك إلى تثبيت مركزه وتوثيق العلاقات ، والغرض الثانى أنه أصبح بمثابة الأب لخالد ، فلم يعد يخشى شيئاً من جانبه وصار من الممكن أن يؤثر عليه .

وهكذا كان من السهل على مروان أن ينفذ ما أراد . وعقد العهد من بعده

لابنه عبد الملك ، ثم لابنه الآخر . لكن عمرو بن سعيد حمل الضغن فى نفسه لما حدث ـ ولا سيما أنه اعتبر أنه ساعد مروان فى تأسيس ملكه ، فسيسرها إذن فى نفسه . وستكون لهذه عاقبة خطيرة ، ويكون لعمرو شأن مع عبد الملك سنعرفه فيما بعد .

حول وفاة مروان

وفجأة ، فى مستهل رمضان من سنة ٦٥ هـ — توفى مروان بن الحكم .

هل كان موته طبيعياً ؟ — « حتف أنفه » ، كما يقولون — أم مات بإصابة بالطاعون ؟ أم قتل اغتيالا ، حيث سقته زوجته — التى تحدثنا عنها — « أم خالد » — لبنا دست فيه السم ؟ . أو خنقته هى — أو جواريها — بأن وضعت على وجهه وسادة فى أثناء نومه ؟ . كل هذا لا أهمية له . المهم أن مروان توفى فى ذلك اليوم ؛ وليس فى الموت غرابة ، فالموت مكتوب كل على حى .

ومع ذلك ، فليس هناك مانع أن نقف برهة — حيث وعدنا بذلك من قبل — لننظر فى هذه المسألة . فأول ما يلاحظ أن الروايات متضاربة . فالرواية الأولى أنه مات موتاً طبيعياً والرواية الثانية أنه مات بإصابته بالطاعون . والثالثة أن زوجته سقته لبنا وضعت فيه السم . والرابعة أن زوجته هى التى خنقته ، والخامسة أنها أمرت جواريها ففعلن ذلك . فلسنا ندرى إذن أى هذه الروايات نصدق ؟. لكن تناقض الروايات دليل ظاهر على أن الحقيقة غير معروفة ثم إذا عرضنا هذه الروايات على حكم العقل ، فإننا نجد أن الروايات التى تزعم أن زوجته هى التى اغتالته مباشرة — أو بالواسطة — غير مقبولة، أو معقولة.

فهذه الزوجة سيدة شريفة عربية من بيت عبد شمس ، ولم يعرف عن نساء العرب — فضلا عن أن يكن من قريش — إلا شرف النفس ونبل

السجية ، والإخلاص والوفاء للزوج — ولاسيما وهذا قريبها من نفس أسرتها ورجل هو عظيم قومه له مكانته، وكان فى منصب الخلافة . ثم هى كانت زوجة خليفة سابق ، وهو يزيد . وأم خليفة سابق ، وهو معاوية بن يزيد . ثم صارت أيضاً زوجة خليفة آخر ، وهو مروان. فيستبعد كل البعد أن تقدم على مثل هذا العمل . ولنسأل : كم مرة سمعنا عن نساء من العرب ، أو أزواج خلفاء ، أنهن أقدمن على مثل هذا العمل ،الذى يتنافى مع شهامة النفس العربية ؟

ثم إننا لم نر أى أثر لهذا الاغتيال — إذا كانت الجريمة وقعت . فلم يحدث فى الأسرة أى خلاف ، ولم نسمع عن المطالبة بالدم أو الانتقام — على عادة العرب . بل على العكس ، نرى خالداً كالأخ الصغير أو الابن لعبد الملك ، وظل مطيعاً وفياً له طوال خلافته—وزوجه عبد الملك ابنته ، وتزوج عبد الملك أيضاً أخته : حيث تزوج « عاتكة » — وهى بنت يزيد الخليفة ، وأخت خالد لأبيه — وكانت أثيرة عند عبد الملك، محبوبة محترمة طوال عمرها ، وهى أم ابنه «يزيد بن عبد الملك» .

والسبب الذى قيل إنه هو الذى دفع السيدة المذكورة إلى القتل — وهو أن ابنها أخبرها بأن زوجها مروان ذكرها بكلمة نابية — لا يكفى ، على الإطلاق ، أن يكون سبباً للدفع إلى ارتكاب جريمة القتل . وكذلك لا يكفى أن يكون تحويل ولاية العهد عن ابنها إلى عبد الملك سبباً هو الآخر لاقتراف هذه الجريمة . فخالد كان بمثابة الأخ الصغير أو الابن لعبد الملك . وهم جميعاً بيت واحد . وهى تعلم — وخالد يعلم — أن الناس أعرضوا عن خالد، لصغر سنه وقلة تجربته ، واختاروا مروان . فذهب أمله فى الخلافة منذ ذلك الوقت ويظهر أنه لم يكن يهتم بها كثيراً . ورضيت أمه أن تكون زوجة لمروان

بعد أن نال الخلافة ، وذلك لأنها أرادت أن يكون الفرعان بيتا واحداً ، ويظل الشرف متصلا . ولما عهد مروان لابنه عبد الملك كان هذا شيئاً طبيعياً، وتم بموافقة الناس ، وخالد نفسه الذى ظل من أقرب الناس لعبد الملك. على أن مسألة السياسة لا تهم الزوجات كثيراً ، ولا تبلغ أن تكون ذات بال لدرجة أنها تحمل على القتل : قتل الزوج والقريب ، وعماد الأسرة وقمة شرفها.

فخلاصة الحكم فى المسألة أنها ليست الا تهمة كاذبة، فرية ،أو خرافة ، أو كما قلنا من قبل : « ليست إلا أسطورة اخترعتها مخيلات عجائز القوم ، ثم رددتها الألسن حباً فى الثرثرة أو لتنال من سمعة هذه الأسرة الرفيعة المكانة ، حسداً لما وصلت إليه من مجد » على كل ، فإن مروان قد أدركته منيته فى ذلك اليوم ، فى التاريخ الذى ذكرناه . وحينئذ ترك لابنه كل شىء — خلف لعبد الملك تركة مثقلة .

* * *

حقاً لقد أسس مروان الدولة . ولكن هذه الدولة لم تكمل من عمرها عاماً واحداً . كانت لا تزال بحاجة إلى أن تثبت دعائمها . وهى لا تشمل إلا الشام ومصر ، وهذه الأخيرة لم تضم إلا منذ شهرين .

ثم فوق كل شىء ترك مروان لابنه خصمه القوى وهو ابن الزبير . كان على عبد الملك أن يتحمل أعباء النضال لمنازلة هذا الخصم العتيد ، وأن ينتظر ليلتحم معه فى الموقعة الفاصلة . كان على عبد الملك — إذا أراد أن يوحد الدولة أن يعد نفسه وجيوشه لخوض غمرات القتال ، فيهاجم العراق والحجاز ، والجزيرة ، وما وراء هذه من بلاد العرب والفرس . وكان فى العراق خاصة أحزاب وطوائف ، من شيعة وخوارج وزبيريين ، وغير ذلك . فهل كان عبد الملك كفؤا لهذه المهام ؟

الحق — وذلك كما ستثبت الحوادث — أنه كان كفؤاً لحمل أعبائها وكان جديراً بأن يحمل أمانة هذا المنصب فى هذه الظروف ، وكأنما أهلته الأقدار ليكون القائد الذى ينقذ الأمة فى هذه الساعات الحرجة، والزعيم الذى يعمل لتوحيد الأمة والدولة ، وينجح فى ذلك . وربما كان أكفأ من أبيه . بل هذه هى الحقيقة كما تظهر من المقارنة . وصدق عبد الله بن عمر إذ قال : « ولد الناس ابنا . وولد مروان أبا ! » .

وكل هذه الأمور ستتجلى لنا حينما ندرس شخصية عبد الملك وأعماله ، فى الفصول التالية . فالآن علينا أن نتعرف هذه الشخصية بأن ندرس سيرتها منذ البداية ، بل ندرس الأسرة التى تنتمى إليها ، ومكانتها من الأمة وموقفها من الإسلام . فالآن إلى دراسة سيرة عبد الملك وأسرته .



الفصل الثالث

عبد الملك وأسرته (١)

من هذا الخليفة الجديد ، الذى جلس على عرش الخلافة فى دمشق ، فى ذلك التاريخ الذى ذكرناه (١ رمضان ٦٥ هـ) ، وإليه آلت هذه المسئوليات الضخمة ، وأصبح هو القائد الذى تتطلع إليه الأنظار ، ويرجى أن يقود الأمة إلى بر النجاة وينقذها من أخطار الفرقة والانقسام ؟

من هو عبد الملك ؟

فأما نسبه — وهو الذى منه يعرف أسماء آبائه — فإنه هو :

عبد الملك بن مروان ، بن الحكم ، بن أبى العاص ، ابن أمية ، بن عبد شمس ابن عبد مناف .

فهو أموى ، لأنه من نسل أمية بن عبد شمس . وفى هذا ، يلتقى مع معاوية ابن أبى سفيان وابنه يزيد : الخليفتين قبله ، ومع سائر بنى أمية . غير أن أمية كان له — من بين أولاده الكثيرين — ولدان ، هما اللذان نالا الشهرة فى التاريخ ، وهما : حرب ، وأبو العاص : ابنا أمية .

فمعاوية من فرع حرب ، لأنه هو معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية . ومروان وابنه من فرع أبى العاص ، لأن عبد الملك هو ابن مروان بن الحكم

ابن أبى العاص بن أمية . وفى أبى العاص هذا ، يلتقى عبد الملك وأبوه مروان بالخليفة عثمان — رضى الله عنه . فعثمان — رضى الله عنه — هو ابن عفان ، ابن أبى العاص بن أمية . فالحكم إذن أخو عفان وعم عثمان ، ومروان هو ابن عم لعثمان ، فمروان أقرب إلى عثمان من معاوية . وعثمان يعتبر رأس أسرتهم .

ابو العاص

وقد كان حرب أكبر من أخيه أبى العاص ، وكانت له الرئاسة فى الجاهلية ، ثم انتقلت إلى ابنه أبى سفيان ، فالاسم والشهرة كانتا فى الجاهلية فى هذا الفرع ولكن عثمان هو الذى أسس مجد بنى أبى العاص ، فنال هذا الفرع نباهة الذكر والشرف فى الإسلام . ثم بعد أن ظهر معاوية وانتقلت إليه زعامة الأسرة ، عادت الرياسة ثانية بعده إلى مروان وابنه وأولاده : أى الى فرع أبى العاص. فأبو العاص هو جد جميع الخلفاء والملوك الأمويين من مروان فما بعده ، سواء فى الدولة الأموية فى المشرق ، أو فى الدولة الأموية بعدُ فى الأندلس فى المغرب. وفى هذا قال الشاعر (أعشى بنى شيبان) وهو يمدح عبد الملك : —

عرفت قريش كلها ... لبنى أبى العاص الإمارة
لأبرها ، وأحقها ... عند المشورة بالإشارة
المانعين لما ولوا ... والنافعين ذوى الضراوة
وهم أحقهم بها ... عند الحلاوة والمرارة

وقال عبد الله بن الحجاج التغلبي يمدح عبد الملك أيضاً :

يا ابن أبي العاص ، ويا خير فتى أنت سداد الدين إن دين وهى

أنت الذي لا يجعل الأمر سدى حيب قريش عنكم حوب الرحى

إن أبا العاص -- وفي ذاك اعتصى أوصى بنيه فوعوا عنه الوصى

أن يسعروا الحرب، ويأبوا ما أبي الطاعنين في النحور والكلى

شزرا ، ووصلا للسيوف بالخطى إلى القتال ، فحووا ما قد حوى

وبهذا يشير الشاعر الى موقف بسالة وثبات لأبي العاص في حرب الفجار وهي الحرب المشهورة التي نشبت في الجاهلية : بين قريش وكنانة من جهة ، وهوازن وقيس من جهة أخرى ، وسنشير إليها في مناسبة آتية .

فمن هذه الحرب وردت الأنباء بأن الظفر كان لقيس في أول النهار على قريش فانهزم منها كثير ، ولكن حرب ابن أمية وبنى عبد مناف ثبتوا ، وتبعهم سائر قبائل قريش ، وكما قال المؤرخون : « وعقل حرب نفسه ، وقيد سفيان وأبو العاص نفسيهما ، وقالوا : لن يبرح رجل من مكانه حتى يموت أو نظفر . فيومئذ سموا : العنابس ، والعنبس : الأسد » . واقتتل الناس قتالا شديداً . فحينئذ دارت الدائرة على قيس ، وعاد الظفر منذ منتصف النهار لقريش فأحرزوا نصراً كبيرا . وهذه الحرب هي التي شهدها النبي عليه الصلاة والسلام في بدء شبابه قبل البعثة ، وكان مع أعمامه ، وقال فيها الحديث : « كنت أنبل على أعمامي » : أي أناولهم النبال : أي السهام . فهذا موقف كان لأبي العاص في هذه الحرب ، مع بني عبد المطلب وسائر بني عبد مناف . وقد أبلوا فيها جميعاً بلاء حسنا .

بين الهاشميين والأمويين

وفي عبد مناف يجتمع عبد الملك بن مروان مع رسول الله صلى الله عليه

وسلم فى النسب . فعبد مناف هو أبو الهاشميين والأمويين جميعا . لأن هاشما هو ابن عبد مناف . وأمية هو ابن عبد شمس بن عبد مناف . فأمية هو ابن أخى هاشم ، وهاشم عمه . فمن هذا يعرف ما بين الفرعين الكبيرين أو البطنين — كما هو التعبير اللغوى الدقيق — من وثيق القربى ، فهما أبناء عمومة . وكانت هذه القربى جامعة بينهما ، ملحوظة ومراعاة فى الجاهلية ، فيما عدا أنه كانت توجد أحياناً منافسة بينها . فالذى كان حاصلا بينهما هو منافسة فى سبيل الشرف ، كما توجد عادة بين فروع أسرة كبيرة ، لم تبلغ مبلغ العداء ولم تصل إلى الحرب .

وقد كتب كثيراً عن الخصومة بين البطنين وبولغ فيها ، حتى صور ما بينهما بحالة عداء مستحكم ، مقرون بعواطف الحقد والبغض والمرارة . وليس هذا صحيحاً ، ولا يتفق مع واقع التاريخ . وإنما هو قراءة للتاريخ الماضى فى ضوء الأحداث التالية ، وهو ما يسمى بعكس الترتيب الزمنى . وهو من الأخطاء المعروفة فى تصوير التاريخ . ويدل على خطأ هذه الصورة أن حرب ابن أمية كان صديقاً لعبد المطلب بن هاشم : كان ملازما له فى مجلسه وكان نديمه ، حتى حدثت بينهما جفوة صغيرة بسبب طارىء خارجى ، كتلك التى تحدث عادة بين الأصدقاء والأقارب . أما الصداقة بين أبى سفيان بن حرب والعباس ابن عبد المطلب فمشهورة . استمرت فى الجاهلية والإسلام . وكان العباس هو الواسطة فى إنقاذ حياة أبى سفيان وإقناعه بالإسلام ، كما تثبت ذلك القصة التى ذكرها « ابن هشام » فى سيرته يصف فيها كيف أسلم أبو سفيان .

عبد مناف: الأصل

وتبين هذه القصة أن القرابة والصداقة، والاجتماع فى أصل عبد مناف، هى التى دعت العباس — عميد الهاشميين — أن يشعر بالعطف والرثاء لأبى سفيان — عميد الأمويين — فيسعى لإنقاذ حياته، ويأخذه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليطلب منه الأمان له. ثم يقنعه بالإسلام، حتى إذا جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صباح اليوم التالى يسلم أبو سفيان بعد مناقشة بسيطة، ويشهد شهادة الحق. ومما ذكرته هذه القصة أن عمر بن الخطاب — وكان حاضراً — لما أكثر فى شأن أبى سفيان ودعا الرسول إلى قتله، رد عليه العباس قائلا: «مهلا يا عمر، فوالله أن لو كان من بنى عدى بن كعب ما قلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بنى عبد مناف!» ولما أسلم أبو سفيان قال العباس لرسول الله (ص): إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً. فيقول الرسول: «نعم، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن!».

فأين إذن هذه المداوة المستحكمة بين بنى هاشم وبنى أمية؟ ثم إن بنى هاشم وبنى أمية وقفوا جميعاً جنباً إلى جنب فى حرب الفجار — التى أشرنا إليها — وقاتلوا أعداءهم: وقف بنو عبد المطلب بن هاشم إلى جانب أبناء أمية بن عبد شمس، حتى نالوا الظفر.

* * *

لكن الإسلام أتى بظروف وأحوال جديدة، افترق فيها الفرعان من أجل العقيدة. ثم التأما، ثم فرقت بينهما عوامل السياسة — كما تفرق دائماً وفى

كل عصر ، بين الأحزاب والأسر . لكن الفرعين لم ينسيا أبداً — بالرغم من الاختلاف — التقاء أصلهما فى عبد مناف . وكان الشعور بذلك عاملا حاسما فى كثير من المواقف السياسية .

وكان معاوية وهو خليفة يراعى دائماً الصداقة التى كانت بين أبيه أبى سفيان والعباس: والد عبد الله بن عباس وإخوته. فكان يكرمهم ويجاملهم ويجيب مطالبهم ، ولا يقبل وشاية فيهم . وكان يقول فى مجالسه : رحم الله أبا سفيان والعباس ، كانا صفيين دون الناس . وأجابه ابن عباس — وكان يوما حاضراً فقال : رحم الله أبانا وأباك ، كانا صفيين متقارضين : لم يكن لأبى من مال إلا ما فضل أباك ، وكان أبوك كذلك لأبى » .

وفى أثناء الفتنة بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير ، كان شعور عبد الله بن العباس بأنه وعبد الملك يجتمعان فى عبد مناف ، وإذن فعبد الملك أقرب إليه من ابن الزبير — الذى كان ينتمى إلى أسد بن عبد العزى — وإذن فعبد الملك أولى بتأييده ومناصرته — كان هذا الشعور من العوامل القوية التى جعلت ابن عباس يمتنع عن مبايعة ابن الزبير ، لأنه بذلك يخرج الخلافة من بنى عبد مناف إلى بنى أسد بن عبد العزى .

ولما اشتد عليه ابن الزبير واضطره إلى أن يخرج إلى الطائف من مكة ، أرسل ابن عباس ابنه « علياً » — وهو على بن عبد الله بن العباس — إلى عبد الملك بالشام ، وقال إذ ذاك : « لأن يربنى بنو عمى أحب إلى من أن يربنى رجل من بنى أسد » — قال المؤرخ معلقاً : « يعنى ببنى عمه : بنى أمية ، لأنهم جميعهم من ولد عبد مناف ، ويعنى برجل من بنى أسد : ابن الزبير ، فإنه من بنى أسد بن عبد العزى بن قصى » .

أما العداوة التى حصلت وصارت لها جذور ، فهى تلك التى وقعت بين على بن أبى طالب وبيته وبين بيت آل أبى سفيان . وذلك للاختلاف فى العقيدة والحروب التى وقعت فى صدر الإسلام ، وقتل من قتل فيها . ثم للاختلاف السياسى الذى حدث بين على ومعاوية -- بالذات — حول الخلافة والولاية ، ثم بين ابنيهما . والخلاف السياسى نفسه سيفرق بين الهاشميين أنفسهم : سيفرق بين آل على بن أبى طالب وآل عبد الله بن العباس — وذلك فى عهد العباسيين وقيام دولتهم — وهما أقرب الناس بعضهم إلى بعض ، فهم أهل بيت واحد جميعاً من عبد المطلب بن هاشم . بل إن الخصومة بين العباسيين والعلويين ستكون أشد من الخصومة بين الأمويين والعلويين . وهذا شأن السياسة .

* * *

أما مروان وابنه عبد الملك وأسرتهما فلم يشتركوا فى هذا الخلاف ، أو العداء الذى حصل بين آل على وآل أبى سفيان . فإن مروان حين خرج إلى البصرة عقب مقتل عثمان ، إنما خرج ليطالب بدم عثمان — ابن عمه وعميد بيتهم — من أهل العراق . ثم بعد أن انتهت موقعة الجمل طلب الأمان من على فأعطاه له . وحينئذ بايع مروان على بن أبى طالب بالخلافة ، وعاد إلى المدينة فعاش فيها ، شبه معتزل للسياسة . ولم يشترك فى الحرب التى وقعت بين على ومعاوية فى صفين ، ولم يخرج إلى معاوية لمبايعته . وهذه حقيقة تلفت النظر . وحين صار والياً على المدينة — فى عهد معاوية — كانت العلاقة طيبة بينه وبين آل على ، حتى كان الحسن والحسين يصليان خلفه .

ولم تكن لمروان ولا لعبد الملك علاقة بمقتل الحسين . فهما كانا بالمدينة ، وهذا الحادث حدث بالقرب من الكوفة . وكانا فى ذلك الوقت معزولين عن

الإمارة والولاية بالمدينة ، فقد عزل مروان فى آخر عهد معاوية ، ولم يوله يزيد ولاية المدينة ولا غيرها . بل الأخبار التى وردت تبين أنهم استنكروا قتل الحسين ، وأشفقوا من نتائجه . وسنزيد هذا الأمر توضيحاً فيما بعد . غير أن مروان ، وأولاده الذين تولوا بعده ، ورثوا جانباً من سوء العلاقة أو العداوة التى كانت موجودة بين آل على وأتباعهم وبين آل أبى سفيان ، لأن دولتهم كانت استمراراً للدولة السابقة ، وكانت الشام هى نفس مقرهم . فلذلك سيقف الشيعة منهم موقفاً معادياً ، وتنشب بينهم الحروب — كما سيتضح فى فصل قادم .

عربى قرشى

بينا نسب عبد الملك بن مروان ، فهو من بنى عبد مناف ومن بنى أمية فهو قرشى من صفوة قريش ، لأن بنى عبد مناف بن قصى هم صفوة قريش فقصى كان زعيم قريش وهو الذى أسس مجدهم وأقام دولتهم ، وهو إذن أيضاً — أى عبد الملك — من أشرف معادن العرب ، لأن قريشا ، بلا جدال ، هى أشرف العرب ، وهم يقرون لها بالمجد ويعترفون لها بالزعامة ولا يقبلون الطاعة إلا لها .

فعبد الملك إذن — أو الخليفة الذى تولى الخلافة فى دمشق ، فى التاريخ الذى ذكرناه — عربى من صميم العرب وصفوتهم ومن أشرف أصولهم . إذ هو قرشى من أوسط قريش نسباً ، ينتمى إلى قصى وعبد مناف وأمية وعبد شمس. وإذن فهو — فى شخصيته وصفاته ومواهبه وأعماله — يمثل نموذج العربى الأصيل ، حين يصير خليفة أو ملكا ، أو رجل سياسة ودولة .

وهو — من جهة نسب أمه — عربى قرشى ، أيضا . فأمه هى : عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبى العاص، ابن أمية. فنسبه من جهة أبيه وأمه معا ، ينتهى إلى أبى العاص بن أمية . وكان يضرب بأمه عائشة المثل فى الخصال الحميدة ، والصفات الكريمة ، وإليها يشير عبد الله بن قيس الرقيات فى قوله ، وهو يمدح عبد الملك :

أنت ابن عائشة التى فضلت أروم نسائها
لم تلتفت للداتها ومضت على غلوائها
ولدت أغر مباركا كالشمس وسط سمائها

الحكم

هذا أبو العاص . وابنه (الحكَم) وهو أبو مروان ، وجد عبد الملك .

وكان الحكم من أشراف قريش ، الذين ناصبوا الإسلام العداء فى أول ظهوره . وكان معادلا لأبى سفيان . وتأخر إسلامه مثله ، فلم يسلم إلا عند فتح مكة . فهو من مشيخة قريش ، الذين أسلموا يوم الفتح . ويومئذ أمر الرسول بإبعاده إلى الطائف . ولا يعرف السبب الذى من أجله أمر الرسول بإبعاده ، على وجه التحديد ، فاختلف فيه . والاختلاف حول حقيقة السبب يدل على عدم معرفته والذى يرجح فى ذلك أن رسول الله (ص) كان يحكم ببعض عقوبات على النفر الذين وقفوا موقف عداء للاسلام فى أول الأمر ، حتى يثبت صدق إسلامهم ، وصفاء سريرتهم .

والأظهر أن الرسول عفا عنه ورده بعد قليل إلى مكة ، كما يثبت ذلك ماجاء فى خطاب لعثمان ، إذ قال : « وقالوا أنى رددت الحكم ، وقد سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم.والحكم مكى سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكه إلى الطائف ، ثم رده رسول الله صلى الله عليه وسلم . فرسول الله

سيره ، ورسول الله رده. أكذلك هو؟ » — فقال الناس : اللهم نعم . وفى خطاب أو حديث آخر قال : «إن الحكم كان مكيا، فسيره رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ثم رده إلى بلده؛ فرسول الله سيره بذنبه ورسول الله رده بعفوه ». ويمكننا أن نستنتج أن عثمان — وهو ابن أخيه — شفع له .

وقد بقى الحكم مع أسرته فى بلده مكة، حتى جاءت خلافة عثمان ،فحينئذ استدعاه عثمان وأحضره وأسرته إلى المدينة. لأن عثمان كان معروفا بعطفه على ذوى قرباه ،وحبه لصلة الرحم .وكان يريد أن يجمع شمل الأسرة ليشتركوا فى الأعمال العامة، وليجدوا المجال ليكون لهم شأن فى الإسلام ، كما كان لهم فى الجاهلية .

ولم يسمع عن «الحكم» خبر منذ إسلامه أو يؤخذ عليه ماينقد. فيظهر أنه قضى بقية حياته فى هدوء . فلم يزل منذئذ مع أسرته بالمدينة ، حتى توفى فى خلافة عثمان ، وصلى عليه عثمان . وإذا أردنا أن نعرف صفة للحكم فقد وصفه عبد الله بن الزبير ، فى حديث له فيما بعد — مع شدة عداوته لآل مروان — فقد قال : « لاتسبوا الحكم . فقد كان الحكم رجلا وديعا ». فهذه إحدى الصفات التى تلقى ضوءاً على شخصيته .

مروان

على أنه إذا كان الحكم قد اختلفت حياته بين الجاهلية والإسلام ، فإن ابنه «مروان» قد ولد بعد ظهور الإسلام : ولد حوالى العام الذى حدثت فيه الهجرة — قبله أو بعده بقليل — وكان بمكة مولده . فحين أسلم أبوه عام الفتح ، كانت سنه نحو الثامنة. فأسلم وعاش حياته فى الإسلام منذ ذلك الوقت ، فنشأ إذن من صغره نشأة إسلامية.

ولابد أنه رأى رسول الله ، وشهد جيش المسلمين يوم الفتح ، وكان

لهذا أثره العميق فى نفسه وهو صغير ، ثم قضى مع أبيه فترة فى الطائف ثم عاد إلى مكة . وكانت مكة قد أصبحت حصنا للاسلام ، وتحولت قريش كلها إلى الدفاع عنه . ثم توالت الفتوح ووقائع النصر فى عهدى أبى بكر وعمر ، فعاش مروان صدر شبابه وهو يرى دولة الإسلام فى أوج مجدها وقوتها ، وقد استولت على دول كسرى وقيصر . ويظهر أنه كان يزور المدينة ، لأنه رويت أنباء عن وجوده بها فى عهد عمر ، كما أنه روى بعض الحديث عن عمر .

وحين استدعاه ابن عمه عثمان للحضور إلى المدينة مع أبيه وأسرته ، فانتقلوا إليها من مكة ليقيموا بها ، كانت سنه — أى مروان — إذ ذاك فى نحو الخامسة والعشرين . لأن خلافة عثمان بدأت من عام ٢٤ هـ . وكان عثمان بالنسبة له — من حيث السن — بمثابة الأب ، كما كان له كالمربى والأستاذ ولابد أن مروان كان ينظر إلى عثمان على أنه مثله الأعلى ، فهو عميد أسرتهم الذى أكسب الأسرة شرفها فى الإسلام ، ولمكانة عثمان فى الإسلام وعلمه وتقواه . ولتبوئه منصب الخلافة . فلابد أن مروان تتلمذ عليه ، أو نقول إنه دخل فى مدرسة عثمان .

وقد أتاح له وجوده بالمدينة أن يحصل على بغيته من العلم والتفقه فى الدين . لأنه كان على مقربة من الصحابة والتابعين — ولا سيما زيد بن ثابت الذى كان مستشار عثمان ورئيس ديوانه . كما أن وجوده بالمدينة أعطاه أيضا الفرصة ليطلع على شئون الدولة ، ويفهم أحداث السياسة . وقد قربه عثمان وأنعم عليه هو وآله حيث كان معروفا عن عثمان عطفه على ذوى قرباه وحبه لصلة الرحم ، وضمه لحاشيته فعينه أحد كتابه . ثم مازال يرقى حتى صار بمثابة أمين سر دولته ورئيس ديوان رسائله .

ومنذ قدوم مروان إلى المدينة فى عام ٢٤ هـ بقى بها وأسرته . فلم يبرحها إلا لرحلات موقوتة — وذلك حتى سنة ٦٤ هـ : أى قضى فيها أربعين سنة من حياته ، فيعتبر إذن من أهل المدينة والحجاز . ثم أجبر فى ذاك العام الأخير على مغادرتها إلى الشام — كما قدمنا من قبل ، وكما سنشير إليه بعد .

والأخبار التى وردت عن مروان تقول عنه : «إنه كان من رجال قريش ، وكان من أقرأ الناس للقرآن» . وكان يحيى الليل بالصلاة . وتحدث مروان فقال : « لقد رأيتنى عند عمر فى فتية فى قريش ، كلهم يقرب دونى . فما زال إيثارى الحق حتى كان يبعثنى فى مهم أمره» . وكان مروان يقول : «ما أخللت بالقرآن قط » . وقد أشرنا فيما تقدم إلى أنه كان من المؤهلات التى رجحت كفة مروان ، وحملت الناس على انتخابه للخلافة ، أنهم جاءوه ليلا فوجدوه فى فسطاطه ساهراً وإلى جانبه مصباح ، والمصحف بين يديه وهو يقرأ القرآن » ! ولابد أن هذا كله كان من آثار اقتدائه بعثمان — أستاذه — وعمر — رضى الله عنهما ، وغيرهما من الصحابة والتابعين .

***

وكان أهم حادث شهده مروان ، وهو لا يزال فى فتوته — حادث الفتنة أو الثورة على عثمان ، التى انتهت إلى حصاره فى داره ثم اغتياله ، وذلك فى أواخر عام ٣٥ هـ . وقد كان بعض أسباب هذه الثورة يتعلق بمروان نفسه ، فقد نقم كثير من الناس ما وصل إليه مروان وبنو أمية من مكانة . وكثير من التهم التى سيقت ليست ثابتة أو جوهرية . ويظهر أن مروان — وهو فى عنفوان شبابه — كان يقابل الناس بالشدة ، ويصادمهم ، فيزيد من ثائرة غضبهم .

وخلاصة حكم التاريخ فى مقتل عثمان هو ما قاله على بن الحسين ، إذ قال : « والله ما قتل عثمان على وجه الحق ! ». وقد لخص ابن خلدون حادث الفتنة ، فقال : « ثم تجمع قوم من الغوغاء ، وجاءوا إلى المدينة يظهرون طلب النصفة من عثمان ، وهم يضمرون خلاف ذلك من قتله . . وعزل لهم (أى عثمان) عامل مصر . فانصرفوا قليلا ، ثم رجعوا وقد لبسوا بكتاب مدلس ، يزعمون أنهم لقوه فى يد حامله إلى عامل مصر بأن يقتلهم . وحلف عثمان على ذلك . فقالوا مكنا من مروان ، فإنه كاتبك . فحلف مروان . فقال عثمان : ليس فى الحكم أكثر من هذا . فحاصروه بداره ، ثم بيتوه على حين غفلة من الناس ، وقتلوه ! . وانفتح باب الفتنة » .

وقد دافع مروان دفاعاً مجيداً عن عثمان ، فى يوم وقعة الدار عند محاصرته ، وقاتل قتالا شديداً ، ليصد المهاجمين الذين اقتحموا الدار . وقد خرج يومئذ لابساً درعه شاهراً سيفه ، وهو ينادى إلى المبارزة ويتمثل بهذا الشعر :

قد علمت ذات القرون الميل والكف والأنامل الطفول

أنى أروع أول الرعيل بغارة مثل قطا الشماليل

وكان عثمان قد طلب إليه أن لا يخرج قائلا له : « إجلس ولا تخرج إليهم ، وإنى لصابر كما عهد إلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ». فقال مروان « والله لا تُقتل ولا يخلص إليك وأنا أسمع الصوت ! » — يعنى : وأنا حى

وما زال يقاتل ببسالة ، حتى أتى رجل فضربه من خلفه بالسيف على رقبته فخر صريعاً مغشياً عليه ، وأراد آخرون أن يجهزوا عليه ، فحالت بينهم وبينه مربيته التى كانت أرضعته وهى (فاطمة الثقفية) — وكانت دارها قريبة من المعركة — وقالت لهم : إن كنتم تريدون قتله فقد قتل ، وما تصنعون بأن

عثلوا بجثة ميت ؟ فتركوه، ثم حملته إلى داخل الدار ، لتداويه حتى يبرأ . ونجح المدافعون فى ذلك اليوم فى إجلاء المهاجمين عن الدار ، ولكنهم بعد ذلك تسوروا الدار من دار ملاصقة ، واقترفوا جريمتهم !

وهذه المعركة أظهرت مروان فى دور الفروسية ، وبرهنت على شجاعته وقوة شكيمته ونبل وفائه .

ولما تولى معاوية الخلافة عينه واليا على المدينة ، وذلك فى سنة ٤٢ هـ . فلبث واليا حتى سنة ٤٨ هـ . وكان يخرج فى معظم سنى ولايته أميراً على الحج للناس فى مكة . وقربه معاويه فوهبه مقاطعة « فدك » شمالى المدينة . ثم عزله فى السنة المذكورة ، وولى بدله سعيد بن العاص . ثم عاد فولى مروان ثانية إمارة المدينة سنة ٥٤ هـ ، فمازال حتى سنة ٥٧ ، ثم نحاه ولم يعينه مرة أخرى .

ويظهر أن مروان كان ناجحاً فى ولايته موفقاً فى حكمه ، لأننا لم نسمع عن حدوث فتنة فى عهده ، وعرفت عنه بعض الإصلاحات التى نفذها فى أثناء ولايته : فحرص على سلامة العملة ، وعاقب من يغشها بالزيف أو التقطيع . وضبط الموازين والمكاييل ، حتى لا يقع غبن فى البيع أو الشراء . ومن ذلك أنه توصل إلى تحديد مقدار الصاع الشرعى ، بأن جمع الصيعان فعاير بينها حتى أخذ أعدلها ، فأمر أن يكال به فقيل صاع مروان ، وهو نفسه صاع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان أسلوبه فى الحكم أسلوباً شورياً ، فقد « كان مروان فى ولايته على المدينة يجمع أصحاب رسول الله يستشيرهم ، ويعمل بما يجمعون له عليه » . وهذه السنة الحسنة هى التى اتبعها حفيده الصالح عمر بن عبد العزيز ، حين جاء أيضاً ليحكم المدينة فى أواخر القرن مقام جده .

ولم يعينه يزيد فى ولاية ما طوال عهده . فحين حدثت مأساة الحسين، كان مروان وعبد الملك بعيدين خارج الحكم والولاية ، وهما مقيمان بالمدينة. فلم تكن لهما أية علاقة بهذه المأساة . وإنما كان المسئول عنها عبيد الله بن زياد فى العراق ، ويزيد فى الشام . وكان والى المدينة إذ ذاك عمرو ابن سعيد ابن العاص ، وهو الذى تولى إعلان الخبر لأهل المدينة .

وكانت علاقة مروان وعبد الملك بعلى بن الحسين علاقة طيبة، كانوا أصدقاء. فعندما أخرج أهل المدينة بنى أمية،قبيل موقعة الحرة ، أتى مروان على بن الحسين فكلمه ، وقال : يا أبا الحسن إن لى رحما . فأذن لى أن يكون حرمى مع حرمك فرحب علىّ ، وآوى إليه ثقل مروان وحرمه — وكانت هى عائشة بنت عثمان بن عفان ، أم أبان بن مروان — فخرج على بن الحسين بحرمه وحرم مروان ، حتى آواهم بينبع ، وقيل الطائف . فشكرها له مروان . ولذلك فإنه بعد انتهاء موقعة الحرة ، وانتصار جيش بنى أميـة ، جاء مروان وعبد الملك ومعهما على ابن الحسين ، يمشى إلى مسلم بن عقبـة القائد ، ليطلبـا له الأمان منه . وكان مسلم فى نفس الوقت مأموراً من يزيد بأن يحسن معاملة على ، فأمّنه مسلم وأكرمه .

ولمـا ثار أهل المدينـة ثورتهم هذه التى انتهت إلى موقعة الحرة كانوا حاصروا بنى أمية جميعاً ،وعددهم نحو ألف ، وعلى رأسهم مروان — حاصروهم فى دار مروان . ثم رأوا أن يخرجوهم ، فأخرجوهم على أن يتوجهوا إلى الشام بعد أن أخذوا عليهم شروطاً . ولـكن مروان وعبد الملك قابلا مسلم بن عقبة فى الطريق ، قادماً بجيشه لدفاع عنهم ومقاتلة الثائرين بالمدينـة . فعاد مروان

معه . وهنا قصة حدثت بين القائد مسلم وبين عبـد الملك ، سنذكرها بعد قليل .

كانت هذه الموقعة فى أواخر سنة ٦٣ هـ . وبعـد أن تم النصر ، استأنف مروان وأسرته حياتهم بالمدينة . ولـكن مدة بقائهم لم تطل ، فبعـد شهرين ونصف شهر توفى يزيد ، وجاءهم الخبر بوفاته واضطراب الأمر بالشام . ثم أعلن ابن الزبير الدعوة إلى نفسه بالحجاز ، وأرسل إلى نائبه أو واليه على المدينـة يأمره بإخراج بنى أمية من المدينة والحجاز ، إلى الشام .

الهجرة إلى الشام

ففى هذا الوقت لم يجد مروان بداً من الهجرة ، فهاجر وأسرته نهائياً من المدينة إلى الشام . وكان ذلك فى شهر ربيع الثانى ، من عام ٦٤ هـ .

ويحدث الراوى عن هذه الهجرة التاريخية ، فيقول . « لم يزل مروان بالمدينة ، حتى كتب ابن الزبير — بعد موت يزيد وشخوص حصين بن نمير أى رجوعه إلى الشام ، إلى ابن مطيع (نائبه فى المدينة) فى تسيير بنى أميـة ، فسيره وسيرهم . فورد الشام ومعاوية بن يزيد قد بويع . وكان مروان لما سيروا اكترى أبعرة (جمالا) ركبها وبنوه ، وأمر أن يحث به وبهم ، فقال راجزه:

حـرّم مروان عليهن النوم إلا قليـــلا ، وتلاهن القـوم

حتى يقلـن أو يبتن بالدوم

والدوم على مسيرة ليلتين من المدينة . وكان عبد الملك بن مروان عليلا فقال للرسول الذى وكل بإزعاجهم: قل لأبى خبيب (أى ابن الزبـير) يصنع الله . وفى ذلك يقول الشاعر أبو قطيفة — وهو عمرو بن الوليد بن عقبة الأموى وكان ممن سيروا إلى الشام .

بكى أُحـــــدٌ لما تحمل أهله فكيف بذى وجد من القوم آلف »!

خرج مروان وعبد الملك وآل بيتهما فى رحلتهم هذه مهاجرين، وهم يظنون أنهم ذاهبون إلى منفى : إلى مغترب وعزلة . وكان مروان بالذات وقد بلغ من السن عتياً يفكر أنه ذاهب ليقضى الفترة الباقية من عمره فى هدوء ، وما دروا حينئذ — كما كانت ستبين لهم الأيام — أنهم ذاهبون ليخوضوا معتركا سياسياً لم يشهدوه من قبل ، وأنهم ذاهبون ليعطيهم أهل الشام الدولة والخلافة والملك. وأنهم ذاهبون ليسجلوا صفحات فى تاريخ العرب والإسلام ، وليصنعوا تاريخاً جديداً ! .

فبعد ستة أشهر فقط من قدومهم ، بويع مروان بالخلافة ، وأجلس على عرش دمشق فى المكان الذى كان يجلس عليه معاوية الخليفة الكبير ، وابنه الخليفة الآخر . وقام مروان فى المدة الباقية له — وهى أقل من عام — بأعمال مجيدة ، ذكرناها فى الفصول السابقة : فانتصر فى موقعة حاسمة ، وفتح مصر ، وبعث جيوشاً إلى العراق والحجاز ، وضمن انتقال العرش لأولاده ، فعقد البيعة لهم . فكل شىء كان ممهدا لتولية عبد الملك . لقد كان آخر عام فى حياة مروان أهم عام فى حياته ، على الإطلاق .

***

ومن سيرة مروان هذه التى ذكرناها تتبين الصفات التى تميز شخصيته . فقد رأينا أنه نشأ نشأة إسلامية منذ صغره ، وكان أول ما شاهده مجد الدولة الإسلامية وسيادتها ، وتأثر بعمر فى صدر شبابه ، ثم تتلمذ على عثمان فى رجولته ، فنشأ تقياً قائماً بواجباته ، عاملا بتعاليم القرآن وهو محب لتلاوته . كذلك تجلت شجاعته فى المواقف التى تحتاجها : كما فى مواقف الدفاع عن عثمان ،

وقتال يوم الجمل ، وفى الموقعة الأخيرة الكبيرة فى مرج راهط ، حيث قاد المعركة بنفسه وكان وسط الميدان يحرض القوم على القتال ويدفعهم إلى التقدم . ولكنه فيما عدا أمثال هذه المواقف ، كانت طبيعته تميل إلى المسالمة . كما رأينا من مصالحته لعلى ، وعدم بدئه أهل المدينة بالقتال يوم حاصروه ، وفى أثناء ولايته على المدينة . وكان مستقل الرأى فلم يندفع وراء العصبية — مثل سائر بنى أمية — فى العداء لآل علىّ ، بل كانت علاقته بهم طيبة .

* * *

ومن ناحية أخرى ، عرف مروان بالفصاحة والتأدب بالثقافة العربية : كما ظهر ذلك فى تمثله بالأشعار البليغة فى المواقف المناسبة ، وفى بعض العبارات التى أثرت عنه .

وأما من ناحية الإدارة والسياسة ، فكان ناجحاً فى ولايته على المدينة ، ونفذ بعض الإصلاحات . وكفى أنه اتبع أسلوبا شوريا أو ديمقراطيا ، فكان يجمع الصحابة ويستشيرهم ثم يعمل بما يتفقون عليه ، كما ذكرنا من قبل . وهذه خير سياسة . وقد جاء فى وصيته التى أوصى بها ابنه عبد العزيز بن مروان ، حينما ولاه ولاية مصر ما يأتى :

« يابنىّ ، عمهم بإحسانك يكونوا كلهم بنى أبيك . واجعل وجهك طلقاً تصف لك مودتهم . وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره يكن عوناً لك على غيره ، وينقاد قومه إليك : وقد جعلت معك أخاك « بشراً » مؤنساً . وجعلت لك موسى بن نصير وزيراً ومشيراً . وما عليك يابنى أن تكون أميراً بأقصى الأرض ؟ ! أليس ذلك أحسن من إغلاقك بابك وخمولك فى منزلك ؟ ! » .

كما أوصاه أيضاً بتقوى الله فى السر والعلانية ، وبالبر بالفقراء ، وتنفيذ وعده إذا وعده ، ولو حال دون ذلك شوك القتاد . وأن تكون المشورة رائده قبل الفصل فى أمور دولته . فتلهج الألسن بالدعاء له ، ويأمن الفتن والقلاقل .

فهذه الوصايا تشهد له بسمو حكمته ومعرفته بأصول السياسة . ويظهر أن عبد العزيز اتبع نصائح أبيه ، إذ كان أميراً ناجحاً على مصر لمدة عشرين سنه .

ومع أن خصوم مروان وبيته — وهم كثير فى عصره وما بعده — وبخاصة الشيعة وأنصار بنى العباس — وضعوا أحاديث وأخبار مكذوبة ، ترمى إلى الطعن فى مروان وأبيه وذريته — فإن أحاديث مروان وعبدالملك رويت فى كتب الحديث الصحيحة . وعد مروان فى الطبقة الأولى من التابعين ، وعبد الملك فى الطبقة الثانية ، واستشهد أئمة الاجتهاد بأعماله . وشهد لهما المؤرخون بالعدالة .

الفصل الرابع

عبد الملك وأسرته (٢)

إننا فى سيرة مروان هذه قد تتبعنا إلى حد كبير سيرة عبد الملك . فإن سيرة عبد الملك تشترك مع سيرة أبيه فى أربعين سنة وعام . وذلك منذ قدوم مروان وأسرته إلى المدينة للإقامة فى عام ٢٤ هـ ، فى أول خلافة عثمان .

فإنه فى تلك السنة التاريخية فى حياة الأسرة ، السنة التى بدأ فيها يلمع نجم الأسرة ، وكانت فاتحة الخير والمجد لهم — ولد « عبد الملك » لأبيه مروان ، كأنما كان قدومه بشير خير وسعد . فنحن نرجح أن مولده كان فى ذلك العام : ٢٤هـ .

فقد رويت ثلاث تقديرات لعمر عبد الملك ، ومنها نستنتج ثلاثة تقديرات لتاريخ مولده : فقد قيل انه عاش ستين أو اثنتين وستين ، أو ثلاثا وستين . وثابت أن وفاته حدثت فى عام ٨٦ هـ — ولا خلاف على ذلك — فهذا أمر واضح مشهور . فإذن على التقدير الأول يكون تاريخ ميلاده سنة ٢٦ هـ ، وعلى الثانى عام ٢٤ هـ ، وعلى الثالث ٢٣ هـ . وهى — على العموم — تقديرات متقاربة . وأنا أرجح التاريخ الوسط . أولا ، لأنه متفق عليه أن مولده كان بالمدينة ، وإذن فيستبعد التاريخ الأخير ، لأنه كان قبل الانتقال إلى المدينة . وثانياً لأن هذا التقدير : ٢٤ هـ هو الذى يتفق — أكثر من الآخرين — مع سير الأحداث فى حياته ، ولقرائن وأدلة أخرى لا داعى لتفصيلها هنا .

في المدينة

ولد عبد الملك إذن بالمدينة في عام ٢٤ هـ، في شهر رمضان بالتحديد — كما ذكر هو فيما بعد، وكان هذا العام هو أول عام في خلافة عثمان، التي بدأت في المحرم من ذاك العام .

وكان عبد الملك — وهو أول من سمي بهذا الاسم في الإسلام — هو أول فرد من الأسرة يولد في بيئة إسلامية كاملة، من بيت شمله كله الإسلام، من أب مسلم وأقارب مسلمين، لم يدرك لحظة من الجاهلية . فكانت نشأته إذن منذ لحظة مولده نشأة إسلامية محضة.

وقد ذكر هو عن نفسه أنه « جمع » القرآن : أي حفظه كله . وكان ذلك في رمضان أيضاً — الشهر الذي لاحظ أنه لعب دوراً في حياته — وإن كان لم يحدد العام، فلا بد أن ذلك كان في سن مبكرة . كما أننا نوقن أنه لا بد أن تلقى الثقافة العربية التي كان يتلقاها أمثاله من أبناء البيوتات الكريمة وأبناء قريش خاصة، وظل يواصل التزود منها في سني عمره، إذ يدل على ذلك ما بلغه من مستوى عال متفرد في البلاغة ومعرفة الآداب العربية، كما يظهر في خطبه ورسائله وأحاديثه .

أما تربيته الدينية والخلقية فإنه يعتبر أنه نشأ في بيت عثمان الذي كان بمثابة عمه، وكان عميد أسرتهم، وأستاذ أبيه ، فكان عثمان أمامه هو المثل الأعلى الذي يحتذيه، وكفى به مثالا نموذجياً في التقوى والورع والحياء والعمل بأحكام الدين . كما كان أبوه قدوته أيضاً، إذ كان مروان من رجال الإسلام : من الصف الأول من التابعين . وقد رأينا كيف أنه كان يترسم خطى عمر

وعثمان ، ويحيي الليل بالصلاة ، ويعمل بفضائل القرآن ، ويكثر من تلاوته لذا لا غرو أن نسمع من شهادات معاصرى عبد الملك بن مروان والمؤرخين فيما بعد — وكلها مجمعة على ذلك — أن عبد الملك كان أيضاً مثالا ممتازاً فى العبادة والنسك ، طوال حياته فى المدينة ، كما سنذكر جانباً من هذه الأقوال بعد قليل .

* * *

ولما كبر عبد الملك وبدأ يدرك ماحوله كان أول ما أدركه — ولا بد أنه كان له أثر عميق فى نفسه — أن عمه — ونعنى به عثمان — كان هو الخليفة الذى يحكم الدولة الإسلامية العظيمة كلها : « أمير المؤمنين » — كما يلقبه الناس ، وأن أباه « مروان » من كبار رجال الدولة وأقرب الناس للخليفة وهو أمين سره ورئيس ديوانه ، وأن بعض أقاربه يتولى ولايات خطيرة . وقد قربهم الخليفة وجمع حوله شمل الأسرة وشملهم بعطفه ورعايته ، فلا بد أن هذا كله كان يبعث فى نفسه شعور الزهو والفخر ، ويجعله يحس بالثقة فى نفسه والتفاؤل بمستقبله .

كما كان أول ما أدركه أيضاً — وقد ازداد وعيه — أن رأى الدولة الإسلامية فى أوج المجد والقوة ، أعظم الدول جميعاً بلا استثناء ، ويسمع الأنباء المدوية عن انتصاراتها الباهرة فى مختلف الميادين : فى شمال إفريقيا وفى بلاد فارس وفى أرمينية ، وفى البحر فى موقعة ذات الصوارى ، وغير ذلك من الأحداث التى وقعت فى خلافة عثمان ، فيكون أثر ذلك فى نفسه أن تجعله يؤمن بتفوق العرب والإسلام . ولما كان يعرف أن الإسلام هو الذى أوجد ذلك كله ، هو الذى خلق الدولة وصنع هذه القوة وأقام النظام والخلافة ، فإن

ذلك كان يزيد إيمانه بالإسلام ويجعله يعتقد أن الاحتفاظ بالإسلام هو أساس كل شيء ، ويقوى اعتقاده فى الله ، إذ هو يشعر أن هذا كله وجد بسبب أن الله أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله .

ولا بد — وهو الفتى العربى الذكى — أنه كان يفكر ويطيل التأمل فى تاريخ الإسلام منذ ظهوره — وكان لا يزال حديث العهد — ويسأل أباه وعمه ومن حوله عن أحداثه وعن سيرة النبى العربى « محمد » — وهو قريب له يجمعه به أصل عبد مناف — الذى اختاره الله لإعلان هذه الرسالة والذى كانت جهوده لها الفضل فى إقامة الدولة ومعرفة الدين ، وبعث أمة العرب ، وبدء هذا التاريخ الرائع المجيد — يسأل ، فيجيبونه بما يثير دهشته ويزيد من إعجابه . وكان يتردد على المسجد بالمدينة للصلاة ، فيرى على مقربة منه قبر الرسول « محمد » ، وبجواره قبر أبى بكر وعمر ، فيجعل هذا الفكرة حاضرة لديه دائماً ، ويجدد مشاعره بهذه المعانى كل يوم .

حادث عثمان وأثره

لكن الحادث الذى هز نفسه من أعماقها ، بل زلزل وجدانه ، وأثر فيه أكثر من سواه — كان هو حادث مقتل الخليفة « عثمان » ، بما تقدمه وما قارنه ولحقه من أحداث . فإن مقتل عثمان كان بمثابة صدمة له ، جعلته يراجع فكرته عن الناس والدنيا ، وتركت آثارا فى نفسه لا تمحى . فإنه إذا كان مصرع خليفة فاجعة بالنسبة للدولة والأمة ، فإن مقتل الخليفة عثمان بالذات — بالنسبة له ولأسرته — كان فاجعة شخصية ، ومصيبة نزلت بأسرته وبيته . فقد كان عثمان أباهم وعمهم وعميد أسرتهم ، وكان العدوان الذى وقع عدوانا على كيان الأسرة ، وشرفها ومركزها .

شهد عبد الملك هذا الحادث — الذى وقع فى آخر عام ٣٥ هـ — وكان فوق العاشرة من عمره ، بل كان جاوز الحادية عشرة ، فكان عنده إذن من قوة الإدراك مايجعله يفهم مايدور حوله من أمور ، ويعرف أسبابها ومايترتب عليها . ولا بد أنه ظل منذ هذا الوقت يستوضح خفاياها ، ويزداد تفهما لحقائقها . ومن هذا الحادث ، وما أثر فى وجدانه وما استنتج منه ، استنبط الدرس الذى آمن به ، ورسخ فى ذهنه ورسب فى أعماق نفسه . كان هـذا الدرس أو العبرة أنه اعتقد أن سبب هذا الذى حدث كله : سبب هذه الفاجعة أو الـكارثة ، إنما هو اللين الذى أخـذ به عثمان ، سياسة اللين أو الضعف أمام المهاجمين والثائرين . فلو كان عثمان أخذ هؤلاء المشاغبين المعتدين بالقوة والحزم ، لقمعهم وصرعهم وقضى على الفتنة فى مهدها ، ولما تطورت الأمور إلى هذا الحد الذى أدى إلى مصرعه . إذن فالشـدة والحزم هما عماد السياسة ، وهما اللذان يحفظان الدولة ، ولذلك فإننا سنرى هـذا الدرس هو الذى سيـكون القاعدة التى يبنى عليها عبد الملك سياسته ، حينما تشاء الأقدار أن تئول إليه مسئولية الخلافة ، ويجلس فى نفس المـكان الذى كان يجلس فيه سلفه وعمه : الخليفة عثمان .

* * *

ولو كان عبد الملك لم يترك لنا أقوالا تبين رأيه ، لـكان استنتاجنا هذا من ذاته موافقاً للحقيقة . ولـكن أثرت عن عبد الملك أقوال عبر فيها عن رأيه بوضوح ، وذلك فى حديث تاريخى جرى بينه وبين أحد معاصريه . فقد حدث أنه بينما كان عبد الملك فى الحج بمـكة — وذلك بعدما تولى الخلافة — وهو جالس فى الحرم ، أن جرى حديث بينه وبين رجل من الأنصار ، اسمه ثعلبة بن مالك القرظى . فى أثناء هذا الحديث قال الرجل — وذلك بمناسبة

خلاف حول حكم من أحكام العبادة — : « ليست سنة أحب إلىّ من سنة عمر » — كأنه يلمح أنها تختلف عن سنة عثمان . فحينئذ قال عبد الملك ، رادا عليه : «رحم الله عمر . فعثمان كان أعلم بعمر . لو كان عمر فعل هذا لاتبعه عثمان ، وما كان أحد أتبع لعمر من عثمان . وماخالف عثمان عمر فى شيء عن « سيرته إلا باللين ، فإن عثمان لان لهم حتى ركب . ولو كان غلظ عليهم جانبه كما غلظ عليهم ابن الخطاب ، ما نالوا منه ما نالوا ! » .

ثم استمر يقول ليبرر سياسة الشدة التى يتبعها فى أثناء خلافته وفى عصره: «وأين الناس الذين كان يسير فيهم عمر بن الخطاب والناس اليوم ، ياثعلبة ؟ ! إنى رأيت سيرة السلطان تدور مع الناس . إن ذهب اليوم رجل يسير بتلك السيرة ، أغير على الناس فى بيوتهم ، وقطعت السبل ، وتظالم الناس ، وكانت الفتن . فلا بد للوالى أن يسير فى كل زمان بما يصلحه! » . وفى خطبة لعبدالملك أيضا ، حول هذا الوقت وهو فى الخلافة ، أشار إلى الخليفة عثمان — وهو يتحدث عن نفسه ، فقال : « أيها الناس : لست بالخليفة المستضعف ! » يعنى عثمان . فهكذا آمن عبد الملك بأن سياسة الضعف أو اللين تؤدى إلى الإطاحة بالدولة ، أو تعرضها للأخطار — على حين أن سياسة القوة والحزم تحفظ كيانها ، وتصون بقاءها . وكان هذا هو الدرس الذى استخلصه من مقتل عثمان .

* * *

وشهد عبد الملك بعد مقتل عثمان اضطراب الأمور ، وبيعة على ، واختلاف الصحابة ، وخروج أبيه وبنى أمية إلى مكة ، ثم إلى البصرة حيث حدثت « موقعة الجمل » ، التى قاتل فيها أبوه وأصيب بجراح ، ثم عودة أبيه

إلى المدينة بعد ما صالح عليا وبايعه . فقضت الأسرة منذئذ نحو خمس سنوات هادئة ، بعيدة عن التقلبات . وكانت خطة حكيمة من مروان أنه لم يشترك فى النزاع الذى دار بين على ومعاوية ، ولم يحضر صفين . وكفى نفسه وعائلته بذلك شرور الحرب والسياسة . وهكذا حتى عام ٤١ هـ .

فى عهد معاويه

ففى ذلك العام بدأ عهد جديد . وهذا هو العام الذى أسماه المؤرخون : عام الجماعة . وذلك لأن الفتنة فيه انتهت ، واستقر أمر الخلافة لمعاوية . فبدأ منذ ذلك الحين عهده . وكان معنى ذلك أن أمويا آخر ، من نفس الأسرة ، وهو قريب لعثمان ومروان وعبد الملك ؛ قد جلس أيضاً على عرش الخلافة ، فكان ذلك بشيراً بأن يعود حظ الأسرة وتشهد عهداً ثانياً من الرخاء والسيادة لكن صلة معاوية بمروان وعبد الملك كانت أبعد درجة من صلة عثمان بهم ، لأن هذا من فرع وذاك من فرع — كما بيناه سابقاً ، كما أن معاوية كان يخشى شيئاً من المنافسة من جانب مروان . فاكتفى بأن عين مروان واليا على المدينة ، ثم على الحجاز . وكان فى هذا إرضاء كاف له . وذلك فى عام ٤٢ هـ .

* * *

وفى ذلك العام استؤنفت الفتوح ، واستعدت الدولة لغزو الروم . فجهزت سرية من المدينة تتوجه إلى الشام لتشترك فى غزو الروم بالبحر . وعين عبدالملك رئيساً لهذه السرية — وكان فى بدء شبابه ، وعمره نحو الثامنة عشرة . فتوجه عبد الملك إلى مقصده ، وركب البحر مساهما فى الحملة . وكانت هذه أول تجربة له فى الجهاد ، وتحدث عنها مرة فى أخريات أيامه ، فقال : إنها من أرجى الأعمال التى يرجوها عند الله .

ولبث أبوه واليا على المدينة حتى سنة ٤٨ . وحدث أنه فى سنة ٤٥ هـ أدركت

المنية زيد بن ثابت الصحابى الجليل — وكان رئيس ديوان المدينة إذ ذاك — فكتب مروان إلى معاوية يستأذنه فى تعيين عبد الملك رئيساً لهذا الديوان . فأجاب معاوية بالموافقة، وعين عبد الملك رئيساً للديوان، فى مكان زيد الصحابى الجليل. وكانت هذه ثقة بعبد الملك واعترافا بجدارته . فظل على رئاسة هذا الديوان إلى آخر مدة بقائه بالمدينة .

وهناك ما يدل على أن عبد الملك زار الشام ودمشق فى عهد خلافة معاوية غير مرة . ففى أثناء هذه الزيارات شاهد الخليفة دولة معاوية وشواهد عظمتها وحضر بعض مجالس الخليفة وتعرف إلى شخصيته ، ورأى العاصمة التاريخية التى أصبحت معقلا للعروبة والإسلام ، وما فيها من مظاهر الحضارة والعمران، ورأى الجيوش تجهز لغزو بلاد الروم أو للفتوح فى المغرب أو فى المشرق . والأساطيل تعبأ لفتح القسطنطينية ، أو الاستيلاء على بعض جزر البحر الأبيض وكانت سبقت له تجربة الاشتراك معها .

وهكذا اكتسب كل هذه التجارب ، واختزن ما التقط من دروس فى عقله الباطن ، فكانت له ذخيرة قدر له أن ينتفع بها ، حينما شاءت إرادة الله أن تئول إليه هذه الدولة ، ويجلس هو فى نفس مكان معاوية الخليفة الكبير

عبد الملك وموقعة الحره

ولما جاء بعد معاوية ابنه يزيد ، وحدثت هذه الأحداث المؤسفة التى بيناها من قبل ، والتى هزت شعور المسلمين فى جميع أنحاء الدولة ، كان عبد الملك لايزال مقيماً بالمدينة ، ولم يشترك فى أى من الأسباب التى أدت إلى هذه الحوادث ، ولكن أصابه وأسرته منها الضرر حين ثار أهل المدينة وحصروا بنى أمية فى دار مروان ، وأخرجوا من المدينة ليعودوا مع الجيش القادم ، وحدثت موقعة الحرة (آخر سنة ٦٣ هـ)

وتفيد بعض الأقوال التى أثرت عن عبد الملك أنه لم يكن راضيا عن سياسة يزيد وأفعاله ، فقد وصفه فى خطبة له — بعد أن تولى الخلافة — فقال عنه : إنه « الخليفة المأفون » والأفن هو ضعف الرأى وخطله . وحقا كاد يزيد أن يضيع الدولة ، التى بذل أبوه كل الجهود فى بناء صرحها .

* * *

تذكر الأخبار هنا اسم عبد الملك فى أثناء الحديث عن موقعة الحرة .

وخلاصة هذه القصة — كما ذكرتها بعض الروايات — أن أهل المدينة بعد أن حاصروا بنى أمية وهددوهم ، عادوا فرأوا أن يكفوا عنهم وأخرجوهم من المدينة ، بعد أن أخذوا عليهم العهود والمواثيق : أن لا يظاهروا عليهم عدوا ولا يدلوه على عورة ، ولا يبغوهم غائلة . فأخرجوا من المدينة ، وساروا حتى لقوا مسلم بن عقبة بوادى القرى قادما من الشام بجيشه . فدعا بعمرو بن عثمان أول الناس ، فقال له : خبرنى ماوراءك، وأشر على . فقال: لاأستطيع . قد أخذ علينا العهود والمواثيق ، أن لا ندل على عورة ولا نظاهر عدوا ، فانتهره وقال : والله لولا أنك ابن عثمان لضربت عنقك ! . فخرج وأخبر أصحابه .

فقال مروان لابنه عبد الملك : أدخل قبلى لعله يجتزىء بك عنى . فدخل عبد الملك . فقال: هات ماعندك . فقال : « نعم . أرى أن تسير بمن معك ، فإذا انتهيت إلى ذى نخلة نزلت ، فاستظل الناس فى ظله فأكلوا من ثمره . فإذا أصبحت من الغد ، مضيت وتركت المدينة ذات اليسار، ثم درت بها حتى تأتيهم من قبل الحرة ، مشرقا . ثم تستقبل القوم ، فإذا استقبلتهم وقد أشرقت عليهم الشمس ، طلعت وراء ظهور أصحابك فلا تؤذيهم ، وتقع فى وجوههم فيؤذيهم حرها ، ويرون من ائتلاق بيضكم وأسنة رماحكم وسيوفكم ودروعكم مالا ترونه أنتم من سلاحهم ، ما داموا مغربين . ثم قاتلهم، واستعن بالله

عليهم » ، فقال له مسلم : لله أبوك ، أى امرىء ولد !

ثم إن مروان دخل عليه فقال له : ايه؟ . فقال : أليس قد دخل عليك عبد الملك ؟ . قال : بلى : وأى رجل عبد الملك ! : قلما كلمت من رجال قريش رجلا شبيها به . فقال مروان : إذا لقيت عبد الملك فقد لقيتنى .

ثم ارتحل مسلم ؛ وصار ينفذ ما أمر به عبد الملك فكان سببا فى إحرازه النصر فى الموقعة .

* * *

هذه هى القصة . ومفادها أن عبد الملك هو الذى وضع خطة الحرب لهذه الموقعة ، ونفذها « مسلم » قائد الجيش : الشيخ الكبير المريض .

فإن صحت هذه القصة ، فإنما تشهد لعبد الملك بما كان يتمتع به من مواهب الذكاء وسداد الرأى والخبرة حتى بالحرب ، وعلى تقدير أبيه والناس له ، حتى إن القائد الكبير يصغى لقوله وينفذ رأيه. كما أن عبد الملك لو كان فعل ذلك لم يكن ليلام ، لأنه وأهله وقومه معتدى عليهم ، إذ أن أهل المدينة حاصروهم وكادوا أن يقتلوهم ، وأخرجوهم من وطنهم وديارهم . فكان عليه أن يساعد الجيش الذى جاء لمناصرتهم ، ومقاتلة الذين اعتدوا عليهم ، وإعادتهم إلى وطنهم .

ولكن هناك ملاحظات لا بد من إبدائها .

فهذه الرواية عن مصدر معين . ولكن هناك رواية أخرى للواقدى لم يذكر فيها هذه القصة ، وقال إن عبد الملك كان مجدوراً : أى مريضاً فى هذا الوقت وفى أثناء الرحلة . وكل ما ذكره أن مروان وعبد الملك لقيا مسلم بن عقبة فى الطريق فرجعا معه ، لكن عبد الملك تخلف فى مكان على بعد اثنى عشر ميلا من المدينة يسمى بذى خشب ، وذلك لمرضه ، فلم يرجع مع أبيه إلى المدينة لحضور الموقعة ، ولكنه كان متلهفاً على سماع خبر نتيجتها ، فأرسل رسولا

لذلك ، فلما جاءه خبر نصر أهل الشام فرح بذلك كثيراً وشكر الله . فهل إذا كان مريضاً بهذا المرض يدخل على مسلم ويحادثه الحديث السابق ؟ .

ثم هل خرج القائد الكبير من الشام على رأس جيش يبلغ عدده اثنى عشر ألف مقاتل ، دون أن يضع خطة يعرف بها كيف يقاتل أهل المدينة ، فيضطر إلى أخذ الخطة من الطريق ؟ . وماذا كانت خبرة عبدالملك إذ ذاك بأساليب الحرب وهو لم يشهد من قبل موقعة كبيرة . وكان جل اهتمامه فى هذا الدور موجها إلى مسائل الفقه والدين أو الكتابة والإدارة ، أكثر من غيرها ؟ . ثم كيف يجيز عبد الملك لنفسه — وهو الذى عرف بشدة تقواه وورعه فى هذا الوقت — أن يخالف العهود والمواثيق إذا كان أعطاها ؟ !

على كل حال — ومع ذلك — فإن القصة لا تبدو أنها مستحيلة . ويمكن تصديقها وقبولها مادامت جاءت عن طريق رواة غير متهمين . وروريت نصوص الأقوال بصورة ترجح صدقها . وهى — كما قلنا — تشهد لعبد الملك بسداد الرأى وقوة العقل ونفاذ الملاحظة . ولكن على شرط أن تستبعد فكرة أنه كان حاضراً عند أخذ المواثيق، وأنه عطى عهوداً على نفسه، بل يغلب أنه كان غائباً لمرضه. وحتى على فرض أنه ومن معه أعطوا عهوداً. فقد كانوا محاصرين وأعلنت عليهم الحرب . وكانوا مجبرين على كل ما فاهوا به ، وهم يتعهدون لأعدائهم ضد مصلحتهم . فهل إذا لم يفو بها يوجه إليهم اللوم ؟ على أننا مع ذلك نستبعد هذه الفكرة من أساسها ، لأنها لا تتفق مع ما عرف عن عبد الملك فى هذا الدور من حياته ، وأجمعت عليه الأخبار : من الورع والتقوى والانصراف إلى العبادة والتفقه فى مسائل الدين ، حتى عد ناسك بنى أمية وعالمها — كما سنشرحه الآن .

سيرة عبد الملك فى المدينة

قضى عبد الملك أربعين عاما متوالية من حياته بالمدينة منذ ولد فيها (٢٤ — ٦٤ هـ) فلم يبرحها إلا لزيارات موقوتة. فهو مدنى إذن. وينبغى أن يعتبر من أهل المدينة.

وكانت المدينة لا تزال عامرة بعدد غير قليل من الصحابة وعدد أكثر من التابعين. فكانت لاتزال المركز الأول للثقافة الإسلامية، والمصدر الأول للتأثير الروحى. وإذا كانت قد فقدت كثيراً من أهميتها السياسية بعد انتقال العاصمة إلى دمشق، فإنها مع ذلك لم تفقد أهميتها وقيادتها العلمية والروحية. بل إن ذلك كان أدعى لأن تتفرغ لدراسة العلم وأداء رسالة الدين. فكانت الفرصة ميسرة إذن أمام عبد الملك — وقد أهله ذكاؤه واستعداده ونشأته لذلك — أن ينهل من هذا المورد السائغ الغزير. وقد أفاد عبد الملك من هذه الفرصة الماثلة خير إفادة، ونهل من هذا المورد العذب ما شاء له أن ينهل، وأكب على تحصيل العلم باجتهاد حتى نال من العلم بغيته. وحتى وصل إلى مستوى شهد له فيه بالتفرد والنبوغ، وعد من رجال المدينة المعدودين.

وقد تأثر عبد الملك فى نفس الوقت بالجو الروحى الذى عاش فيه فى المدينة، ولا سيما فى بيئته الخاصة: حيث كان يرى عثمان مثله الأعلى، ثم أباه مروان، ثم زيد بن ثابت الذى كان مستشار عثمان، والذى قال عبد الملك عنه فيما بعد: « نعم المشير كان للإسلام » — تأثر بهذا الجو، حتى صار أيضاً نموذجاً فريداً من حيث العمل بأحكام الدين والتزام فضائله، والعكوف على العبادة. وشهد له أيضاً بالنبوغ فى ميدان الخلق الكريم، والاجتهاد فى العبادة.

وإذا كانت أكثر الأقوال التى سنذكرها تشهد له بالتفوق فى هاتين

الناحيتين : ناحية العلم الديني والأخلاق الفاضلة ، فإننا نرى أيضاً أنه حصل على أكبر قدر ممكن من الثقافة العربية ـ كما تدل على ذلك خطبه فيما بعد ورسائله وقدرته على نقد الشعر ، ومناقشاته في مجالسه الأدبية مع العلماء والشعراء التي حفلت بها كتب الأدب والتاريخ. وقد جاءت بعض الأقوال شاهدة بذلك أيضاً.

* * *

قال ابن سعد : أخبرنا الواقدي عن رجاله من أهل المدينة قالوا :

قد حفظ عبدالملك عن عثمان . وسمع من أبي هريرة وأبي سعيد الخدري وجابر بن عبد الله ، وغيرهم من أصحاب رسول الله . وكان عابدا ناسكا قبل الخلافة .

وقال الذهبي — مؤيدا هـذا القول وزائدا عليه — : سمع عبد الملك من عثمان وأبي هريرة وأبي سعيد وأم سلمة وابن عمر ومعاوية .

وروى عنه (أي عن عبد الملك) عروة ، ورجاء بن حيوة ، والزهري ، ويونس بن ميسرة ، واسماعيل بن عبيد الله ، وطائفة .

وقال نافع : لقد رأيت المدينة وما بها شاب أشد تشميرا ولا أفقه ولا أنسك ، ولا أقرأ لـكتاب الله ، من عبد الملك بن مروان .

وقال مالك : سمعت يحيي بن سعيد يقول : من صلى في المسجد ما بين الظهر والعصر عبد الملك بن مروان وفتيان معـه . كانوا إذا صلى الإمام الظهر قاموا فصلوا إلى العصر .

وروى البلاذري وصاحب الفخري أن عبد الملك كان يقـال له : حمامة المسجد ، لعبادته ومداومته تلاوة القرآن .

وقال أبو الزناد : كان فقهاء المدينة أربعة : سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وقبيصة بن ذؤيب ، وعبد الملك بن مروان .

وقال الشعبي : ما ذاكرت أحداً إلا وجدت لى الفضل عليه إلا عبد الملك ابن مروان ، فإنى ما ذاكرته حديثا إلا زادنى فيه ، ولا شعرا إلا وزادنى فيه . (والشعبى هو عالم العراق) .

وقال هو أيضا :

« وفدت على عبدالملك فما أخذت فى حديث أرى أنه لم يسمعه إلا سبقنى إليه . وربما غلطت فى الشيء ـ وقد علمه ـ فيتغافل عنى تكرما » .

وجاء أناس إلى عبد الله بن عمر يشكون بعض ولاتهم — وعبد الملك يصلى إلى سارية بالمسجد — فأشار ابن عمر إليه وقال : « لو وليهم عبدالملك هذا ما رضوا به » — يضرب به المثل فى الفضل والصلاح .

وقال الأصمعى : أربعة لم يلحنوا فى جد ولا هزل : الشعبى ، وعبد الملك بن مروان ، والحجاج بن يوسف ، وابن القرية .

وكان عبد الملك بن مروان يخطب ، فسمعه رجل أعرابى من البادية ، فسأله رجل من قريش : كيف ما تسمع ؟ فقال : لو كان كلام يؤتدم به لكان هذا .

وكان عبد الملك يوصى بنيه أن يحفظوا لغة العرب ، وقال :

إنه لا يلى العرب إلا من يحسن كلامهم .

وقال الجاحظ : كان عبدالملك بن مروان سنان قريش وسيفها رأيا وحزما ، وعابدها قبل أن يستخلف ورعا وزهدا .

وسطر ابن خلدون حكمه على عبد الملك فقال :

« وعبد الملك صاحب ابن الزبير أعظم الناس عدالة . وناهيك بعدالته احتجاج مالك بفعله ، وعدول ابن عباس وابن عمر إلى بيعته عن ابن الزبير وهم معه بالحجاز » .

وفى موضع آخر قال : « فقد احتج مالك فى الموطأ بعمل عبد الملك » .

وقال أيضا عن أبيه :

« وأما مروان فكان من الطبقة الأولى من التابعين . وعدالتهم معروفة » .

ولما كانت هذه صفات عبد الملك فإنه نال إعجاب من رأوه حتى فى حداثته ، وتنبأ له البعض بما يكون من مستقبله وأنه سيصل إلى مراتب السيادة .

حدث سعيد بن العاص فقال : كنت عند معاوية وعنده عبد الملك ، فلما قام أتبعه بصره ، ثم قال : لله در هذا الفتى ، ما أعظم مروءته ! .

وهذا الحديث روى فى رواية أخرى بصورة أكمل : فقد روى محمد بن اسماعيل المدنى قال : جلس معاوية بن أبى سفيان ذات يوم ومعه سعيد بن العاص ، فمر بهما عبد الملك بن مروان ، فقال معاوية : ما آدب هذا الفتى وأحسن مروءته ! فقال سعيد بن العاص : يا أمير المؤمنين إن هذا الفتى أخذ بخصال أربع وترك خصالا ثلاثا : أخذ بحسن الحديث إذا حَدَّث ، وحسن الاستماع إذا حُدِّث ، وحسن البشر إذا لقى ، وخفة المئونة إذا خولف . وترك من القول ما يعتذر منه ، وترك مخالطة اللئام من الناس ، وترك ممازحة من لا يوثق بعقله ولا مروته » .

وروى المدائنى أن عثمان — رضى الله عنه — رأى عبد الملك فضمه إليه ، وقال : رأيتنى أخذت برنسى فوضعته على رأسه . وقد ولده أبو العاص مرتين . ولئن خرجت منى إليه ما ذاك كبير .

وقالت أم الدرداء لعبد الملك : ما زلت أتخيل هذا الأمر فيك منذ

رأيتك ! قال : وكيف ذاك ؟ قالت : ما رأيت أعلم منك محدثا ، وما أحسن منك مستمعا .

ودخل عبد الملك وهو شاب على أبي هريرة — رضى الله عنه — فقال أبو هريرة : هذا يملك العرب .

* * *

فهذا هو « عبد الملك بن مروان » .

وقد بقى فى « المدينة » حتى بلغ أربعين سنة . ثم اضطر هو وأسرته إلى الهجرة إلى الشام فى ربيع الآخر عام ٦٤ هـ عند حدوث الفتنة ، واضطراب الأمر بالشام ، وظهور عبد الله بن الزبير بمكة والحجاز ، وأمره باخراج بنى أمية من المدينة — كما سبق أن شرحنا كل ذلك .

فوصل عبد الملك إلى « دمشق » فى التاريخ المذكور ، رجلا ناضجا كامل الثقافة كثير التجارب ، ولم يكن يدرى ماذا يكون مصيره ومصير أسرته فى هذا المغترب . ولكن الله وحده كان يعلم أنه ، بعد ستة أشهر فقط ، سينعقد « مؤتمر الجابية » — الذى ذكرنا أمره فيما مضى — ويقرر بالإجماع انتخاب «مروان» أباه خليفة على المسلمين ، وتقوم بذلك دولة « آل مروان» بدمشق، ويكون عبد الملك العضد الأيمن والوزير لأبيه فى أثناء خلافته ، فيعينه نائبا عنه فى دار الخلافة ، حينما خرج لفتح مصر ، ثم يعقد البيعة بالعهد له عند عودته ، فلا يلقى إلا قبولا وموافقة من الناس وذوى الحل والعقد ، ثم يعينه أميرا على فلسطين ، ولو أنه لم يبق فى ذلك إلا مدة قصيرة .

ثم لا تكاد تمضى عشرة أشهر فقط على قرار مؤتمر الجابية حتى يختار الله أباه إلى جواره ، ويصبح عبد الملك فيجد نفسه خليفة الإسلام والمسلمين ،

وصاحب الدولة فى دمشق — وذلك بعد سنة فقط وبضعة أشهر من قيامه من المدينة منفيا ، يواجه الصحراء الفسيحة ويواجه المجهول !

بنو أمية والإسلام

بقيت هنا مسألة لابد أن نناقشها .

وهى أنه ، بعد أن تبينت لنا هذه الحقائق ، وتتبعنا سيرة هاتين الشخصيتين — وكل منهما صار بدوره خليفة فى الدولة الأموية — يتضح الفرق إذن جليا بين الحقيقة التاريخية لهذه الدولة وفكرة كثير من الناس عنها . فكثير من الناس يسىء تقدير الدولة الأموية ، ويحمل عليها وينظر إلى خلفائها ورجالها كأنهم لم يكونوا كثيرى الاهتمام بالدين،وأن غاياتهم كانت دنيوية أو نفعية أو نحو ذلك ، وبذلك يغمط هذه الدولة حقها ، ويقلل من الدور الذى أدته لخدمة الدين والأمة الإسلامية .

لكننا قد رأينا — كما أوضحت لنا الأدلة والأقوال التاريخية — أن سيرة مروان ، وهو مؤسس الفرع الأكبر من الدولة الأموية ، وسيرة ابنه عبدالملك — تثبتان عكس ذلك. فقد ثبت أنهما كانا من التابعين، وكان كل منهما مثالا فى الفضل والصلاح ؛ فالأول وهو مروان كان يقتدى بعمر وعثمان ، « ولم يخل قط بأحكام القرآن » . والثانى وهو عبدالملك وصل إلى أن صار نموذجا يحتذى فى الصلاح والتقوى وطلب العلم ، وبلغ من المكانة أن عد بين كبار فقهاء المدينة ، وقرن اسمه بأسماء سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير ، وغيرهما من أفذاذ علماء الصدر الأول .

وكذلك نشأ أولادهما الذين حكموا الدولة بعدهما نشأة فاضلة ، واتبعوا نفس النهج ، فكانوا من خيرة الخلفاء ، وحدثت فى عهودهم الفتوحات العظيمة .

وهم : الوليد بن عبد الملك ، وسليمان وهشام أخواه . ثم نجيبة بيت مروان ، وفقيهم في التقوى والورع ، وهو عمر بن عبد العزيز بن مروان . وحتى آخر خلفائهم — وهو مروان بن محمد — كان من أكفأ من تولوا حكم الدولة الإسلامية ، وكان قائدا قديرا ، ولكنه جاء في ظروف غير مواتية . فلا نستثنى إذن إلا يزيد الثانى وابنه الوليد ، وهما لم يحكما الدولة أكثر من خمسة أعوام ونصف عام ، من مجموع المدة التى حكم فيها بيت « آل مروان » ، وقدرها سبعة وستون عاما .

* * *

بل إذا رجعنا إلى الفرع الأول — ونعنى به معاوية بن أبى سفيان مؤسس الدولة الأموية كلها وابنه يزيد — فإننا إذا نحينا سيرة يزيد جانبا — فماذا نجد من سيرة معاوية ؟ نجد أن معاوية كان من أجلاء الصحابة ، واختاره النبى عليه الصلاة والسلام ليكون من كتابه ، وروى عن الرسول مائة وثلاثة وستين حديثا ، وروى عنه من الصحابة ابن عباس وابن عمر والنعمان بن بشير ، وغيرهم. وشهد مع الرسول موقعة حنين . ولم يثبت عليه بعد أن أسلم إلا مايدل على حسن إسلامه ورعايته لأداء واجباته وتدينه .

بيد أن الذى دعا فريقا من الناس أن يقفوا منه موقفا عدائيا هى مسألة خلافه مع على — رضى الله عنه — والشأن الكبير الذى جرى بينهما فى أثناء الفتنة . ولكن هذه كانت مسألة سياسية . وكان الموقف شديد التعقيد يحتوى على عوامل كثيرة . ولا يحتمل المقام أن نشرح هنا هذا الموضوع .

ويكفى أن نشير إلى بعض هذه العوامل أو الظروف التى تخفف من التطرف فى الحكم : فمن ذلك أن بيعة على وقعت فى ظروف غير طبيعية ، على

إثر فتنة وقتل خليفة ، وكان على رأس المبايعين هؤلاء الذين قاموا بالفتنة،وأن عدداً من الصحابة امتنعوا عن المبايعة وخرج بعضهم فحاربوا فى موقعة الجمل ، وأن الخليفة الذى قتل مظلوماً كان عميد الأسرة الأموية ، فكان قتله عدواناً على الأسرة كلها وشرفها ، وتلا ذلك عزل معاوية عن ولاية الشام وغيره من الولاة . فهذه أمور أو ظروف ينبغى أن تدخل فى الاعتبار عند بحث وجوه هـذا الخلاف — إلى جانب الإقرار بفضل على وقدمه فى الإسلام وأحقيته بالخلافة .

وقد تحدث « ابن خلدون » عن طبيعة هـذا الخلاف فقال : « وغاية الخلاف الذى وقع بين الصحابة والتابعين أنه خلاف اجتهادى ، فى مسائل دينية ظنية . وهذا حكمه » . ثم استمر قائلا : « فأما واقعة على فإن الناس كانوا عند قتل عثمان مفترقين فى الأمصار ... ثم اختلفوا بعد ذلك : فرأى على أن بيعته انعقدت ولزمت من تأخر عنها باجتماع من اجتمع عليها بالمدينة . ورأى الآخرون أن بيعته لم تنعقد ، لافتراق أهل الحل والعقد بالآفاق ، ولم يحضر إلا قليل ، ولا تكون البيعة إلا باتفاق أهل الحل والعقد الخ » . ثم انتهى من البحث إلى قوله : « وإذا نظرت بعين الإنصاف عذرت الناس أجمعين » .فهذا هو حكم المؤرخ المنصف الذى لا تؤثر عليه العاطفة .

* * *

ونقطة أخرى تحتاج أيضاً أن تجلى الحقيقة عنها . وهى أن كثيراً من النـاس حين ينظرون إلى رجال الدولة الأموية يغلب أن يكون حكمهم متأثراً بفكرة أن بنى أمية دخلوا الإسلام متأخرين. لكن هذه النظرة غير إسلامية، كما أنها لا تلم بكل الحقائق . فينبغى أن نذكر أولا أنه دخل فى الإسلام منذ

بدء ظهوره عـدد من بنى أمية وعبد شمس : فمنهم عثمان بن عفان وخالد بن سعيد بن العاص ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وحبيبة بنت أبى سفيان .

ولم يسلم من بنى هاشم أبو طالب والد على وعم الرسول ، وكذلك « أبو لهب » واسمه « عبد العزى بن عبد المطلب » ، وهو عم ثان .

وكان ممن تخلف وناوأ الإسلام أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، كما تأخر عقيل بن أبى طالب وكان مع المشركين فى يوم بدر . ولم يسلم والد أبى بكر الصديق إلا بعد دخول الرسول مكة ، فأتى به أبو بكر إلى النبى فى المسجد فأعلن حينئذ إسلامه .

وهكذا فى كل دين وعقيدة لابد من سابقين ومتأخرين . وحين ظهر الإسلام كان فى كل أسرة من هؤلاء وهؤلاء ، حتى فى أسرة بنى هاشم ، والأمثلة على وجود النوعين فى كل الأسر كثيرة ، نكتفى بما قدمناه منها .

وإنما الذى يجب أن يقرر أن النظرة الإسلامية إلى هذا الأمر أن نحكم بأنه متى دخل المرء فى الإسلام فقد أنهى الإسلام ما قبله ومحاه . فهذه هى النظرة التى علمنا إياها الرسول عليه السلام نفسه، وهذا هو حكمه المعصوم الحق. فإنه لما جاء « عمرو بن العاص » — وكان قبل من زعماء قريش — لما جاء يسلم قبيل فتح مكة ، وقال : « يا رسول الله إنى أبايعك على أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى » — قال له الرسول عليه الصلاة والسلام : « ياعمرو ، بايع . فإن الإسلام يجُبُّ ما قبله » : أى يقطعه ويمحوه . ولذا لم يجد الرسول أى بأس فى أن يعينه — عقب إسلامه — أميراً على جند المسلمين بأرض الشام ، وكان تحت إمرته عدد من المهاجرين الأولين . ثم أسلم أيضاً فى السنة السابعة خالد بن الوليد، فأصبح بعد قليل سيف الله وسيف الإسلام. ثم أسلم أبو سفيان بن حرب

حين جاء فى رفقة العباس بن عبد المطلب ، وأسلم ابنه معاوية . وأسلم أيضاً الحكم بن أبى العاص أبو مروان . كما أسلم عند فتح مكة أكثر زعماء قريش. ثم دخل الناس فى دين الله أفواجاً . وهكذا كان شأن الإسلام فى أول دعوته ، فهو دين جديد . ولا ينتظر أن يدخل الناس فى دين جديد دفعة واحدة .

ولم يبد الرسول — عليه الصلاة والسلام — حين أقبل هؤلاء على الإسلام إلا أنه كان فرحا بإسلامهم ، بل كان يقابلهم فاتحا ذراعيه معانقا لهم . فهو كان نبياً ، رسالته أن يدعو الناس إلى الإسلام والهدى ، فلا يفرحه مثل نجاح دعوته وانتشارها . وكان — صلى الله عليه — فوق نزعات البشر من الحقد أو الرغبة فى الانتقام ، حتى بلغ من عفوه أن عفا عن « وحشى » قاتل عمه حمزة — حينما أسلم — فى حين أن حمزة كان أحب الناس إليه ، ولم يحزن الرسول لموت أحد كما حزن عليه ؟ .

ولما أسلم أبو سفيان أراد الرسول أن يكرمه ، فأمر أن ينادى فى الناس — كما أشرنا إليه من قبل — أن « من دخل بيت أبى سفيان فهو آمن » . وحسن إسلامه . فعقب ذلك خرج مع الرسول هو وابنه معاوية ، فشهد مع الرسول وقعة « حنين » . ثم اختاره الرسول سفيرا إلى ثقيف . كما اختار الرسول معاوية ليكون أحد كتابه ، فحظى بصحبة الرسول ، وتعلم منه كل ما قوى إيمانه وازداد هدى . وعندما فتحت مكة ولى الرسول عليها أحد أفراد بنى أمية ، وهو « عتاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية » — وكان ممن أسلموا يوم الفتح — فبقى فى ولايته بقية حياة الرسول ، ثم طوال عهد الخليفة أبى بكر .

* * *

ولما تولى الخلافة أبو بكر ، وفد إليه بنو أمية فى لهفة ليشتركوا مع إخوانهم فى الجهاد ليعوضوا مافاتهم من نصر الإسلام وإعلاء شأنه . فوجههم أبو بكر لحرب الروم فى الشام ، وعين يزيد بن أبى سفيان قائدا ، فاشتركوا فى موقعة « اليرموك » حتى حقق الله النصر للمسلمين .

وبعد الفتح عين عمر « يزيد » واليا على دمشق ، ثم عقب موته عين أخاه معاوية بدلا منه . كما ولاه أيضا على الأردن ، حيث عزل شرحبيل بن حسنة الكندى أحد كبار القواد ، فحين ذهب شرحبيل مغضبا إلى عمر ، يقول: « أعن سخطة عزلتنى يا أمير المؤمنين ؟ » ، قال عمر : « لا . إنك لكما أحب . ولكنى أريد رجلا أقوى من رجل ! » . وقاد معاوية جنده فى فتح مدن سواحل الشام . ومعاوية هو مؤسس البحرية الإسلامية فى عهد عثمان ، واستولى على قبرص ، وأوغل فاتحا فى بلاد الروم حتى وصل إلى « عمورية » . ولبث واليا على الشام نحو عشرين عاما ، وهو يدير ولايته بكفاية ، ومدافعا بقوة عن دولة الإسلام ضد الروم .

وهكذا صار معاوية من كبار رجال الإسلام ، وكتب بنو أمية هذه الصفحات فى تاريخ الجهاد . أما مروان فلم تفسح له سنه أن يشترك فى هذه الحروب ، ولكنه لما بلغ دور الشباب توجه فى عهد الخليفة عثمان للجهاد فى بعض الفتوح . وكان هو بعد ذلك العضد الأيمن للخليفة فى إدارة شئون الدولة الإسلامية . وفى هـــذا المنصب الهام وجده ابنه عبد الملك حين نشأ ، وأخذ يساعده فى بعض الأعمال . فكانت هذه هى المكانة التى وصل إليها بنو أمية فى الإسلام ، حين حدثت الفتنة وقتل الخليفة عثمان ، وظهر الخلاف الذى أحاطت به ظروف قاسية ، فانقسمت الأمة ونشبت الحرب الأهلية — كما

يحدث فى تواريخ كثير من الأمم . وأخيرا انتهى الموقف بأن بقى معاوية وتنازل له الحسن بن على ، فآلت إليه الخلافة . والتأمت كلمة الأمة فى عام الجماعة عام ٤١ هـ ، وعادت إلى الدولة وحدتها وقوتها . ومن ثم بدأ تاريخ الدولة الأموية .

* * *

وبعد كل ، من ذا كان معاوية ومروان وبنو أمية ؟ لم يكونوا إلا أبناء عمومة لعلى والحسن وبنى هاشم . وقد شرحنا فى الفصل السابق ما كان بين الهاشميين والأمويين من علاقة ، وأنهم جميعاً يلتقى نسبهم فى عبد مناف ، فهم أبناء عبد مناف . وقد بينا — فيما تقدم — ما كان من صداقة بين حرب وعبدالمطلب، وبين أبى سفيان والعباس. وإذا رجعنا إلى التاريخ القديم ، فإن الزعامة كانت أولا فى الجاهلية على قريش لهاشم بن عبد مناف ، ثم انتقلت السيادة إلى ابنه عبد المطلب ، وبقيت كذلك طوال حياته. لكن بعد أن توفى — وكان أولاده لا يزالون صغارا — آلت الرياسة إلى حرب ابن أمية ، فنجد حرب ابن أمية فى حرب الفجار — التى أشرنا إليها سالفاً — هو قائد قريش ، ثم خلفه ابنه أبو سفيان . ثم جاء الإسلام ، وشرف الله بنى هاشم بالنبوة — وهى الشرف الذى ما فوقه شرف . فكان مما منع بنى أمية من المبادرة إلى قبول الإسلام الغيرة والأنفة والكبرياء ، وأيضا الخوف على مصالحهم .

ثم ظهرت دولة الإسلام ، وأراد الله لهم الخير ، فهداهم إلى الدخول فى دينه. فأسلموا ، وفرح الرسول بإسلامهم . فحسن إسلامهم وأخلصوا فى الجهاد فى سبيله : أسلم فرع حرب ، وأسلم أيضا فرع أخيه أبى العاص . ومات

أبو سفيان مسلما . وكذلك الحكم . وصار معاوية صحابيا ، ونشأ مروان تابعيا . وكان مولد عبد الملك ونشأته كلها إسلامية . وجاهدوا فى الإسلام : فى ميادين الحرب ، أو السياسة ، أو العلم ، أو العبادة ، حتى أدركوا السابقين ، وحققوا لهم مجدا فى الإسلام . فانتقلوا من شرف فى الجاهلية إلى شرف فى الإسلام .

* * *

فهذه هى سيرة بنى أمية بإجمال . ولما انتهت إليهم الدولة بذلوا كل الجهد لإعلاء شأنها ، وفى الدفاع عن الإسلام وأهله ، وسهروا على حفظ وحدة الأمة — التى هى الأساس لبقائها وتقدمها — وكان هذا أمراً شاقا عسيرا، لا يقدر عليه إلا نوابغ الساسة والأقوياء من القادة . فأظهروا كفاية فى ذلك ، ونجحوا فى الجملة ـ إذا استثنينا العدد القليل الذين استثنيناهم . وواصل خلفاء بنى أمية الفتوحات كما كانت فى عهد الخلفاء الراشدين ، ورفعوا أعلام الإسلام فى كل الجهات ، حتى كادوا أن يستولوا على القسطنطينية . وبدأت فى عهدهم النهضة العلمية والأدبية ، التى أزهرت وآتت ثمارها فى العصر العباسى بعدهم . ووضعوا القواعد لنظام الدولة التى ورثها من جاء بعدهم ، فأمكن إذن استمرار الدولة .

فهذا هو موقف الدولة الأموية من الإسلام . فهى جزء لا يتجزأ من تاريخه ، وتاريخها استمرار لمجد الإسلام . وهو فى الجملة مفخرة للإسلام . وهناك من استثنيناهم . وهناك طبعاً للباقين أخطاؤهم ومآخذهم . وهل كانوا معصومين ؟ . أما مكانهم من العروبة : فكلهم من صميم العرب، من صفوتهم وأرفع أنسابهم . فهم من قريش ، وذؤابة قريش عبد مناف . وهم أبناء عمومة

بنى هاشم. فهم يمثلون مقدرة العرب وعبقريتهم : فى السياسة ، والدين والحرب، والإدارة والثقافة — كما سيمثلهم أيضاً بنو العباس من بنى هاشم . فالدولة الأموية جزء مجيد من تاريخ الإسلام والعرب معاً . ونذكر قول الشاعر قيس ابن الرقيات المعاصر لهم :

ما نقموا من بنى أميـة إلا أنهم يحلمون إن غضـبوا
وأنهم سادة الملوك ، فما تصـ ـلح إلا عليهم العـــرب

وحيث كان « عبد الملك » من أحسن خلفائهم وأقواهم ، وكان له فضل كبير فى إنقاذ الأمة من موقف خطير مضطرب ، إذ تمـكن من إعادة وحدتها وتشييد دولتها — فقد كان جديرا أن تدرس حياته . وقد تتبعنا سيرته وسيرة أسرته حتى تولى الخلافة . والآن نتابع هذه السيرة ، بعد أن آلت إليه مسئوليات الدولة ، لنرى كيف واجه المصاعب وتغلب عليها ، وكيف نجح فى قيادة السفينة حتى أوصلها إلى شاطىء الأمان .

الفصل الخامس

ثورة الشيعة فى العراق

توزيع القوى فى الدولة العربية الإسلامية :

لم تكن دولة « آل مروان » تتألف — كما ذكرنا ذلك من قبل — عندما تولى « عبد الملك » الخلافة فى رمضان عام ٦٥ هـ ، إلا من الشام ومصر فقط . أما بقية الوحدة الإسلامية العربية الشاملة التى كانت تكون دولة كبرى من قبل ، فكانت موزعة بين طوائف أو أحزاب مختلفة ، كل منها يكون دولة أو ما يشبهها .

وقد أوضحنا فى الفصول الأولى من الكتاب الخطوط الرئيسية لهذه الصورة . ويلزم أن نعيد الآن إلى الذاكرة هيئة هذا التقسيم :

* * *

فكانت هناك دولة ابن الزبير التى أقامها فى الحجاز ومركزها مكة — وذلك منذ وفاة يزيد بن معاوية فى ربيع الأول سنة ٦٤ هـ . وكان العراق : البصرة والكوفة — يدين له بالولاء ، وإن كان ولاء ظاهريا لم يتخذ جذورا عميقة . وكانت خراسان تعترف له بالولاء أيضا ، ولكنها كانت شبه مستقلة تحت حكم متغلب عليها ، اسمه عبد الله بن خازم السلمى ، من قيس . وولى

ابن الزبير عماله على المدينة والبصرة والكوفة والموصل، وغيرها . وبدت دولته أخطر منافس للدولة الأموية بالشام .

غير أن هذه الدولة أصيبت أولا بضربة نافذة ، حينما هزم الضحاك ابن قيس فى موقعة « مرج راهط » وقتل ومن معه — وكان يدعو إلى ابن الزبير فى دمشق ويريد أن يحول الشام إليه — فقضى إذن على هذا الأمل ثم تلتها ضربة أخرى ، حين خرج مروان ففتح مصر وضمها إلى الشام .

وأخذت دولة آل الزبير تناوش دولة الشام ، فوجه عبد الله أخاه «مصعبا» على رأس جيش ليغزو فلسطين ، فى آخر خلافة مروان ، فرده جيش من الشام على رأسه عمرو بن سعيد بن العاص ، فعاد أدراجه إلى الحجاز .

وعلى الفور ، أعد مروان جيشا قويا أمر عليه أحد قواد العرب واسمه « حبيش بن دلجة القينى » ووجهه إلى الحجاز . فسار هذا الجيش إلى مقصده فى أول خلافة عبد الملك ، فى رمضان سنة ٦٥ هـ .

وسنرى ماذا سيكون من مصير هذا الجيش ، حينما يصل إلى المدينة — فيما بعد . وهكذا بدأ عبد الملك عهده ، والحرب دائرة بينه وبين دولة ابن الزبير : بين الشام والحجاز .

* * *

وكانت هناك دولة ذات بأس للخوارج فى « الأهواز » — وهى إقليم من فارس إلى الجنوب من البصرة — وهؤلاء هم الخوارج « الأزارقة » ، الذين تبعوا مذهب نافع بن الأزرق الحنفى — وكان زعيمهم وقائدهم — ولكنه قتل فى جمادى الآخرة عام ٦٥ هـ ، فى قتال بينه وبين أهل البصرة . فولى الخوارج عليهم قائدا آخر ، اسمه « عبيد الله بن بشير بن الماحوز » . لكن

الخوارج كانوا يهددون العراق وابن الزبير ، ولم يكونوا يهددون عبد الملك مباشرة ، غير أنه سيضطر إلى الالتقاء بهم ومواجهة قوتهم حينما يتمكن بعد بضع سنين من ضم العراق ، فتكون مسألتهم إحدى المشاكل الكبرى فى دولته .

وفى شرق جزيرة العرب ، أو الخليج العربى ، تكونت دولة ثانية لخوارج على مذهب آخر . كان زعيمهم أولا يسمى : « أباطالوت » ، ثم بايعوا لنجدة بن عطية الحنفى ، وهو الذى لبث عدة سنين ، واتسعت الدولة فى أيامه حتى شملت اليمامة والبحرين وعمان وحضرموت ، وحتى اليمن . وسيكون عبد الملك مضطرا أيضاً — فى المستقبل — لمحاربة هذه الدولة ، بعد أن يكون هو حاكم العراق — ويكون زعيم الخوارج عندئذ هو « أبوفديك » ، الذى سيخلف « نجدة » .

* * *

ثم كانت هناك دولة الشيعة فى العراق ، وهى لم تكن دولة بكامل الصورة ، ولكنها كانت قوة منظمة كبيرة يخشى بأسها ، أو حزبا له زعماؤه وقواده وجيشه ، وقد أمكن أن يكون دولة بالفعل ، فيما بعد ، ولو لوقت قصير . وكان مركز حركة الشيعة فى « الكوفة » ، التى استولوا فيها — عمليا — على الأمور ، وكانت لها فروع فى «البصرة» و « المدائن » وغيرهما . وكان على رأس هذه الحركة عدد من أبطال العرب وأشرافهم .

* * *

وقد نضيف إلى هذه الصورة أيضاً ، لتكمل أجزاؤها ، دولة صغيرة ، ولكن كان لها شأنها ولها أثرها . وهى دولة « زفر بن الحارث الكلابى » التى أوجدها فى مدينة « قرقيسياء » فى شمال الفرات على حدود الجزيرة .

وكانت مدينة حصينة ذات قلعة وأبراج ، فأتى زفر بن الحارث واستولى عليها. وزفر هذا هو الذى كان أمير « قنسرين » فى شمال الشام ، وكان يؤيد الضحاك بن قيس وابن الزبير ، لأنه من قيس ، ثم فر بعد موقعة «مرج راهط» فأتى هذه المدينة وتحصن بها .

وقد بقيت هذه القوة شوكة فى جنب دولة الشام ، وكانت عقبة لا يستهان بها فى طريق جيوش الشام إلى العراق . وما زال زفر متمنعا وراء حصنه هذا بجيشه من قيس ، فلم يمكن عبد الملك أن يتغلب عليه إلا بعد عدة سنوات ، وكان ذلك بأن استنزله عن طريق الصلح . ولم يستطع عبد الملك أن يتوجه بقوته الكاملة إلى العراق فى المستقبل ، لينازل خصمه الرئيسى وهو مصعب ابن الزبير أخو عبد الله ، إلا بعد أن زالت هذه العقبة من طريقه ، وكان ذلك بعد سبع سنوات من تحصن « زفر » بتلك المدينة .

هبوب العاصفه على دولة الشام

كان هذا هو الوضع السياسى ، وهذا توزيع القوى داخل الدولة العربية الإسلامية ، فى أول عهد دولة « آل مروان » ، وعندما حمل عبد الملك مسئوليات الخلافة . فمن أى جهة كان سينبعث الخطر ، أو من أى أفق كانت ستهب العاصفة على هذه الدولة التى تكونت حديثا فى الشام ؟ .

إن الذى كان يتوقع أن يجىء الخطر من ناحية دولة آل الزبير فى الحجاز أو فى العراق ، لأنها كانت الدولة الأكبر : الأوسع حدودا ، والأكثر عددا ، أو من الخوارج لو أمكن أن يوحدوا جهودهم مع ابن الزبير . لكن الخطر لم يأت من قبل هاته القوى ، وإنما هبت العاصفة الشديدة التى هزت الدولة فى أول عهدها من قبل الشيعة ، الذين لم يكونوا دولة بعد : من مركزهم

بالعراق . بدأ هبوب العاصفة في عهد مروان ، ثم استمر في خلافة عبد الملك . ذلك لأن الشيعة كانوا أكثر الجماعات حماسا ، وكانوا أشد شعورا بالمرارة ، بل بالحنق على دولة بني أمية ، إذ كانت عدوهم الأول ، وهي التي كان لها معهم تاريخ طويل منذ الخلاف بين علي ومعاوية ، ثم ارتكبت تلك الجريمة التي لا تغتفر ، وهي قتل « الحسين » .

وقد أشرنا من قبل إلى أن مقتل الحسين كان فاجعة ، أدمت قلوب المسلمين وهزت مشاعرهم في كل الأنحاء ، وكان أثرها أعمق وأشد — بوجه أخص — في نفوس الشيعة . فهم كانوا أنصار أبيه ، وكانوا يعقدون على الحسين آمالهم ليقيم دولتهم ، وبه ينتصرون على خصومهم . وإلى جانب شعورهم بالحزن كان هناك شعور بألم ممض من وخز الضمير وأسف وحسرة ، لأنهم تخاذلوا عن الحسين ولم يهبوا لنصرته ، بعد أن دعوه واستخرجوه من موطنه ، فكأنهم كانوا السبب في قتله وفي كل ما حدث .

مقتل الحسين : من المسئول ؟

وحادث مقتل الحسين معروف . ويتلخص في أن أهل الكوفة — بعد أن تولى يزيد بن معاوية الخلافة في سنة ٦٠ هـ — بعثوا رسائل عديدة إلى الحسين يدعونه إلى القدوم إليهم ويستحثونه إلى الإسراع في ذلك ، حيث أخبروه أنهم مهدوا كل شيء لمبايعته ، وعند قدومه يهبون للاستيلاء على الكوفة . ولما كان الحسين قد امتنع عن مبايعة يزيد ، وتوجه إلى مكة معتزلا ، وكان يعتقد أن يزيد غير كفء لتولى منصب خلافة المسلمين ، وليس له الحق في ذلك ، إذ أن أهل البيت هم الأحق بخلافة الرسول ورعاية الأمة بعده — لما

كان الأمر كذلك ، وجاءته هذه الدعوات — فقد رأى أن هذا هو نداء الواجب ، ويتعين عليه أن ينهض لتلبيته .

فعزم على التوجه إلى الكوفة . ثم خرج إلى الكوفة مع أهل بيته وعدد قليل من أنصاره . وفى الطريق – ولما صار غير بعيد من الكوفة — جاءته الأخبار بأن الأمور تغيرت فيها . فقد عين واليا عليها « عبيد الله بن زياد » ، وقدم إليها من البصرة ، واستطاع أن يقبض على مسلم بن عقيل: ابن عم الحسين، الذى كان أرسله ليمهد له الأمر ، وقتله . وأعد جيشاً وأرسله ليقاتل الحسين أو يأسره .

* * *

ولما تيقن الحسين من خذلان أهل العراق له ، عرض على قائد الجيش القادم وابن زياد عروضاً ثلاثة ، كل منها كان يقدم حلا عادلا منصفاً للموقف : فإما أن يتركوه يرجع إلى مكة وبذلك تنتهى الأزمة ، وإما أن يدعوه يذهب إلى يزيد — وهو ابن عمه — فيضع يده فى يده ويفاوضه ، وإما أن يترك يتوجه إلى أحد ثغور المسلمين ليشترك معهم فى الجهاد . وكل حل من هذه كان عادلا ومعقولا . ولكن ابن زياد رفضها جميعا . وأصر على أن يسلم الحسين نفسه وينزل على حكمه ، أو يقاتلوه .

فهذا كان منتهى الجبرية والطغيان . وهو الغشم بعينه والخرق وسوء السياسة وعدم النظر للعواقب . فحتى إذا قال قائل : إن الحسين كان خارجاً على الدولة ، وأن الدولة كان لها الحق أن تدافع عن نفسها — وهى وجهة نظر ترد عليها اعتراضات قوية كثيرة ، منها أن هناك حق الثورة على الدول الظالمة أو غير الشرعية — حتى إذا قيل ذلك ، فلم يكن هناك مبرر على الإطلاق ، أو

داع من وجهة نظر الدولة نفسها ، لمقاتلة الحسين — وقد عرض عليهم أن يتخلى عن الأمر ويعود من حيث قدم ، أو يذهب إلى وجه آخر — لكنه الطغيان والجهل . وكيف كان يعقل أو يتصور أن الحسين : ابن الإمام على وابن بنت رسول الله عليه الصلاة والسلام ـ ينزل على حكم ابن زياد ، وهو ابن مرجانة ـ كما كان أهل البصرة يدعونه ـ وأبوه زياد بن سمية ، على ما هو معروف ؟ ! وأليس الحسين هو سبط « محمد » الرسول الذى أسس الدولة كلها ، التى أصبح لابن زياد وأبيه فيها شأن ، وصاروا يرتعون فيها ويمرحون ؟!

* * *

ثم من كانوا يريدون أن يقاتلوا ؟ لم يكن مع الحسين إلا سبعون أو أو ثمانون رجلا يدافعون عنه ، ومعه أهل بيته من نساء وأطفال صغار ، مما يدل على نيته السلمية ، على حين أن الجيش الذى يواجهه والذى أرسله ابن زياد بلغ أربعة آلاف ! فأى معركة غير متكافئة ! وأى معركة يظهر فيها الجبن والخسة والنذالة — وذلك من جانب جموع ابن زياد الكثيرة — مثل هذه المعركة .

لقد أظهر الحسين عليه السلام بطولة وشجاعة قلما سجل مثلها التاريخ . رفض أن يستسلم ، وقاتل ، على أن نتيجة المعركه كانت معروفة ، وأظهر استعداده للشهادة فى سبيل عقيدته ، واحتقاره لأمر الدنيا . وقتل ـ رحمه الله ـ شهيداً كريماً يعجب به معاصروه ويثنى عليه الأجيال . وظل قدوة ومثالا عالياً لمن يجاهد فى سبيل ما يعتقد أنه الحق ، ومن يتحدى الظالمين وقوتهم .

وقد استشهد به فيما بعد مصعب بن الزبير ، حين ظل يقاتل فى عدد قليل رافضاً الاستسلام ، فقال :

وإن الألى بالطف من آل هاشم تأسوا ، فسنوا للكرام التأسيا

والطف هو الموضع الذى قتل فيه الحسين ، قرب كربلاء .

كذلك ضرب الذين دافعوا عن الحسين وقاتلوا معه أعلى المثل : فى الشجاعة والنبل والوفاء وقوة — الإيمان — فعليهم رحمة الله . فهذه المعركة أو الملحمة التى خلدت بطولة الحسين وأنصاره فى التاريخ ، كانت فى الواقع أشبه بمذبحة أو مجزرة — نظراً لتفوق جنود ابن زياد فى العدد والعدة ، فوق كل نسبة معقولة . وقد تجلت فيها من جانب أولئك الجنود ـ وآمريهم ـ روح الوحشية والغلظة ، والاستهتار بسفك الدم .

* * *

فالمسئولية الأولى والإثم الأكبر فى هذه المذبحة تقع على عاتق ابن زياد ، لأنه مدبر هذا الأمر كله وهو الذى رفض عروض الحسين . والتاريخ يستنكر كل ما فعله ، ويذمه أشد الذم ، ويدمغه بالبغى والطغيان . ويشترك معه فى المسئولية قائد جيشه الذى قبل أن يقوم بهذه المهمة الدنيئة ، وهو عمرو ابن سعد بن أبى وقاص ، وبئس الخلف للسلف أو الإبن لأبيه . ثم الجنود الذين نفذوا أوامرهم فى غير ما رحمة ، وكان لهم مندوحة أن ينأوا عن ذلك ، أو ينضموا إلى جانب الحسين ـ كما فعل الحر بن يزيد التميمى القائد الأول الذى أرسله ابن زياد ، ثم رأى أن ابن زياد وصحبه قد اعتدوا وطغوا حين رفضوا عروض الحسين المنصفة ، فتحول إلى معسكر الحسين ، وقاتل معه حتى قتل شهيدا — رحمه الله . وكان على رأس الجنود المذكورين الذين باءوا بالإثم من يدعى : « شمر بن ذى الجوشن » و « سنان بن أنس النخعى » وغيرهما من جفاة الأعراب القساة ، غلاظ الأكباد .

أما مسئولية «يزيد» فما هى وما قدرها ؟ .

لو ثبت أنه كان أصدر أمره بقتل الحسين أو برفض العروض التى قدمها، لكان هو المسئول الأول قبل أى شخص ، لأنه هو رئيس الدولة ، والخليفة . ولكن ليس لدينا ما يثبت ذلك . والمراجع التاريخية لاتذكر ما يدل على ذلك بل الذى تذكره أنه حين علم بوقوع الحادث عبر عن عدم رضاه ثم تعددت تصريحاته باستنكار ما حدث ، ولوم ابن زياد على ما فعل .

فقد روى الطبرى وابن الأثير أنه لما جاء رسول ابن زياد إلى يزيد يبشره بالخبر — رويا حينئذ ما يلى : « فدمعت عينا يزيد ، وقال : قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين . لعن الله ابن سمية ! أما والله لو أنى صاحبه لعفوت عنه . فرحم الله الحسين » — قالا : « ولم يصله » — أى الرسول الذى جاء بالخبر — « بشيء » ! . وهذا التصريح يعبر عن حقيقة شعور يزيد . وكل تصريحاته أيدت ذلك . وقد أحسن استقبال بيت الحسين، فلما رآهم قال : « قبح الله ابن مرجانة ! لو كانت بينه وبينكم رحم أو قرابة ما فعل هذا » . ولما أدخل النساء دار يزيد « لم تبق من آل معاوية وآل يزيد امرأة إلا استقبلتهن تبكى وتنوح على الحسين . فأقاموا عليه المناحة ثلاثا . وكان يزيد لا يتغدى ولا يتعشى إلا دعا على ابن الحسين إليه » . ثم أمر بأن يوصل أهل البيت بكل إكرام إلى المدينة ، وظل يكرمهم و يبرهم بعد ذلك

* * *

نعم ، فهذه الأقوال والأفعال تدل على أن يزيد لم يأمر بقتل الحسين ، ولم يعلم بكل ما حدث إلا بعد وقوعه . والمعقول أن ابن زياد فعل كل ذلك عن تصرفه وبرأيه ، لأن الأمور جرت فى بضعة أيام ، ولم يكن هناك وقت لبعث

الرسل إلى الشام وعودتهم ، للاستشارة . والمتبع أن الوالى فى العراق أو الأقاليم النائية كان مفوضاً ، وكان يتصرف مستقلا لبعد المسافة . فكان ابن زياد بالكوفة ويزيد فى دمشق . والذى يستنتج أن ابن زياد أراد أن يبرهن ليزيد على شديد طاعته ، ويقدم له الدليل على تفانيه فى خدمته ، وبراعته فى حسم الموقف . ولكن خاب فأله ! فما كان يظن أنه فى الحقيقة إنما يقضى على يزيد بهذا ، ويهدم دولته .

على أن كل هذا لا يبرىء يزيد من المسئولية . فما جدوى الندم وإظهار الأسف بعد حدوث الكارثة ؟ إنه كان يجب على يزيد أن يصدر تعليمات واضحة إلى نائبه ابن زياد ويحذره من أن يقدم فى تصرفه إلى حد قتل الحسين كان يجب أن يكون بعيد النظر ويتوقع هذا ويقدر العواقب ، لكنه لم يفعل وترك الأمور تسير إلى أن انتهت بهذه الفاجعة . فهو يتحمل المسئولية على كل حال مع ابن زياد — باعتباره — أى الأول — هو رئيس الدولة المسئول عن كل شىء وعما يقع من نوابه . ولكنها ليست مسئولية الاشتراك فى الفعل أو الإيعاز به ، ولكن مسئولية ضعف الرأى وقصر النظر وسوء السياسة .

وهذا هو الذى عناه عبد الملك ابن مروان ، حين تحدث — فى وقت بعد هذا — ووصف يزيد بأنه « الخليفة المأفون » . والأفن هو ضعف الرأى وخطله . ولا يظن بيزيد غير هذا ؛ فإنه كان بينه وبين الحسين رحم ، وكان أبوه معاوية قد أوصاه عند موته ، فقال له : « وأما الحسين بن على فإن له رحما ماسة وحقاً عظيما ، وقرابة من محمد صلى الله عليه وسلم . ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه ، فإن قدرت عليه فاصفح عنه . فإنى لو أنى صاحبه عفوت عنه » .

وقد أخذ يزيد يتبين سوء عواقب ما حدث . فروى أنه كان يقول ـ وهو يذكر الحادث آسفا : « وما كان على لو احتملت الأذى ، وأنزلته معى فى دارى وحكمته فيما يريد ، وإن كان على فى ذلك وكف ووهن فى سلطانى حفظا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ورعاية لحقه وقرابته. لعن الله ابن مرجانة. فإنه أخرجه ، واضطره ، وقد كان سأله أن يخلى سبيله ويرجع فلم يفعل ، أو يضع يده فى يدى ، أو يلحق بثغر من ثغور المسلمين حتى يتوفاه الله عز وجل ، فلم يفعل . فأبى ذلك ورده عليه وقتله . فبغضنى بقتله إلى المسلمين ، وزرع لى فى قلوبهم العداوة ! فبغضنى البر والفاجر ، بما استعظم الناس من قتلى حسينا . مالى ولابن مرجانة ! لعنه الله ! » . وغضب عليه : أى على ابن زياد .

فهذا هو ملخص الحكم فى القضية ، وهو أن المسئول الأول — المسئولية الحقيقية المباشرة — هو « عبيد الله بن زياد ابن أبيه » الذى كان والى العراق فى ذلك الوقت . ولكن فعله حمل الدولة كلها مسئولية ما حدث ، وقطع ما بينها و بين الناس من صلة ، وزرع لها فى قلوب الناس العداوة والبغضاء وأثار حزنا لاعجا وثورة ملتهبة ، وحنقا على الدولة فى قلوب الشيعة خاصة .

الثورة الأولى

« حركة التوابين »

فصلنا القول عن هذه المأساة لأنها ظلت الحقيقة الكبرى التى تسيطر على الموقف السياسى فى العراق ، لعدة سنوات بعد ذلك . وكان لها صداها الداوى فى الحجاز أيضاً ، وسائر أنحاء العالم الإسلامى . لكن أثرها الأكبر والمباشر كان عند الشيعة .

وقد بينا من قبل أنه — فوق شعورهم بالحزن لقتل إمامهم ومن معه من

آل بيت على — كان هناك شعور بالحسرة والندم ، لأنهم تخاذلوا وقعدوا عن نصرة الحسين ، بعدما دعوه إليهم وأخرجوه، فكأنهم أسلموه إلى أعدائه وكانوا السبب فى قتله . فشعروا بفداحة خطيئتهم ، ورأوا أنه لا يكفر عن سيئتهم ولا يحقق توبتهم إلا أن يهبوا للطلب بدم الحسين والأخذ بثأره ، حتى يقتلوا من قتله أو يقتلوا هم فى سبيل ذلك .

فاجتمع الشيعة ونظموا صفوفهم وأخذوا ينشرون دعوتهم ، ويستعدون للحرب . وكان شعارهم الذى يتنادون به : « يالثارات الحسين ! » . فهؤلاء هم « التوابون » — كما عرفهم التاريخ — وهذه هى حركتهم . وقد انتخبوا لهم زعيما وقائداً يحاربون تحت لوائه سيداً جليلا من أبطال العرب، كانت له صحبة مع النبى (ص) وكان من أنصار على ، وهو « سليمان بن صرد الخزاعى » — كما كان بجانبه بطل آخر من أشراف مضر هو « المسيب بن نجبة الفزارى » وآخرون من أمثالهما .

كان بعض هؤلاء الشيعة يرون أن الواجب أن يستولوا أولا على « الكوفة » ويأخذوا بثأر الحسين من قاتليه فى المصر نفسه . لكن سليمان لم يكن يرى هذا الرأى ، وأخبرهم بأن هذا إنما يؤدى إلى حرب أهلية ، فيجدون أنفسهم يحاربون أهليهم وإخوانهم . وإنما عدوهم الأول هو الذى قرر الحرب ، وعبأ الجيش وأرسله لقتال الحسين — وهو عبيد الله بن زياد — ثم دولة بنى أمية بالشام ، التى كان ابن زياد يمثلها . فإذن يجب أن يوجهوا حربهم إلى هؤلاء .

وكان من نص كلام سليمان أن قال لهم : « لكن أنا ما أرى ذلك لكم إن الذى قتل صاحبكم وعبأ الجنود إليه ، وقال لا أمان له عندى دون أن يستسلم ، فأمضى فيه حكمى — هذا الفاسق ابن الفاسق : ابن مرجانة : عبيد الله

ابن زياد ، فسيروا إلى عدوكم على اسم الله ، فإن يظهركم الله عليه رجونا أن يكون من بعده أهون شوكة منه ، ورجونا أن يدين لكم من وراءكم من أهل مصركم فى عافية ، فتنظرون إلى كل من شرك فى دم الحسين فتقاتلونه . وإن تستشهدوا فإنما قاتلتم المحلين . وما عند الله خير للأبرار والصديقين » . فوافقوه جميعاً على هذا الرأى . واتفقوا على أن يسيروا بجيشهم لقتال ابن زياد ومن معه من أهل الشام .

* * *

كان عبيد الله بن زياد قد وصل إلى الشام ـــ كما أوضحنا من قبل ـــ واشترك فى المداولات السياسية ، وسعى جهده حتى قامت دولة بنى أمية ، ثانية فى الشام . ولما كان أول آماله ـــ أى ابن زياد ـــ أو أعظم ما يهمه ، هو أن يتمكن من العودة إلى العراق ليسترد ملكه ، فقد أعد هو ومروان جيشاً كبيراً ليسير به لفتح العراق .

وجه مروان هذا الجيش فى ربيع الآخر سنة ٦٥ هـ . وعين عليه قائدا ابن زياد ، وأمره أن يسير أولا لإخضاع الجزيرة ، ثم بعد ذلك يتوجه جنوبا لفتح العراق . فسار الجيش ، ومعه نخبة أبطال أهل الشام وقوادهم . ورأى مروان ـــ بعد أن انتهى من ذلك ـ أن يسير بجيش آخر أقل من الأول ، لأخذ مصر حيث كاتبه أهلها . وترك وراءه فى دمشق ابنه عبد الملك ، نائباً عنه ليصرف شئون الخلافة .

بهذا أصبحت الحرب مقررة بين أهل العراق وأهل الشام : بين قوة شعبية ليست دولة ، لا يخضعون لأمير أو خليفة ، ولكن ينادون باسم آل البيت عامة ، وبين دولة بنى أمية فى عهدها الجديد فى عهد مروان وعبد الملك . وهكذا

ـ كما تحدثنا من قبل ـ كانت أول عاصفة هبت على دولة آل مروان ليست آتية من جهة آل الزبير ، أو من قبل الخوارج ، ولكن قادمة من جهة الشيعة . وستظل العاصفة فى هبوبها عامين آخرين .

***

هذه العاصفة أو الثورة كانت — كما شرحنا — بسبب مقتل الحسين . لكن مروان وابنه عبد الملك وآل بيتهما كانوا فى الحقيقة أبرياء من دم الحسين ، ولم تكن لهم أية علاقة بمسألته — كما أوضحنا ذلك قبلا — فقد كانوا بعيدين عنها ، معزولين عن الحكم مقيمين فى المدينة . وروى عنهم من الأقوال ما يدل على استنكارهم للحادث . وكانت علاقاتهم بعلى والحسن والحسين وعلى بن الحسين ودية طيبة ، أو على الأقل محايدة . ولكن هكذا قدر لهم أن يتحملوا ، من الوجهة السياسية ، تبعة النتائج التى ترتبت على الحادث .

ذلك لأنهم ورثوا دولة بنى أمية فى عهدها السابق ،وورثوا معها أخطاءها ونتائج أعمالها . وكان مما ورثوا كراهية الناس للدولة ، بل حنقهم عليها — ولا سيما من الشيعة . فدولتهم كانت استمرار للدولة الأموية . ومقرها واحد، وجيشها واحد بالشام . وكانت أقوى علاقة وأوضح مظهر يربط الدولة الجديدة بالدولة السابقة ، هو عبيد الله ابن زياد نفسه ، ووجوده فى دولة الشام وهو لا يزال من أكبر عمدها وأظهر أقطابها . فما دام موجوداً ، فهو يثير الغضب ضد الدولة فى نفوس أهل العراق .

بين الشيعة وجيش الشام

وفى الموعد الذى حدده سليمان (أول ربيع الثانى عام ٦٥ هـ) تجمع الشيعة ،

وعسكروا بالنخيلة ظاهر الكوفة . ولما تهيأوا للمسير ، قام فيهم سليمان خطيباً فقال لهم : « أيها الناس : من كان إنما أخرجته إرادة وجه الله وثواب الآخرة، فذلك منا ونحن منه . ومن كان إنما يريد الدنيا وحرثها ، فو الله ما نأتى فيئا نستفيئه ولا غنيمة نغنمها . وما معنا من ذهب ولا فضة ولا خز ولا حرير وما هو إلا سيوفنا فى عواتقنا ورماحنا فى أكفنا . فمن كان غير هذا ينوى فلا يصحبنا .

فتنادى أصحابه من كل جانب : « إنا لا نطلب الدنيا وليس لها خرجنا إنما خرجنا نطلب التوبة والطلب بدم ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

* * *

وفى اليوم الخامس من الشهر ، سار سليمان بجيشه الذى بلغ نحو خمسة آلاف متوجها إلى الجزيرة . فبدأوا أولا بالذهاب إلى قبر الحسين ، فلما انتهوا إليه صاحوا صيحة واحدة وبكوا ، فما رئى يوم كان أكثر باكيا منه ! وظلوا يقولون : « اللهم ارحم حسينا : الشهيد ابن الشهيد ، المهدى ابن المهدى . اللهم إنا نشهدك أنا على دينهم وسبيلهم ، وأعداء قاتليهم وأولياء محبيهم » . فأقاموا عنده يوما وليلة ، ثم ودعوه واتجهوا إلى غايتهم، قاصدين الموصل والجزيرة .

وساروا حتى أتوا « قرقيسياء » وهم على تعبئة . فلما علم بهم « زفر » خرج إليهم وأكرمهم ، وقدم إليهم كل ما يحتاجون إليه من مؤن . ثم أخبرهم بقدوم جيش الشام ، عليه عبيد الله بن زياد ، وفيه الحصين بن نمير وقواد الشام ، وقد جاءوا فى عدد كثير « مثل الشوك والشجر » . وعرض

عليهم أن ينضموا إليه ، ليقاتلوا معـا جيش الشام حينما يقـدم عليهم . لـكن سليمان أبى ذلك، وخرج بجيشه حتى انتهى إلى موقع يقال له: «عين الوردة» .

* * *

وفى ذلك المـكان التقى الجيشان ، ودارت موقعة « عين الوردة » . وذلك فى الأسبوع الأخير من جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ . وكان التوابون فدائيين — كما عرفنا — قد نذروا أنفسهم لله ، وخرجوا لا يرجون شيئاً أفضـل من الشهادة فى سبيل قضيتهم ، أو يأخذوا بثأر الحسين من قاتليه . وكانوا كلهم فرساناً أبطالا . فمع قلة عددهم وعدتهم ظلوا يقاتلون قتال الأبطال كأنهم فى ملحمة ، واستطاعوا أن يحققوا فى أول المعركة نصراً كبيراً. ولـكن أهل الشام تكاثروا عليهم ، واستحر القتـل فى الجانبين . واستمرت المعركة عـدة أيام استشهد فيها « سليمان بن صرد » و « المسيب بن نجبة » ، وأكثر التوابين . وفى اليوم الأخير استطاع أحد قوادهم — وهو رفاعة بن شداد البجلى — أن ينسحب تحت ستار الظلام بمن بقى ، عائداً إلى الـكوفة .

انتصر جيش الشام ، ولـكن بعد أن أثخن بالقتل والجراح ، وأصيب بخسارة عاقته عن التقدم لفتح العراق . لـكن بقى ابن زياد حيـا . ووردت أخبار الانتصار على « عبد الملك » فى دمشق — وكان نائب الخليفة ، وممثل الدولة التى كان جيشها يحارب — فقام يبشر الناس بالخبر وخطب خطبـة سياسية ، ذكر فيها من قتل من زعماء الشيعة ووصفهم بأنهم كانوا « دعاة فتنة ورءوس ضلالة » . وهذا طبيعى ، فهم كانوا خصومه السياسيين وكانوا يريدون هدم دولته .

والناظر إلى أمر التـوابين لا يملك إلا أن يلاحظ أنه — مع الإعجاب

ببطولاتهم وفدائيتهم فى الآخر ، والنعى عليهم لتقاعدهم عن نصرة الحسين فى الأول — أنه من المستغرب أن يتركوا قتلة الحسين الحقيقيين — وهم أهل العراق — وراء ظهورهم فى الكوفة ، ويذهبوا لمقاتلة أهل الشام ، وهم أبرياء من دم الحسين — ما عدا رأس الضلال عبيد الله بن زياد — على أنه كان عندهم من قبل ، فلم يقتلوه . لكن وجهة النظر التى أخذوا بها أنهم اعتبروا الدولة نفسها هى المسئولة ، فيجب محاربتها — وبخاصة ما دام فيها عبيد الله بن زياد .

الثورة الثانيه

«حركة المختار»

لما عاد رفاعة إلى الكوفة بالفل الذى بقى معه من التوابين ، وصلته رسالة من زعيم شيعى آخر كان فى السجن إذ ذاك ، يقول فيها : « أما بعد ، فمرحبا بالعصبة الذين عظم الله لهم الأجر حين انصرفوا ، ورضى فعلهم حين قفلوا . أما ورب البيت ما خطا خاط منكم خطوة ولا رقى ربوة إلا كان ثواب الله له أعظم من ملك الدنيا . إن « سليمان » قد قضى ما عليه ، وتوفاه الله فجعل روحه مع أرواح الأنبياء والصديقين والشهداء . ولم يكن بصاحبكم الذى به تنصرون . إنى أنا الأمير المأمور ، والأمين المأمون ، وأمير الجيش وقاتل الجبارين ، والمنتقم من أعداء الدين ، والمقيد من الأوتار . فأعدوا واستعدوا ، وأبشروا واستبشروا. أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وإلى الطلب بدماء أهل البيت ، والدفع عن الضعفاء ، وجهاد المحلين، والسلام».

فمن هو هذا الزعيم ؟

هذا هو « المختار بن أبى عبيد الثقفى » . وهو ابن أبى عبيد أحد قواد

المسلمين فى عهد عمر فى فتح بلاد الفرس . وكان المختار من زعماء الشيعة بالكوفة واشترك فى دعوة الحسين ، فقبض عليه ابن زياد وزج به فى السجن ثم أطلق سراحه على أن يرحل من الكوفة ، فقدم إلى مكة وبقى حتى اشترك مع عبد الله بن الزبير فى الدفاع عنها وقتال جيش الشام . وقد سجل بطولة فى هذه المعارك . وكان فى أثناء مقامه بمكة على اتصال بمحمد بن على (وهو المعروف بابن الحنفية) — وكان هذا قد صار إمام الشيعة بعد مقتل أخيه الحسين . وعزم المختار على أن يقوم بالدعوة إلى محمد هذا وآل البيت ، ويخرج ليطالب بدم الحسين . وأراد أن يتحالف مع ابن الزبير ليستعين بقوته ونفوذه فى العراق ، ولكن ابن الزبير كان لا يريد أن يخدم قضية غيره .

* * *

فبعد موت يزيد وهرب ابن زياد ، عزم المختار على العودة إلى الكوفة . وكان يسأل الناس عن أحوال أهل العراق ، فسأل أحد القادمين : كيف حالهم ؟ فقال له : « هم كغنم ضل راعيها » ! فقال المختار : « أنا الذى أحسن رعايتها وأبلغ نهايتها » .

فقدم المختار إلى الكوفة فى منتصف رمضان عام ٦٤ هـ . وخطب الناس فقال لهم : « إن المهدى ابن الوصى — محمد بن على — بعثنى إليكم أمينا ووزيراً ، ومنتخباً وأميرا . وأمرنى بقتال الملحدين والطلب بدماء أهل بيته ، والدفع عن الضعفاء » . فانضم إليه عدد كبير من الشيعة وهم الذين كانوا تخلفوا عن سليمان ، وبعد أن خرج سليمان بجيشه فى وجهته التى ذكرناها إلى الجزيرة فى خلال عام ٦٥ ، خلا الجو للمختار ففكر فى بدء إعلان الثورة بالكوفة . ولكن علم بأمره الوالى من قبل ابن الزبير ، فسجنه . وكان الناس يزورونه فى السجن فيقول لهم : «أما ورب البحار، والنخيل والأشجار

والمهامه والقفار ، والملائكة الأبرار والمصطفين الأخيار لأقتلن كل جبار ، بكل لدن خطار ومهند بتار ، فى جموع من الأنصار . . حتى إذا أقمت عمود الدين ورأبت شعب صدع المسلمين ، وشفيت غليل صدور المؤمنين ، وأدركت بثأر النبيين ، لم يكبر على زوال الدنيا ، ولم أحفل بالموت إذا أتى ! » . ثم شفع فيه صهره عبد الله بن عمر فأفرج عنه .

بعد خروج المختار من السجن وعودة « التوابين » ، اجتمعت إليه كل الشيعة وجد هو فى إعداد الجند والسلاح ليبدأ ثورته فى الكوفة . وكان أهم ما قوى مركزه أنه نجح فى ضم أحد الزعماء إلى صفه، وهو «إبراهيم بن الأشتر» — وهو رئيس عشيرة ذات عز وعدد ، وبطل مغوار فى ميادين الوغى — وهو ابن مالك الأشتر الذى كان فى مقدمة أصحاب على . لكن إبراهيم لم يبايعه إلا بعد أن سلم إليه المختار كتابا على لسان محمد بن على يدعوه فيه إلى إجابة المختار، ومما جاء فى هذا الخطاب: « أما بعد ، فإنى قد بعثت إليكم وزيرى وأمينى، الذى ارتضيته لنفسى وأمرته بقتال عدوى والطلب بدماء أهل بيتى فانهض معهم بنفسك وعشيرتك » ؛ ووعده إذا نصر الدعوة بأن « تكون له أعنة الخيل وكل جيش غاز ، وكل مصر ومنبر وثغر ظهر عليه ، فيما بين الكوفة وأقصى بلاد الشام » .

* * *

وأخيراً ، اجتمع رأيهم على أن يخرجوا ويبدأوا ثورتهم فى ليلة الخميس الرابع عشر من ربيع الأول وذلك سنة ٦٦ هـ : (أى فى عهد خلافة عبد الملك ابن مروان) . ففى تلك الليلة خرجوا ؛ وبعد موقعة عنيفة فى سكك الكوفة ذات تقلبات ومفاجآت — وكان جنده ينادون بشعارهم : « ياثارات

الحسين ! » — ثم انتصر المختار على عامل ابن الزبير (عبدالله بن مطيع) الذى نفى بعد ذلك ، واستولى المختار على الكوفة .

فبذلك أقام دولة للشيعة . وكانت دولة جديدة ، تضم إلى الدول الأخرى المتنازعة فى العالم العربى الإسلامى . ودعا المختار الناس إلى البيعة ، فأقبلوا يبايعونه. وكانت صيغة البيعة : « نبايعك على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والطلب بدماء أهل البيت ، وجهاد المحلين والدفع عن الضعفاء ، وقتال من قاتلنا وسلم من سالمنا ! » . ولما كانت الكوفة عاصمة العراق كان معنى ذلك أن المختار والشيعة قد استولوا على العراق — ما عدا البصرة — فأرسل عماله إذن على النواحى : على الموصل وأرمينية وأذربيجان والمدائن ، وجهات السواد ، أى : العراق .

المختار والشام وثورة الكوفة

نجح المختار فى إقامة الدولة ، وبقى تحقيق غايته . وما غايته إلا أن يأخذ بثأر الحسين وينتقم من قاتليه ، ويشفى صدور شيعة أهل البيت . وكبير قاتلى الحسين وآله هو عبيد الله بن زياد . ثم يليه من نفذ أوامره واشترك فى قتل الحسين ، وهم كثير من أهل الكوفة . فما أن استقر له الأمر ، حتى شرع يعد الجيش ليرسله لمقاتلة ابن زياد وأهل الشام . وفى هذه الأثناء يتحين الفرصة أو الوقت المناسب ، لينقض على قتلة الحسين بالكوفة .

* * *

وكان عبد الملك ، وهو الخليفة فى دمشق — ومعه ابن زياد يشير عليه ويحرضه — قد عزما على فتح العراق فى ذلك الوقت .

فأرسل عبد الملك جيشا كبيرا تحت قيادة عبيد الله بن زياد ، لهذا الغرض. وكم كان ابن زياد يتوق ويتحرق شوقا للعودة إلى العراق . كذلك كانت دولة الشام تعلق أهمية كبيرة على المعركة القادمة ، وتنظر إليها على أنها ستكون موقعة حاسمة . فوصل الجيش — وعلى رأسه ابن زياد — إلى أرض الموصل . فتخلى له عامل المختار على الموصل عن المدينة ، وانسحب إلى تكريت . فاحتل ابن زياد الموصل ، وأخذ يستعد للزحف جنوبا .

فلما بلغت الأنباء المختار ، انتدب أحد كبار قواده ـ وهو يزيد بن أنس الأسدى — وانتخبوا ثلاثة آلاف من خيار الفرسان ، وتوجه الجيش لمقاتلة ابن زياد . فلما وصل الخبر ابن زياد ، قال : لأبعثن إلى كل ألف ألفين . فأرسل قائدين كبيرين من قواده ، مع كل منهما ثلاثة آلاف . ودارت الموقعة قرب الموصل ، فى يوم عرفه سنة ٦٦ هـ والأضحى بعده ، واشتد القتال . وانجلت المعركة عن قتل القائدين اللذين أرسلهما ابن زياد ، وانهزم أهل الشام ، وحوى جنود المختار من الشيعة عسكرهم ، وقتلوا فى أهل الشام قتلا ذريعا .

لكن يزيد بن أنس ، الذى قاد المعركة وهو مريض وسجل هذا النصر ، مات عقب الموقعة . ورأى القائد الذى خلفه أن ينسحب بالجند مكتفيا بالنصر الذى أحرزوه ، ويعود إلى الكوفة . فأرسل المختار جيشا آخر ، على رأسه كبير قواده «إبراهيم بن الأشتر» ، ليرد الجند العائد ولمواصلة القتال وملاقاة ابن زياد نفسه القادم مع جيشه الكبير . وكانت الأنباء وردت بأن هذا الجيش يبلغ ثمانين ألفا . فخرج إبراهيم وعسكر بظاهر الكوفة .

* * *

فانتهز أشراف الكوفة هذه الفرصة — وكانوا غير راضين عن المختار منذ البداية ، وزاد حنقهم عليه أنه يقرب الموالى من الفرس ومنهم معظم جنده ،

ويسوى بينهم وبين العرب فى العطاء — انتهزوا خروج جيش إبراهيم ، وقاموا بثورة فى الكوفة ضد المختار . فاستدعى المختار على الفور إبراهيم فعاد بجيشه . وجرت موقعة من أشد المواقع ، حتى كاد المختار أن يصاب بالهزيمة — لولا ثباته وسداد خطته، وشجاعة إبراهيم وقواده . فأخيرا استطاع أن يتغلب على الثائرين ويهزمهم ، حيث قتل منهم عدد كبير ، وفر الباقون إلى البصرة . وهناك انضموا إلى ابن الزبير وكانت هذه الموقعة فى أواخر ذى الحجة من تلك السنة : ٦٦ هـ

مصرع قتلة الحسين

فبعد أن استقر الأمر للمختار فى العراق ، نادى مناديه : « من أغلق بابه فهو آمن ، إلا من شرك فى دماء آل محمد صلى الله عليه وسلم » .

وأحضر إليه بعض الأسرى ، فقال : انظروا من شهد منهم قتل الحسين فأعلمونى . فقتل كل من شهد قتل الحسين . وتجرد المختار لكل من شرك فى دم آل البيت ، وقال : « مامن ديننا ترك قتلة الحسين أحياء فى الدنيا آمنين. بئس ناصر محمد أنا إذن فى الدنيا . أنا إذن الكذاب — كما أسمونى . وإنى أستعين بالله عليهم . فسموهم لى ثم اتبعوهم حتى تفنوهم . فإنى لا يسوغ لى الطعام ولا الشراب حتى أطهر الأرض منهم » !

وهكذا أخذوا يتتبعون قتلة الحسين . وكان لكل منهم قصة :

* * *

فأما عمرو بن الحجاج الزبيدى — وكان ممن شهد قتل الحسين — فركب راحلته وذهب فى طريق الصحراء ، فلم يسمع عنه خبر بعد ذلك .

وأما شمر بن ذى الجوشن — وكان أول من حمل على الحسين وحرض

الناس عليه حتى قتل -- فهرب . فأتبعه المختار غلاماً له ، فاستدرجه شمر وقتله . فطارده رجال المختار بالخيول ، حتى أدركوه مختبئاً فى قرية ، فقاتلهم فقتلوه . ثم رموا جثته للكلاب .

وبعث المختار فأحضر رجلين من قتلة الحسين كانا مختفيين فى القادسية -- هما مالك بن نسير البدى وعبد الله بن أسيد الجهنى -- فلما رآهما قال : ياأعداء الله ورسوله ، أين الحسين بن على ؟ أدوا إلىّ الحسين . قتلتم من أمرتم بالصلاة عليهم . فقالوا : رحمك الله بعثنا كارهين ، فامنن علينا واستبقنا . فقال لهم : هلا مننتم على الحسين : ابن بنت نبيكم ، فاستبقيتموه وسقيتموه . فأمر بهم فقتلوا .

وجىء بنفر غيرهم ، فلما رآهم قال : ياقتلة الصالحين ، وقتلة سيدشباب أهل الجنة ، قد أقاد الله منكم اليوم. لقد جاءكم الورس فى يوم نحس (وكانوا نهبوا من ورس كان مع الحسين) . وأمر بهم فأخرجوا إلى السوق وضربت رقابهم.

وهكذا ظل المختار يتتبع قتلة الحسين حتى قضى على أكثرهم . ثم قال : « لأقتلن غداً رجلا عظيم القدمين غائر العينين مشرف الحاجبين ، يسر مقتله المؤمنين والملائكة المقربين» -- يقصد « عمر بن سعد » ، الذى كان هو قائد الجيش الذى وجهه ابن زياد لمقاتلة الحسين ، وكان أول من رماه بالسهام . فبعث إليه المختار رئيس حرسه (وهو أبو عمرة كيسان) من الموالى ، فجاءه حتى دخل عليه وأراد أن يأسره ليحضره إلى الأمير ، فقاوم فضربه أبو عمرة بسيفه فقتله ، وأخذ رأسه فأحضره عند المختار . وكان حفص بن عمر هذا قد أحضر أيضاً إلى المختار ، فأمر به فقتل . وقال المختار : هذا بحسين ، وهذا بعلى ابن الحسين ، ولا سواء والله !

فبعد أن أتم مهمته، كتب إلى محمد بن على بمكة يقول : « إلى المهدى محمد ابن على من المختار بن أبى عبيد : أما بعد فإن الله بعثنى نقمة على أعدائكم فهم بين قتيل وأسير وطريد وشريد . فالحمد لله الذى قتل قاتليكم ونصر مؤازريكم . وقد بعثت إليك برأس عمر بن سعد وابنه . وقد قتلنا من شرك فى دم الحسين وأهل بيته كل من قدرنا عليه . ولن يعجز الله من بقى . فاكتب إلىّ أيها المهدى برأيك أتبعه ، والسلام » .

وكان المختار كأنما أرسله الله ليأخذ بثأر الحسين ، ومن قتل معه . وكان هو يشعر كأنه ملهم أن يفعل ذلك ، وتنبأ به . ومكنه الله من ذلك حتى نفذ غايته ، وجاءت الأحداث مصدقة لما تنبأ به .

لكن بقى رأس الإثم كله ، وهو كبير قاتلى الحسين — وهو عبيد الله بن زياد — فماذا سيكون شأنه ؟ . هذا ماسيتبين الآن .

معركة فاصلة ومصرع ابن زياد

ما كاد المختار يفرغ من أمر ثورة الكوفة ، حتى أرسل قائده إبراهيم ابن الأشتر — ثانية — مع جيشه إلى الشمال ، لملاقاة ابن زياد الذى وصل إلى أَرض الموصل ، ومقاتلته . فخرج إبراهيم بسبعة آلاف . وفى الطريق ضم إليه الجيش الذى كان مع يزيد الأسدى ، فأصبح جيشه حوالى عشرة آلاف . وكان عدد جيش ابن زياد أكبر من ذلك بكثير . وأسرع إبراهيم السير ، وخلَّف وراءه أرض العراق وأوغل فى أرض الموصل ، حتى بلغ نهر «الخازر» من فروع دجلة . وأقبل ابن زياد ، حتى نزل قريباً منهم على شاطىء هذا النهر ولم يضيع إبراهيم وقتاً فى المطاولة . فعزم على المبادرة إلى الهجوم .

* * *

وفى يوم الموقعة ، عبأ إبراهيم جيشه منذ الفجر ، ووضع الأمراء فى فى مواضعهم ، ودعا بفرس له فركبه ، ثم مر على أصحاب الرايات كلها ، فكلما مر على راية وقف عليها ، ثم خطب فى الجند قائلا :

« يا أنصار الدين ، وشيعة الحق ، وشرطة الله . هذا عبيد الله بن مرجانة : قاتل الحسين بن على ، ابن فاطمة بنت رسول الله — الذى حال بينه وبين بناته ونسائه وشيعته وبين ماء الفرات أن يشربوا منه ، وهم ينظرون إليه ، ومنعه أن يأتى ابن عمه فيصالحه ، ومنعه أن ينصرف إلى رحله وأهله ، ومنعه الذهاب فى الأرض العريضة ، حتى قتله وقتل أهل بيته . فوالله ما عمل فرعون بنجباء بنى إسرائيل ما عمل ابن مرجانة بأهل بيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا — قد جاءكم الله به وجاءه بكم فوالله إنى لأرجو أن لا يكون الله جمع بينكم فى هذا الموطن وبينه إلا ليشفى صدوركم بسفك دمه على أيديكم . فقد علم الله أنكم خرجتم غضباً لأهل بيت نبيكم » .

وهكذا سار فى الناس كلهم فى الميمنة والميسرة ، فرغبهم فى الجهاد وحرضهم على القتال . ثم رجع حتى نزل تحت رايته . وأمر الناس بالزحف .

موقعة نهر الخازر

فتقدم إليهم جيش ابن زياد ، وكان معه من كبار القواد الحصين بن نمير السكونى وقد جعله على ميمنته ، وعمير بن الحباب السلمى وقد جعله على ميسرته ، وشرحبيل بن ذى الكلاع الحميرى وقد جعله قائد الخيل . والتحم الجيشان . ودارت الموقعة بالقرب من نهر الخازر ، وهى من المواقع الهامة الحاسمة فى التاريخ .

فنى بدء القتال انتصر الحصين ، وهزم ميسرة إبراهيم . فأخذ الراية أحد أبطال جيش العراق ، واستقبل المنهزمين وقال لهم : إلىّ يا شرطة الله . فأقبل إليه أكثرهم . فقال : هـذا أميركم — يعنى ابن الأشتر — يقاتل ابن زياد إرجعوا بنا إليه . فرجعوا . وإذا إبراهيم كاشف رأسه ينادى : إلىّ شرطة الله أنا ابن الأشتر . إن خير فراركم كراركم ، ليس مسيئا من أعتب . فرجع إليـه أصحابه . ثم حملت ميمنة إبراهيم على ميسرة ابن زياد ، فلم تستطع التقـدم . فحمل إبراهيم على القلب وقال: اقصدوا هذا السواد الأعظم، فوالله لئن هزمناه لا نجفل من ترون — يمنة ويسرة — انجفال طير ذعرت . فحملوا عليهم وحمى القتال ، وثار الرهج فلا نسمع إلا وقع الحديد . وكان صوت الضرب به كصوت القصّارين . وكان إبراهيم يقول لصاحب رايته : تقدم وانغمس برايتك فيهم . فإذا تقدم شد إبراهيم بسيفه فلا يضرب رجلا إلا صرعه. وكرد إبراهيم الرجال بين يديه كأنهم الحملان .

وهـكذا اشتد القتال . فانهزم أصحاب ابن زياد واختلت صفوفهم وعمدوا إلى الفرار . فتبعهم أصحاب إبراهيم بن الأشتر . فـكان من غرق فى نهر الخازر ودجلة أكثر ممن قتلوا . واستولوا على معسكرهم وفيه من كل شيء . وهـكذا تم النصر الـكامل لجيش العراق : جيش الشيعة والمختار .

وقيل إنه كان من أسباب النصر أن عمير بن الحباب السلمى — صاحب ميسرة ابن زياد — انهزم بالناس ، على اتفاق بينه وبين ابن الأشتر ، وذلك انتقاما لقتلى قيس ، الذين قتلوا فى موقعة مرج راهط ، ونادى : يالثارات قيس . وكان عمير قيسيا .

* * *

وعندما انجلت الموقعة وأخذوا يتفقدون القتلى ، قال إبراهيم : يا قوم ، قتلت رجلا وجدت منه رائحة المسك ، شرّقت يداه وغرّبت رجلاه ، تحت

راية منفردة على شاطىء نهر خازر . فبحثوا عنه فإذا هو عبيد الله بن زياد قتيلا . ضربه فقده بنصفين : فذهبت رجلاه فى المشرق ، ويداه فى المغرب . فأخذوا رأسه . وأحرقت جثته بالنار . ووجد أنه قتل فى هـذه الموقعة الحصين بن نمير ، وشرحبيل بن ذى الـكلاع ، وغيرهم : من كبار قواد جيش الشام .

أقام إبراهيم بالموصل : وبعث برأس عبيد الله بن زياد إلى المختار ، ومعه رءوس قواده . فألقيت فى فناء القصر . فروى أن شوهد أن حية دقيقة جاءت ، فتخطت الرءوس ، حتى دخلت فى فم عبيد الله بن زياد ، ثم خرجت من منخره ، ودخلت فى منخره وخرجت من فيه — فعلت هذا مرارا . وبعث المختار برأس ابن زياد إلى المهدى محمد بن الحنفية ، وعلى بن الحسين ، وسائر بنى هاشم .

فلما رأى على بن الحسين — وكان بالمدينة — رأس عبيد الله هذا ، ترحم على الحسين ، وقال : سبحان الله ، ما اغتر بالله إلا من لم يعرف نقمته ! أتى عبيد الله برأس الحسين وهو يتغدى ، وأتينا برأس عبيد الله بن زياد ونحن نتغدى ! . ولم يبق من بنى هاشم أحد إلا قام بخطبة فى الثناء على المختار والدعاء له ، وجميل القول فيه . وكان ابن عباس يقول : أصاب بثأرنا ، وأدرك وغمنا ، وآثرنا ووصلنا . فـكان يظهر الجميل فيه للناس .

* * *

وقد حدثت موقعة الخازر فى يوم عاشوراء من المحرم سنة ٦٧ هـ ، فى يوم ذكرى مقتل الحسين . فقتل ابن زياد فى نفس اليوم . فسبحان المنتقم الجبار .

وقال أحد الشعراء فى مقتل ابن زياد :

إن المنايا إذا مازرن طاغية ... هتكن أستار حجاب وأبواب

أقول : بعداً وسحقاً عند مصرعه   لابن الخبيثة وابن الكودن الكابى
لا تقبل الأرض موتاهم إذا قبروا   وكيف تقبل رجسا بين أثواب !

وقال آخر ، يمدح إبراهيم بن الأشتر :

أتاكم غلام من عرانين مذحج   جرىء على الأعداء غير نكول
فيابن زياد بؤ بأعظم مالك   وذق حد ماضى الشفرتين صقيل
جزى الله خيراً شرطة الله ، إنهم   شفوا من عبيد الله أمس غليلى !

فالآن ، وقد حقق الشيعة هذا النصر الباهر ، وهزموا ابن زياد وقتلوه ، كما قتلوا أو شردوا كل من اشترك فى دم الحسين ، فقد أخذوا إذن بثأر آل البيت كاملا وثأرهم ، وبذلك يكونون قد أدركوا غايتهم وشفيت صدورهم ، وحان الوقت لكى تهدأ ثائرتهم . فمقتل ابن زياد وهزيمة جيشه بعد نهاية المأساة التى بدأت منذ حدث مقتل الحسين . وقد ظل العراق مضطربا طوال هذه المدة ، وكم جرت أحداث ووقعت حروب .

هزيمة أم نصر ؟

أما هزيمة « يوم الخازر » من وجهة نظر بنى أمية وعبد الملك ، فقد كانت كارثة بالنسبة لهم ! لقد تبدد جيش الشام ومزق شذر مذر ، وقتل كثير من كبار قواده . فلا بد أن الخبر حين وصل إلى عبد الملك بالشام كان وقعه أليما أشد الألم ، وشعر هو بالأسى أعمق الشعور . لكن الرواة أخبرونا أن عبد الملك كان يتمتع بصفة الجلد والصبر ، وكان من النوع الذى لا تزعزعه الشدائد . على أنه فى الحق لم يكن هو ولا أهل الشام يستحقون هذه الهزيمة ، إذ لم تكن لهم علاقة بمقتل الحسين الذى قتله أهل العراق . ولكن وجود ابن زياد بينهم وقائدا لجيشهم كان هو سبب هذه الكارثة التى حلت بهم .

وكان من أهم نتائج موقعة الخازر أن عبد الملك عرف أنه لا يستطيع أن يستولى على العراق ، لعهد غير قصير بعد ذلك . وفعلا تأخر فتح العراق خمس سنوات كاملة ، ولم يقم عبد الملك بمحاولته التالية إلا بعد مضى هذه المدة ، وبعد أن تغيرت الأحوال ، واتخذ هو إجراءات جديدة .

ومن جهة أخرى : كان ينبغى لعبد الملك أن يحمد نتيجة المعركة التى قتل فيها ابن زياد . فقد كانت نقمة ، لكنها فى الحقيقة تنطوى على نعمة . إذ أنه كان من صالحه وخيرا له أن يتخلص من ابن زياد — ذلك الرجل المكروه — ومن تاريخه البغيض . ولا شك أن عبد الملك ودولته بدآ عهدا جديداً بعد نهاية هذا الرجل . ولابد أن الناس بدأوا ينظرون إليه وإلى دولته نظرة جديدة ، خالية من شعور الضغن . لقد كان ظل ابن زياد الأسود يغطى شخصية عبد الملك . فحيث زال الظل ، أخذت الصورة تبدو وهى صورة الرجل العاقل الرشيد الحاكم القدير ، وعابد الأمس العارف بدين الله ، والبرىء من أوشاب العهد السابق . فكانت صورة لا تخلو من جاذبية . ويمكن أن تبعث الأمل لتحقيق وحدة الدولة المرجوة .

لكن هذه الوحدة ما كانت لتتم إلا بعد أحداث ومعارك وأهوال . فلنتجه الآن لنشهد هذه المعارك .

الفصل السادس

صراع بين القوى

هل يمكن أن تعيش الدولة العربية الإسلامية وهى متفرقة منقسمة الأجزاء ، وموزعة بين قوى مختلفة ينازع بعضها بعضها ؟ . لقد خلقت هذه الدولة واحدة . وصنعت تاريخها وهى واحدة . ورسالتها واحدة ، وعدوها واحد ـ فإذن يجب أن تعود واحدة ، ولا يمكن أن تعيش على غير ذلك . لم يكن أحد فى ذلك العصر ـ وهو العصر الذى نشب فيه النزاع بين عبدالملك بن مروان وعبدالله ابن الزبير على الخلافة ، وحدث الخلاف بين الفرق المتباينة ـ لم يكن أحد يعتقد غير هذا ، أو يتصور أنه يمكن غير هذا .

بيد أنه ما كان أحد ليستطيع أن يتنبأ كيف أو متى تتم هذه الوحدة ، وعلى يد من سيكون تحققها . إن كل شىء كان يتوقف على نتيجة المعارك التى كانت تدور رحاها فى أنحاء الدولة . ولم يكن هناك سبيل إلى الوحدة غير النضال فى ميدان الحرب . فقد اختلفت وتباعدت المذاهب السياسية ، التى كان يظن أنها تتفرع عن الدين .

وكانت الحرب تدور فى جبهات متعددة : فهناك الحرب أو الحروب بين الحجاز والشام . وهناك الحرب بين الشام والعراق ، وهناك الحرب بين العراق والحجاز . وهناك الصراع فى داخل العراق نفسه بين أحزابه المتعارضة . وهناك

النضال بينه وبين قوى منه خرجت عليه وشنت عليه أعنف الهجمات ، وهكذا فلكى تكون الصورة كاملة عن العصر وأحداثه السياسية ، ينبغى أن نلقى نظرة على كل من هذه الجبهات ، لنرى سير المعارك ، وكيف دار الصراع بين القوى المتباينة .

بين الحجاز والشام

فأما بين الحجاز والشام: فإنه فى نفس الوقت الذى كانت تدور فيه الحرب بين العراق والشام التى بينا أمرها فى الفصل السابق ، وذكرنا أنه حدثت فيها موقعتان هامتان هما : موقعة عين الوردة (جمادى الأولى ٦٥ هـ) ثم موقعة نهر الخازر (أوائل المحرم سنة ٦٧ هـ) وقد انتصر جيش الشام فى الموقعة الأولى ، وإن كان أصيب بخسارة كبيرة ، ولكنه دحر وتبدد فى الموقعة الثانية وقتل قائده عبيد الله ابن زياد — وكان هو المشرف على هذه المرحلة — نقول : فى نفس الوقت الذى كانت فيه هذه الحروب تجرى — وكانت فى الأكثر حربا بين الدولة الأموية والشيعة من أهل العراق — فى نفس الوقت، كانت الحرب تدور رحاها أيضاً بين الشام والحجاز ، وهى المعركة المباشرة بين عبد الملك ومنافسه على الخلافة ، وهو « عبد الله بن الزبير » : خصمه الرئيسى .

* * *

وكان عبد الله بن الزبير هو الذى بدأ المناوشة . فقبيل تولية عبدالملك — وكان أميراً على فلسطين فى ذلك الوقت — وجه ابن الزبير جيشاً على رأسه أخوه « مصعب » — كما أشرنا إلى ذلك من قبل — لغزو الشام من جهة

فلسطين ، فخرج عبد الملك ومعه عمرو بن سعيد بجيشهما ، فصداه وقاتلاه قبل أن يدخل فلسطين ، فعاد أدراجه إلى الحجاز .

وعلى الفور ، جهز مروان جيشا — أو كان هو أعده من قبل — عدده سبعة آلاف ، وولى قائداً عليه « حبيش بن دلجة القينى » ووجهه إلى الحجاز للاستيلاء على المدينة ثم مكة . لكن مروان توفى قبل أن يصل « حبيش » إلى مقصده . فحصلت الحرب بينه وبين قوات ابن الزبير فى عهد عبد الملك ، فى أول خلافته .

وقعة عند المدينة

سار الجيش دون أن يلقى مقاومة، حتى صار على مقربة من المدينة . وكان ابن الزبير — حين علم بقدومه — أرسل إلى عامله على البصرة وهو « الحارث بن أبى ربيعة » يستنجده، فوجه إليه جيشاً نحو ثلاثة آلاف . وفى نفس الوقت أرسل جيشا من عنده ليشتبك مع العدو ، حتى تصل الجيوش الأخرى . لكن هذا الجيش هزم وبدد ، ودخل حبيش بن دلجة « المدينة » — وكان ذلك فى رمضان سنة ٦٥ هـ — فنزل دار مروان . وخطب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فذم أهل المدينة ، لأنهم — كما قال — خذلوا أمير المؤمنين عثمان ، واستهان بهم ، وبالجملة أظهر الشدة نحوهم .

ثم بلغه خبر مقدم جيش البصرة ، وعلى رأسه « الحنتف ابن السجف التميمى » . فأشار على « حبيش » أصحابه أن لا ينتظره ليقاتله فى المدينة، لأن أهلها سيثورون عليه، وأن الأولى أن يخرج ليقابله قبل أن يدخل المدينة. فخرج

بأكثر جيشه ، والتقى الجيشان فى مكان إسمه « الرَّبَـذَة » من ضواحى المدينة فهذه الموقعة تسمى إذن : « الربذة » .

وفى أول الموقعـة ، كان النصر من نصيب الشاميين على أهل البصرة . لـكن « الحنتف » كان قد أعـد كمينـاً نحو ألف فارس ، فى منخفض من الأرض . ففى أثناء القتـال فاجأوا أهل الشام ، فلم يشعر أولاء إلا والقوم من ورائهم ، وقد أحيط بهم . فانهزم أصحاب حبيش بن دلجة عند حوافر الخيل وتفرق أصحابه هاربين إلى الشام . وفى رواية أن سبب قتل حبيش بن دلجة يوم « الربذة » أن يزيد بن سياه الأسوارى رماه بسهم فقتـله . فلما دخل المنتصرون المدينة — وكان على يزيد هذا ثياب بيض — اسودت ثيابه من كثرة ما مسح الناس به وصبوا عليه من الطيب !

واستقبل أهل المدينة قائد جيش البصرة عنـد دخوله المـدينة بالأسارى أكبر استقبال ، وفرحوا به ، وجعل قوم يقولون : ليس هو الحنتف ، إنما هو الحتف . ذلك لأن أهل المدينة اعتبروا هذه الموقعة أخذاً بثأرهم مما جرى لهم فى « موقعة الحرة » التى حدثت قبل نحو عامين .

ومما ذكره الرواة هنا أنه كان بين الهاربين العائدين إلى الشام يوسف ابن الحـكم الثقفى : أبو الحجـاج ، وابنه الحجاج — وكان هذا فى شبابه — فأردف يوسف ابنه خلفه على فرسه . وكان الحجاج — فيما بعـد — يقول : ما أقبح الهزيمة ! لقد كنت ورجل آخر — يعنى أباه — فى جيش حبيش ابن دلجـــة فانهزمنا، فركضنا ثلاثين ميلا ، وإنه ليخيل إلينا أن رماح القوم فى أكتافنا !

* * *

وهكذا، وصل خبر الهزيمة إلى عبد الملك — وكان ذلك فى مطلع خلافته فلا بد أن شعر بغير قليل من الحزن . وكان هذا الحادث حريا أن يلقى فى نفسه شعوراً من اليأس . لكن عبد الملك كان فى سن ناضجة ، وكان كبير الثقة فى نفسه ، وكما عرف — بعد أن اختبرته الحوادث — كان ثبتاً لا تزعزعه الشدائد .

وفى العام التالى ، أرسل عبد الملك جيشاً آخر وجهته الحجاز أيضاً. وجعل قيادته لابن عمه « عبد الملك بن الحارث بن الحكم » ، فوصل هذا الجيش إلى « وادى القرى » : فى شمال الحجاز . لكن لم تذكر الأخبار كم كان عدد هذا الجيش ، كما لم يرد أنه تقدم أكثر من ذلك . فالذى يظهر أن عبد الملك لم يقصد من إرسال هذا الجيش أن يكون غزوا حقيقيا لقلب البلاد ، ولكنه كان أشبه بمناورة حربية ، بقصد الإرهاب والتخويف أو إظهار القوة .

بين المختار وابن الزبير

لكن قدوم هذا الجيش كان مناسبة لاشتباك عنيف وقع بين قوة المختار، الذى كان قد استولى على العراق حينئذ ، وبين قوة ابن الزبير .

ذلك أن المختار فكر أن ينتهز هذه الفرصة لإرسال قوة له إلى الحجاز ، لعله يستطيع الاستيلاء على « المدينة » ، ثم بعد ذلك يمكن أن يوحد جهوده مع ابن الزبير، أو يحاصره فى مكة . فكتب إلى ابن الزبير يقول له : « إن أحببت أن أمدك بجيش أمددتك » ؟ فكتب له ابن الزبير : « إن كنت على طاعتى فلست أكره أن تبعث الجيش إلى بلادى ، وتبايع لى الناس قبلك ؛ فعجل بإنفاد الجيش ، ومرهم فليسيروا إلى من بوادى القرى من جند ابن مروان

فليقاتلوهم . فدعا المختار قائداً اسمه « شرحبيل بن ورس الهمدانى » وبعث معه جيشاً عـدده ثلاثة آلاف — لكن أكثرهم من الموالى ، وليس فيهم من العرب غـير سبعمائة — وأمر القائد أن يسير حتى يدخل « المـدينة » ، ثم ينتظر أمره .

وفى نفس الوقت أرسل ابن الزبير جيشاً من مكة ، عدده نحو ألفين — عدا من ينضم إليه فى الطريق من الأعراب — جعله تحت قيادة « عباس بن سهل بن سعد : من أبناء الأنصار ، وأوصاه أن يختبر أولا حقيقة نوايا قائد المختار ومن بعثه . فلما تقابل الجيشان فى مكان إسمه « الرقيم » ،طلب عباس من شرحبيل أن يتوجه معه بجيشه إلى وادى القرى ،لمحاربة جيش عبدالملك . فرفض شرحبيل ـ وفقا لما أوصاه به المختار أن لا يتوقف حتى يدخل « المدينة » ـ فعلم عباس أنه غـير مخلص لابن الزبير ، وأن الأمر مخادعة .

فتظاهر أنه منصرف إلى وادى القرى ، وخادع قوم المختار فبعث إليهم بالهدايا . وانتظر حتى تركوا تعبئتهم ، ثم أخذهم على غرة ففاجأهم بالهجوم . فنادى ابن ورس فى أصحابه فلم يجتمع إليه مائة رجل ، ولم يلبثوا حتى قتـلوا . ورفع عباس راية أمان لأصحاب ابن ورس فأتوها إلا نحو ثلاثمائة ، فتتبع هؤلاء وأدركهم وقتل منهم نحو مائة، ثم خلى الباقين فرجعوا ومات أكثرهم فى الطريق . وهكـذا تبـدد هذا الجيش المختـار .

فلما بلغه أمرهم ، قام خطيبا فقال: « ألا إن الفجار الأشرار قتلوا الأبرار الأخيار . ألا إنه كان أمراً مأتياً ، وقضاء مقضياً » . وكتب إلى المهدى «محمد بن الحنفية » يعرض عليه أن يرسل جيشاً آخر أكبر من الأول ، على أن يعلن « المهدى » لأهل المدينة تأييده له :أى المختار . فلم يوافق المهدى على ذلك ،

لأنه كان يميل إلى « التقية » : أى عدم إظهار نواياه ، ويؤثر الجهاد فى السر.

* * *

وعاد جيش الشام ـ الذى سبق أن أشرنا إليه ـ من « وادى القرى » فى شمال الحجاز ، دون أن يصل إلى نتيجة .

وفى نفس الوقت ، كان ابن زياد يقوم بحملاته من الشام ضد العراق . وكان يقابله الشيعة : التوابون أولا ، ثم المختار . وانتهت هذه المرحلة بقتل ابن زياد وهزيمة جيشه ، فى أوائل سنة ٦٧ — كما فصلنا من قبل .

موقف عبد الملك

ولا بد أن عبد الملك استنتج من هذه التجارب — وكانت فى الأكثر تجارب مرة — أنه لا يستطيع لوقت ما ، والأحوال كما هى ، أن يفتح العراق أو الحجاز . فلا مناص من أن يكتفى بالدفاع عن نفسه وعن مملكته التى تحت حكمه ، والأمر مستقر له فيها — وهى الشام ، ومصر وما يتبعها من افريقية — ويعتمد فى هذه الأثناء على الوقت ، لتمهيد الطريق وإزالة العراقيل وتهيئة الوسائل وذلك بما يوجد فيه من أحداث وما يغير من الأحوال . ولا بد أنه انصرف لتدعيم قواعد حكمه فى بلاده ، بتقويم مواردها المالية ، وتنظيم شئونها الداخلية ، وإعداد جيش قوى يستطيع به أن يجالد أعداءه، وأن يعيد عليهم الكرة — حين يجىء الوقت المناسب — ضامنا النجاح والظفر هذه المرة .

* * *

والواقع أن عبد الملك ، لو عرف ، لتبين أن زوال ابن زياد من دولته كان بدء الخير والنصر له . فقد كان قتله إفناء لماض بغيض ، كان دائما يلقى ظلا من

الريب على عبد الملك ودولته ، ويثير فى نفوس الناس الكراهية له والنفور منه . أما الآن فقد انقطعت صلة عبد الملك بهذا الماضى البغيض . ولما ذاق الناس من خصومة ألواناً من الإساءة ، وقاسوا من عيوب وأخطاء المتغلبين عليهم، وسئموا من كثرة الصراع والنزاع ، وبدأوا يبحثون عن الاستقرار — بدا لهم عبد الملك وكأنه ليس أقل من غيره ، بل إن الاستقرار والنظام فى حكمه ، المتجلى فى دولته بالشام ومصر ، يدعو للاعتراف له — عند المقارنة بغيره — أنه يكون أفضل منهم . وهذا الميل الطيب نحو عبد الملك سينمو أيضاً بمرور الوقت . وكان أهم ما يخدم عبد الملك من الانتظار أن أعداءه سيتركون يقاتل بعضهم بعضاً ، ويضعف بعضهم بعضاً ، ولا يكون الغالب منهم بأحسن حالا من المهزوم .

فهكذا ظل أعداؤه يتقاتلون . فكان حتما أن ينشب الصراع بين دولة آل الزبير والمختار ، الذى أقام دولة على أنقاض دولتهم فى الكوفة والعراق والجزيرة . وكان الصراع دائراً منذ بدء قيام دولة آل الزبير : بينهم وبين الخوارج الثائرين الذين أقاموا لهم دولة فى الأهواز وبلاد فارس . كما كان هناك نزاع فى داخل هذه الأقطار ، وفى مواضع أخرى .

ثم جاءت المعركة الكبرى بين ابن الزبير والمختار ، حين عين ابن الزبير أخاه « مصعباً » والياً على البصرة . فجاء مصعب وهو ينوى أن يدخل فى موقعة فاصلة مع المختار والشيعة ، وساعدته الأحوال فى العراق على ذلك .

مصعب فى العراق

ونهاية أمر المختار

فى أوائل سنة ٦٧ ، عين عبد الله بن الزبير أخاه مصعباً والياً على العراق كله . فقدم مصعب من مكة فى جمع له إلى البصرة، حتى أناخ على باب المسجد .

وكان متلثما، فكشف اللثام عن وجهه فعرفه الناس، وقالوا: مصعب بن الزبير: أمير، أمير. فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «بسم الله الرحمن الرحيم. طسم. تلك آيات الكتاب المبين. نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون. إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً، يستضعف طائفة منهم: يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، إنه كان من المفسدين» — وأشار بيده نحو الشام — «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين» - وأشار بيده نحو الحجاز - «ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كان يحذرون» — وأشار بيده نحو الكوفة — ثم نزل.

* * *

بعد أن وصل مصعب حضر إليه أشراف الكوفة، الذين قاموا بثورة ضد المختار فى آخر العام السابق ٦٦ هـ - وهى التى أشرنا إليها من قبل - وكان زعيمهم الشيخ الكبير شبث بن ربعى التميمى. فاتفقوا معه على التوجه لمحاربة المختار. وكان أساس شكواهم أن المختار قرب الموالى وحملهم على الخيل وحارب بهم العرب، وأجزل لهم العطاء. وقد استاء معهم أشراف البصرة أيضاً لذلك، فانضموا إليهم. واجتمع الرأى على القيام بحملة مشتركة، لمحاربة المختار والقضاء عليه وعلى مواليه.

فسار مصعب بجيشه ومعه كبار القواد.. وعبأ المختار أصحابه وقواده من الشيعة، لكن قائده الكبير «إبراهيم بن الأشتر» كان غائباً على ولايته فى الموصل، فلم يحضر القتال. فالتقى الجيشان فى «المذار» فى جنوب العراق، فحدثت موقعة شديدة صبر فيها الأبطال من الجانبين، ثم انتهت بقتل قواد المختار وانهزام جيشه، حيث أبيد رجالة الجيش جميعهم — وكان أكثرهم من

الموالى — فلم ينج من ذلك الجيش إلا طائفة من أصحاب الخيل . فخرج المختار وقاد المعركة بنفسه، وجرت موقعة أشد عنفاً من الأولى. ولكن أخيراً، حاقت الهزيمة بجند المختار ، وتفرق عنه أصحابه ، فذهب إلى القصر فى الكوفة . وكان يخرج فى جماعات قليلة ، فيقاتل بكل شجاعة ، وهو مصمم على الموت ، ولا يقبل أن ينزل على حكم أعدائه — حتى طال الحصار ومنعوا عنهم المادة والماء . وأخيراً حنط نفسه ، وخرج فى تسعة عشر رجلا ، وظل يضارب بسيفه حتى قتل ؛ وذلك فى رمضان سنة ٦٧ . بذلك انتهى أمر المختار ودالت دولته : دولة الشيعة التى لم تعمر فى الكوفة أكثر من عام ونصف عام — ولكن بعد أن حققت غايتها وهى الانتقام من قتلة الحسين ، ورأسهم ابن زياد ، الذى قتل فى الخازر — كما بيناه فيما مضى .

* * *

لقد أدى المختار مهمته . وصدق إذ قال ، حين قدم إلى العراق أنه « إذا أدرك بثأر النبيين ، وشفى صدور المؤمنين ، لم يحفل بالموت إذا أتى » . فهو بعد أن شفى صدور الشيعة وغيرهم ، لم يحفل — حقاً — بالموت . ومات كريماً ، بطلا شجاعاً .

ويسيء بعض الناس تصوير شخصية المختار ، فيعرضه على أنه كان رجلا طموحاً يسعى لتحقيق المجد لنفسه ، منتهزاً فرص السياسة ، مستغلا دعوة الشيعة وغيرها ، ويصفه بعضهم بالكذاب . ولا غرو ، فالمختار كان له أعداء كثيرون فى حياته ، فهم يحملون عليه ويذمونه . ويتبع الناس فى ذكر سيرته ما قال أعداؤه فيه . لكن دراسة تاريخ المختار وأعماله — على النحو الذى فعلنا — تبين تماماً صدق عقيدته ، وقوة شخصيته ، وسلامة هدفه . فهو

كان مخلصاً لمبدئه الذى عاش ومات من أجله — وهو نصرة آل البيت والأخذ بثأرهم؛ وكان داعية لمحمد بن على الذى لقب بالمهدى ، وكان على اتصال به ويطيع أوامره . غير أن هذا كان يميل إلى المدارة وداهية فى السياسة، ولا يريد الظهور بنفسه. فالمختار إذن أحد زعماء الشيعة. وهو شخصية عربية مليئة بالحيوية ، تثير الإعجاب . وقد سئل عنه الحجاج مرة ، فقال : « لله دره ! أى رجل — ديناً ، ومسعر حرب ، ومقارع أعداء — كان » .

وروى أن ابن عباس ذكر عنده المختار ، فقال: صلى عليه الكرام الكاتبون . ولما قتل المختار ، قال ابن الزبير لعبد الله بن عباس : ألم يبلغك قتل الكذاب ؟ قال : ومن الكذاب ؟ قال : ابن أبى عبيد . قال قد بلغنى قتل المختار . قال : كأنك أنكرت تسميته كذاباً ، ومتوجع له . قال : ذاك رجل قتل قتلتنا ، وطلب ثأرنا ، وشفى غليل صدورنا . فما يكون جزاؤه منا الشتم والشماتة . وقال عروة بن الزبير لابن عباس : قد قتل الكذاب المختار ، وهذا رأسه . فقال ابن عباس : قد بقيت لكم عقبة كئود، فإن صعدتموها فأنتم أنتم ، وإلا فلا (يعنى : عبد الملك بن مروان) .

* * *

وكان ابن عباس ومحمد بن على (المعروف بابن الحنفية) قد امتنعا عن مبايعة ابن الزبير ، وقالا : لا نبايع حتى تجتمع الأمة . فلما ظهر المختار وغاب على الكوفة داعياً إلى محمد هذا (الذى لقب بالمهدى) اشتد ابن الزبير على محمد وحصره فى زمزم وهدده . فأرسل محمد إلى المختار يستنجد به. فأرسل إليه المختار جيشاً عدده أربعة آلاف ، فخلصوا محمد بن الحنفية وذهبوا معه إلى الطائف . فأقاموا مع ابن عباس . ثم توفى ابن عباس فى سنة ٦٨ هـ . فبعد قتل المختار

وموت ابن عباس اشتد ابن الزبير على محمد ثانية وألح عليه في البيعة . فظل على امتناعه ، وكان معه هذا الجيش دائماً يحرسه . ثم اضطر أن يخرج ليكون في جوار عبد الملك ، فسار إلى حدود الشام . ثم عاد إلى الطائف ، فبقي بها حتى قدم الحجاج في عام ٧٣ هـ لمقاتلة ابن الزبير وانتهى أمر الأخير ، وسيبايع حينئذ لعبد الملك — كما سنبينه فيما بعد . ومحمد هذا هو زعيم الشيعة التي سميت « الكيسانية » — نسبة إلى كيسان مولاه ، أو إلى كيسان أبي عمرة مولى بجيلة الذي كان رئيس حرس أو شرطة المختار بالكوفة — وقد مر ذكره في الأحداث .

وبعد مقتل المختار أرسل مصعب إلى « إبراهيم بن الأشتر » — وكان والي الموصل للمختار — يدعوه إلى طاعته ، ويقول له . « إن أنت أجبتني فلك الشام وما غلبت عليه من أرض المغرب » ـ كما كتب إليه عبد الملك من الشام أيضاً يدعوه إلى طاعته ، ويقول له : « إن أنت أجبتني فلك العراق » . فقال « ابن الأشتر » لأصحابه : لو لم أكن أصبت عبيد الله بن زياد ورؤساء الشام لتبعت عبد الملك . ولكن لا أخالف عشيرتي . فكتب إلى مصعب بالطاعة وأقبل إليه ، وأصبح من رجال دولة آل الزبير .

* * *

وبعد أن استقر الأمر لمصعب في العراق ارتكب أخطاء جسيمة ، كانت لها نتائج سياسية ضارة ، وأساءت إلى سمعته .

ففي مقدمة ذلك أنه أخذ الأسارى الذين وقعوا في يده من جند المختار — وكانوا طلبوا الأمان ونزلوا على حكمه — فبعد أن استعطفوه وكاد يرق لهم، عاد فأصغى إلى قول أشراف الكوفة الذين كانوا أعداءهم ويحملون الضغن عليهم ، فأمر بقتل الأسارى .

روى المؤرخون أنه كان مما قالوا له : « يا بن الزبير : من عفا عفا الله عنه وزاده عزا ، ومن عاقب لم يأمن القصاص ! نحن أهل قبلتكم وملتكم ولسنا تركا ولا ديلماً ، وإنما اختلفنا مع إخواننا من أهل مصرنا ، كما اختلف أهل البصرة واقتتلوا ثم اجتمعوا ، وكما افترق أهل الشام ثم اصطلحوا . وقد ملكتم فأسجحوا ، وقد قدرتم فاعفوا » . وقال بعضهم : « يا بن الزبير : لا تقتلنا ، واجعلنا على مقدمتك لأهل الشام غداً ، فما بكم عنا غنى » . لكنه بعد أن كاد يخلى سبيلهم نزل عند رأى أشراف الكوفة الذين كانوا يريدون الانتقام ،وقالوا له : « تخلى سبيلهم ودماؤنا ترقرق فى أجوافهم ؟ ! اخترناأو اخترهم » .فخضع لرأى هؤلاء وأمر بقتل الأسرى جميعاً - وكان عددهم سبعمائة من العرب وستة آلاف من الموالى . وكان هذا خطأ جسيما أثار شعورا من السخط، وكان عملا من أعمال القسوة ينافى روح الإسلام ولا يتفق مع مبادئه.

روى أن مصعباً لقى عبد الله بن عمر بعد ذلك فسلم عليه ، وقال : أنا ابن أخيك مصعب . فقال له ابن عمر : أنت القاتل سبعة آلاف من أهل القبلة فى غداة واحدة !! فقال مصعب : إنهم كانوا كفرة سحرة! فقال لهابن عمر : والله لو قتلت عدتهم غنما من تراث أبيك لكان ذلك سرفا » ! !

ومن الأخطاء أيضاً التى أثارت شعور الناس أنه دعا أم ثابت بنت سمرة زوجة المختار ، فسألها ما تقول فى زوجها ، فقالت : نقول فيه بقولك أنت . فأطلق سراحها . ثم دعا بعمرة بنت النعمان بن بشير الأنصارى -- زوجته الأخرى — فسألها ، فقالت : رحمه الله ، كان عبدا صالحاً . فأرسلها إلى السجن ، ثم كتب إلى أخيه يقول : إنها تزعم أن زوجها نبى . فكتب إليه بقتلها فقتلت !

وفى هذا قال الشاعر عمر بن أبى ربيعة :

إن من أعجب العجائب عندى قتـل بيضاء حرة عطبول

قتلت هـكذا على غـير جرم إن لله درها من قتيـل

كتب القتـل والقتـال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

فهذه الأخطاء وغيرها تلقى ضوءاً على شخصية « مصعب » — الذى سيكون خصما لعبد الملك . وهى تدل على أنه شخص يفقد صفة السياسة ، ولا يحسن تقدير نتائج أعماله ، ولا ينظر للعواقب .

الخوارج أو الثائرون المتطرفون

هذا هو الحزب الثالث فى العراق .

فالحزب الأول هو حزب آل الزبـير ، والحزب الثانى هو الشيعة ، والحزب الثالث هو هؤلاء : الخوارج . وهو أشد الأحـــزاب عنفا ، وأكثرها تطرفا .

وقد ظل الخوارج حربا على إخوانهم أهل العراق ، وكانوا خطراً دائما يهدد دولة آل الزبير ، وسيكون أولى المشاكل لدى عبد الملك ، حين يستولى على العراق ويحل محل آل الزبير . فمن هم ؟ وكيف بدأوا ثورتهم ؟

***

بدأ الخوارج ثورتهم الأخيرة ضد الدولة الأموية فى أول عهد يزيد ، وذلك بسبب سياسة « ابن زياد » أيضا — الذى كان والى البصرة .

فقد اشتد عليهم ابن زياد ، وملأ بهم السجن ، وقتل كثيراً منهم صبراً وكان ممن قتل « عروة بن أدية التميمى » من خيار رجالهم . فخرج على ابن

زياد أخوه « أبو بلال» مرداس — وكان من أجل الناس قدرا بين الخوارج لعبادته واجتهاده. ولم يكن مع أبى بلال غير أربعين رجلا، فأرسل إليهم زياد جيشا عدته ألفان، فهزم أبو بلال ذلك الجيش فى موقع اسمه «آسك» بالأهواز. وفى ذلك قال شاعر الخوارج :

أألفا مؤمن فيما زعمتم ... ويقتلهم بآسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ... ولكن الخوارج مؤمنونا

فجرد لهم ابن زياد جيشا آخر — عدده ثلاثة آلاف — عليه عباد ابن الأخضر التميمى، فقتل أبو بلال. وذلك سنة إحدى وستين. غير أن أحد الخوارج ترصد لعباد هذا واغتاله فى أحد طرق البصرة. فغلا ابن زياد فى اضطهادهم، وأكثر قتلهم وكأنه أراد أن يستأصلهم.

فما زال الخوارج فى هذه الحال — وهم إذا اجتمعوا تذاكروا فضيلة أبى بلال وجهاده — حتى رأوا ن ابن الزبير ثار بمكة، وأن يزيد قد أرسل إليه جيشاً من الشام، فأرادوا الخروج للجهاد معه، فاجتمعوا، وقال لهم رئيسهم« نافع ابن الأزرق » : إن الله قد أنزل عليكم الكتاب، وفرض عليكم الجهاد، واحتج عليكم بالبيان، وقد جرد أهل الشام فيكم السيوف، فاخرجوا بنا إلى هذا الذى ثار بمكة، فإن كان على رأينا جاهدنا معه، وإن يكن على غير رأينا دافعنا عن البيت، ثم نظرنا بعد ذلك فى أمورنا ». فساروا إلى مكة — وذلك فى أوائل سنة ٦٤ — وقاتلوا مع ابن الزبير ضد جيش الشام، حتى جاء الخبر بنعى يزيد، وانصرف ذلك الجيش عائداً إلى بلاده. فحينئذ وقع الخلاف بينهم وبين ابن الزبير، واشتبكوا معه فى مناظرات، وتبين للفريقين تباينهما فى الرأى. فمن ذلك أنهم بعد أن ذكروا رأيهم فى « عثمان » — وهم

يحملون عليه بشدة – سألوه عن رأيه فيه . فقال ابن الزبير لمن حدثه : « قد فهمت الذى ذكرت به عثمان بن عفان–رحمة الله عليه . وإنى لا أعلم مكان أحد من خلق الله اليوم أعلم بابن عفان وأمره منى ، فقد كنت معه . وقد سمعتُ ما عبته به فليس كذلك ، بل هو لكل خير أهل . وأنا أشهدكم ومن حضر أنى ولى لابن عفان فى الدنيا والآخرة ، وولى أوليائه وعدو أعدائه . » .

ولما كان الخوارج أعداء عثمان فابن الزبير إذن عدو لهم ، وهم أعداء له ولعثمان . فتبرأ أحدهما من الآخر وثارت النفوس .

* * *

وهكذا تفرق القوم ، وغادر الخوارج مكة (فى ربيع الآخر ٦٤ هـ) فتوجه نافع ابن الأزرق – ومعه أكثر الخوارج – إلى البصرة . وتوجه فريق آخر – على رأسه أبو طالوت – إلى اليمامة

وبعد مقدم الأولين إلى البصرة بقليل ، حدثت الأحداث التى بيناها فيما مضى ، إلى أن وثب الناس على ابن زياد ، واختفى . فقام الخوارج وكسروا أبواب السجون ، وأخرجوا إخوانهم ، وانتهزوا فرصة اشتغال الناس بالحرب بين الأزد وتميم ، بسبب مقتل مسعود سيد الأزد ، فاجتمعوا وخرجوا تحت قيادة زعيمهم : نافع بن الأزرق ، إلى ناحية الأهواز– غير بعيد من البصرة . ولما كان الخوارج قد أعلنوا الجهاد ضد مخالفيهم ، واتبعوا مذهباً شاذاً ، فقد خاف أهل البصرة على أنفسهم ، وانتهوا إلى الصلح فيما بينهم ، وانتخبوا لهم أميراً هو : « عبد الله بن الحارث » – كما أشرنا إليه سابقاً – وأخذوا يستعدون للدفاع عن أنفسهم وتجهيز جيش لمقاتلة الخوارج .

ما مذهب هؤلاء الخوارج إذن ، وماذا يريدون ؟

كان هؤلاء قوما متطرفين تغلب عليهم طبيعة البداوة ، تشددوا فى الدين وفهموه فهما حرفياً ، وأخذوا الكتاب بظاهره . خرجوا على عثمان بسبب مسائل غير أساسية ، ثم خرجوا على علىّ بعد التحكيم ، واعتدوا على المسلمين فاضطر علىّ إلى محاربتهم . وكان أحدهم الذى قتله . وخرجوا على معاوية والدولة كلها . كان عماد مذهبهم أن ارتكاب المعصية كفر . وكانوا يرون — من الناحية السياسية — أن الخلافة يجب أن تكون شورى ، ولا يلزم أن تكون فى قريش .

ولما خرجوا فى ثورتهم الأخيرة فى عهد ابن زياد ، ظهر نافع بن الأزرق ، وغلا فى مذهبه غلوا خرج به عن كل حد ، وتبعه كثير من الخوارج فهم الذين سموا بـ« الأزارقة» . قال ابن الأزرق : إن دار مخالفيهم — أى بقية المسلمين — دار شرك فهم مشركون ككفار العرب ، فلا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف . فمعنى ذلك أن هؤلاء خرجوا على الجماعة كلها . وأصبحوا خطراً يهدد المسلمين فى حياتهم وأموالهم — هذا على أنهم كانوا يغالون فى أداء واجبات العبادة .

وخالف بعض زعماء الخوارج ابن الأزرق — فى درجات من تخفيف مذهبه — وكونوا شيعاً خاصة ، ومنهم نجدة بن عطية الذى ذهب إلى اليمامة ، حيث خلع الناس هناك أبا طالوت وولوه عليهم مكانه ، فكون دولة أخرى .

* * *

خرج نافع بن الأزرق وأتباعه إلى جهة الأهواز ، وأقاموا بها وكثر جمعهم وقويت شوكتهم ، ثم أقبلوا حتى دنوا من جسر البصرة ، ففزع أهل البصرة واجتمعوا إلى « الأحنف بن قيس » فدعا الناس إلى الجهاد ، وحدثت عدة

مواقع كان أهمها موقعة « دولاب » التى جرت فى مكان بهـذا الاسم ، حيث قتل فيها زعيم الخوارج « نافع بن الأزرق »؛ وذلك فى جمادى الآخرة سنة ٦٥هـ كما قتل قائد جيش البصرة .

وفى هذه الموقعة قال شاعرهم :

لعمرك إنى فى الحياة لزاهد وفى العيش ، ما لم ألق أم حكيم

من الخفرات البيض ، لم ير مثلها شفاء لذى بث ولا لسقيم

ولو شهدتنى يـوم « دولاب » أبصرت
طعان فـتى فى الحرب غير ذميم !

* * *

وأخيرا ، رأى « الأحنف بن قيس » أن خير من يتولى حرب الخوارج هو « المهلب بن أبى صفرة الأزدى » ، لما علم فيه من الشجاعة والرأى والمعرفة بالحرب ، فولاه ذلك . وعقد له اللواء ، وذلك سنة ٦٦ هـ .

وقد برهن المهلب حقيقة على أنه قائد قدير ، يتقن فن الحرب وأساليبه . فما زال يقاتل الخوارج ، ويزيحهم من مرحلة إلى مرحلة . وعلى الرغم من أنهم كانوا أشد الناس فى القتال ، وكروا عليه المرة بعد الأخرى وهزموا فرقا من جيشه — استطاع أخيراً بفضل براعته فى القيادة ، وثباته وثبات أبنائه — وكانوا أبطالا — استطاع أن يتغلب على الخوارج ويهزمهم ، وذلك فى موقعة «سلى وسلبرى » فى فارس سنة ٦٦ هـ ، وقتل قائدهم الذى كانوا ولوه عليهم بعد « ابن الأزرق » وهو «عبيد الله بن بشير بن الماحوز » . فرجعوا مهزومين ، وابتعدوا عن فارس إلى جهة كرمان .

ظل المهلب يجاهدهم ، حتى جاء «مصعب» أميراً على البصرة — سنة ٦٧ — فرأى مصعب أن يسحب المهلب من هـذه الجبهة ، ويعينه أميراً على الموصل والجزيرة ، ليكون بينه وبين عبد الملك بن مروان . فولاه على الموصل بدلا من «ابن الأشتر» ، وتولى حرب الخوارج قواد آخرون . ولكنهم لم يستطيعوا أن يصلوا إلى نتيجة حاسمة ، فلما سئم الناس حرب الخوارج ، كلموا مصعباً فى أنه ينبغى أن يعيد « المهلب بن أبى صفرة » لحربهم ، لأنه أعرف الناس بهم ، وهم لا يهابون أحداً مثله ، كما أن الجند لا يطيعون أحداً غيره . فأعاده مصعب إلى الجبهة ، وتولى المهلب حرب الخوارج مرة أخرى ، منذئذ .

فما زال المهلب فى هذا الميدان ، حتى تغيرت الأحوال وقتل مصعب ، وجاء عبد الملك إلى العراق ، فأصبح الواجب على عبد الملك أن ينهض هو للدفاع عن العراق والدولة ، وينصب لحرب الخوارج . فاعترف به المهلب ودخل فى طاعته ، وأصبح جيشه جيش عبد الملك . وسنرى فيما بعد كيف ستسير الأحوال وماذا سيكون مصير الخوارج فى عهد عبد الملك . وسيكون مجىء عبد الملك إلى العراق فى عام ٧٢ هـ .

* * *

فنرى من ذلك كله أن الخوارج ظلوا شوكة حادة ، أو جرحاً دامياً فى جنب عبد الله بن الزبير ودولته . وأنهم بقوا يستنزفون منه الجهود والأموال ، ويكبدونه وأهل العراق خسائر فى الرجال ، ويشغلون الأبطال . فكان هذا — فى الواقع — من أسباب ضعف دولة آل الزبير . ولم يكن عند عبد الملك ودولته ما يشغلهم مثل هذا . وكان ابن الزبير مهدداً أيضاً بالخوارج الآخرين

— أتباع نجدة — الذين أقاموا دولة فى قلب جزيرة العرب ، وصاروا على مقربة منه ؛ حتى إنهم أخافوا أهل الطائف ، فجعلوهم يعترفون لهم بالولاء .

أربعة ألوية فى الحج

ويمكن أن نرى صورة لتفرق أمر الأمة ، فى ذلك الوقت ، فى موسم الحج عام ٦٨ هـ .

فقد ظهرت صورة غريبة ، وهى أنه وافى الموسم ووقف بعرفات فى تلك السنة أربعة ألوية : محمد بن الحنفية وشيعته فى لواء ، وعبد الله بن الزبير فى لواء ، ولواء بنى أمية ، ولواء نجدة الحرورى (الخارجى) . وكادت أن تحدث بينهم الفتنة وتنشب الحرب ، لولا أن توسط بعض الراشدين من الأمة .

حدث أحد المعاصرين لهم فقال — وحديثه يرسم صورة حية عن موقف الفرق المتنافسة فى ذلك الوقت _ قال :

« خفت الفتنة فمشيت إليهم جميعاً . فجئت محمد بن على ، فقلت : يا أبا القاسم اتق الله ، فإنا فى مشعر حرام وبلد حرام ، والناس وفد الله إلى هذا البيت ، فلا تفسد عليهم حجهم . فقال : والله ما أريد ذلك ، وما أحول بين أحد وبين هذا البيت ، ولا يؤتى أحد من الحاج من قبلى . ولكنى رجل أدفع عن نفسى من ابن الزبير . وما أطلب هذا الأمر إلا أن لا يختلف على فيه اثنان . ولكن أئت ابن الزبير فكلمه . وعليك بنجدة .

فجئت ابن الزبير ، فكلمته بنحو ما كلمت به ابن الحنفية ، فقال :

أنا رجل قد اجتمع على الناس وبايعونى ، وهؤلاء أهل خلاف . فقلت : أرى خيراً لك الكف . قال : أفعل .

ثم جئت نجدة الحروري ، فأجده في أصحابه — وأجد عنده عكرمة مولى ابن عباس ـ فقلت له: استأذن لي على صاحبك ، فدخل فلم ينشب أن أذن لي . فدخلت فعظمت عليه وكلمته كما كلمت الرجلين . فقال : أما أن أبتدىء أحداً بقتال، فلا. ولكن من بدأ بقتال قاتلته . قلت:فإن الرجلين لا يريدان قتالك .

ثم جئت شيعة بني أمية ، فكلمتهم بنحو ما كلمت به القوم . فقالوا: نحن على أن لا نقاتل أحداً إلا أن يقاتلنا .

فلم أر في تلك الألوية قوما أسكن ولا أسلم دفعة من ابن الحنفية .

وكان أول لواء انفض لواء محمد بن الحنفية ، ثم تبعه نجدة ، ثم لواء بني أمية ، ثم لواء ابن الزبير . وتبعه الناس».

فهذه الألوية كانت تمثل — على التوالي — أحزاب : الشيعة ، وأنصار ابن الزبير، والخوارج ، ثم بني أمية . وهي الأحزاب التي كانت الأمة منقسمة إليها في ذلك الوقت . وكان لابد من جهود كبيرة لكي تتم وحدة الدولة .

الفصل السابع

نحو توحيد الدولة

شهدنا المعارك العديدة التي كانت تدور في أنحاء الدولة : بين العراق والشام ، أو بين الشام والحجاز . أو بين العراق والحجاز ، أو في داخل العراق نفسه ، أو بين العراق وقوات خارجة عليه . فإلى متى يظل هذا النزاع داخل الدولة العربية الإسلامية ، ويبقى الانقسام ؟ . وهل يمكن أن تترك الأمور هكذا ، دون بذل جهود لتحقيق وحدة الدولة والأمة ؟

لم يكن عبد الملك أو ابن الزبير ، أو أي أحد في ذلك العصر ، يعتقد أو يتصور أن الدولة يمكن أن تتجزأ ، أو تبقى منقسمة بين شخصين أو أكثر. فالدولة منذ بدء تاريخها كانت واحدة . والجميع يشعر أنها وحدة دينية وثقافية وجغرافية واقتصادية ، أوجدها الإسلام وروحها الإسلام ، وقواها السياسية والحربية كلها من جنس واحد : من العرب . فلا يمكن إذن أن تنفك عراها أو تنفصل أجزاؤها ، يجب أن تعود دولة واحدة عليها خليفة واحد .

* * *

لكن قد مضى عليها الآن — وقد بلغنا عام ٦٨ أو ٦٩ هـ — نحو خمس أو ست سنوات ، أو أكثر ، وهي مسرح لقوى متنافسة متنازعة ، والأقطار أو البلاد منفصلة ، وهناك زعيمان كل منهما قد بايعه قوم وأعلن خلافته ، ويدعى أنه هو الأحق بالخلافة . وهناك إمام للشيعة ، يعتقدون أنه لا يوجد

من ينازعه فى حقه الأقدس الخاص به . وهناك أئمة للخوارج فى هذا المكان أو ذاك. فالمشاعر مضطربة، والولاء موزع، وجهود الأمة منصرفة إلى النزاع الداخلى ، بدل أن توجه -متحدة- للصمود أمام العدو الخارجى، والتغلب عليه .

كانت الدولة فى غاية القوة يوم كانت متحدة ، وقوادها مظفرون فى الفتوح المتوالية ، وأعلام النصر تسير متقدمة إلى كل الجهات . أما الآن فقد ارتدت جيوشها فى المغرب ، وفقدت معظم الفتوحات التى حصل عليها من قبل ، وتجمدت الفتوح فى المشرق عند النهر - وكانوا من قبل يعبرون إلى ما وراءه - بل ارتدت الجنود عن بعض المناطق ، ووقعت بينهم حرب داخلية عنيفة ، مبعثها العصبية والطموح الفردى . وأخذ الروم يتحركون فى الشمال ، ويتحرشون بالدولة ، وأغاروا على بعض المناطق ، وأحدثوا أضراراً جسيمة منتهزين فرصة الانقسام الداخلى - على ما سنفصله فيما بعد .

لا يمكن السكوت إذن على هذه الحال ، وإلا فيعظم الضرر ، ويتفاقم الخطر . لابد أن تبذل الجهود لابراء الدولة من هذا التصدع ، وإزالة الانقسام فتجتمع كلمة الأمة — مرة ثانية — وتنضم تحت لواء واحد ، وتستأنف سيرها قدما تحت قيادة خليفة واحد . فمن يكون هذا الخليفة ؟ . ومن ينهض لتحقيق هذه المهمة الكبيرة ؟

لكى نجيب على هذا السؤال ، ينبغى — أولا — أن نلقى نظرة على الموقف الذى وصلت إليه الدولة ، فى عام ٦٩ هـ .

***

كان عبد الملك قد ترك خصومه يتقاتلون ، ولم ير داعيا لبدء الهجوم حتى يرى نتيجة المعارك الدائرة . فإن هذه المعارك سيكون من شأنها إضعاف الأطراف

المشتبكة ، وسيحين بعدئذ الوقت المناسب ليكون الهجوم مضمون النجاح ، ويكون هو فى الوقت نفسه قد تمكن من تجديد قواه وتدعيم قواعد دولته ، وإصلاح شئونها الداخلية .

وقد كان من نتائج هذه المعارك أن دحرت ـ فعلا ـ إحدى القوى المتنازعة ، واختفت من الميدان كقوة إيجابية فعالة . وهذه هى قوة الشيعة ، التى قادها المختار ، وحقق بها بعض الانتصارات الرائعة ، وكاد بها أن يؤسس دولة دائمة .

فبعد مقتل المختار ، لم يعد لهذه القوة وجود ظاهر فى العراق ، وتحولت إلى دعوة أو حركة سرية . وكانت هذه القوة قد استنفدت أغراضها ـ على كل حال ـ حين نجحت فى أخذ ثأر الحسين وآل البيت من قتلتهم : من ابن زياد بالأخص ، ومن شركائه . ففقدت عندئذ الدافع الذى كان يحركها ، والذى ظل يدفعها نحو ست سنوات . ولم نعد نرى بعد انتهاء تلك الحركة إلا ذلك الجيش الصغير أو الحرس ، الذى بدا أن كل مهمته أن يلازم المهدى محمد بن الحنفية ويحرسه فى مكة ، أو أينما توجه ، على الهيئة التى شاهدناها به فى موسم الحج عام ٦٨ هـ .

انحلت عقدة كبيرة إذن من الموقف ، فأصبحت المعركة مباشرة بين دولة آل الزبير فى الحجاز والعراق ، ودولة عبد الملك فى الشام ومصر ـ دون أن تتوسط بينهما قوة ثالثة . لكن دولة ابن الزبير ـ كما ذكرنا من قبل ـ كان بجنبها جرح دام يشغلها ويستنزف قوتها ، وهو حرب الخوارج . وقد استمرت هذه الحرب ، فأصبحت كالمرض المزمن لا يرجى البرء منه فى وقت قريب . فلم يكن مصعب بن الزبير ـ وهو نائب أخيه فى العراق ـ ليستطيع أن يقوم بحرب هجومية على الشام ، قبل أن يتخلص من هذا الخطر المهدد له على الدوام .

هذا على أن مركز مصعب ودولته فى العراق لم يكن ـ فى حقيقة الأمر ـ بالقوة التى قد يوحى بها ظاهره.

فإن أهل العراق إنما لجأوا إليه ليستخدموه كأداة سياسية ، ليتخلصوا من المختار الذى أحدث انقلابا فى مجتمعهم ، بانحيازه إلى الموالى وإعطائهم حقوق العرب . فبعد نجاح المهمة وتحقيق غرضهم ، لم يعد هناك رابط قوى يربطهم به . وماذا كان يربطهم بآل الزبير على كل حال ؟ . لم تكن هناك العاطفة القوية التى تربط بين الشيعة وأحد زعمائهم ، ولم يكن هناك الإيمان المشترك بعقيدة ثورية ، الذى يربط بين الخوارج وقادتهم ، ولم يكن هناك الماضى الملىء بالذكريات والتاريخ المشترك ، الذى يربط بين أنصار بنى أمية وخلفائهم ـ ليس فقط فى الشام ، ولكن هذا التاريخ المشترك كان فى العراق أيضاً ، وبعض جهات أخرى.

وقد كان فى العراق دائماً حزب لبنى أمية ، وأنصار لهم . لكن الذى أضعف الرابطة أو قطعها ـ إلى حين ـ كانت هى أحداث البغى والعدوان ، التى أوجدها ابن زياد . فما دام ذلك الرجل البغيض موجودا ، فإن عواطف أهل العراق ـ سواء الشيعة أو غيرهم ـ كانت متحولة عن دولة الشام . أما وقد زال ذلك الرجل الكريه ، فقد صفا الجو ، وأخذت الذكريات تعود للخواطر ، والنفوس تحن إلى الماضى المشترك ، الذى كان يوفر ـ على الأقل ـ الطمأنينة والأمن والاستقرار ، ورخاء المعيشة ؛ ولا سيما أن الشخصية التى ظهرت ـ وهى شخصية عبد الملك ـ كانت شخصية تستحق الحب ، وتحمل على الاحترام .

يدل على ذلك أن قائد العراق الكبير ـ « إبراهيم بن الأشتر » ـ بعد أن حارب جيش الشام وانتصر عليه ، صرح ـ حينما دعاه كل من مصعب وعبد الملك ، لينضم إليه ـ صرح ـ كما أثبتناه من قبل ـ بأنه لو ترك الأمر له ، لفضل

أن يتبع عبد الملك . لكن هذا لم يكن ممكنا ، لما أصاب به رؤساء الشام . وسنرى أن هذا الشعور لم يكن خاصا به ، ولكن سينتشر بين كثير من قواد ورؤساء العراق .

نقول : لم يكن هناك من رابط قوى يربط بين أهل العراق وآل الزبير . فهم إنما اختاروا البيعة له ، فى البدء ، لأنهم كانوا فى ألزم الحاجة إلى أمير ودولة فى الظرف الذى كانوا مهددين فيه بخروج الخوارج ، وفى ظل الكراهية لابن زياد ، وفى وقت الفوضى الذى اضطربت فيه الأمور فى كل الجهات . فكانت البيعة لابن الزبير حكم ضرورة ، لأنه كان أكفأ الموجودين فى الموقف . ولكن الأمور ظلت فى الحقيقة ــ مع ذلك ــ بأيدى رؤساء العشائر ، أو أشراف العرب . ولم يستطع ولاة ابن الزبير ضبط الأمور ، فقام ثائرو الشيعة واستولوا على الكوفة والبلاد ، وظهروا كدولة داخل الدولة .

عبد الله بن الزبير

ولقد كان عبد الله بن الزبير ، فى ذاته ، رجلا يتمتع بصفات تبعث على الاحترام : ذا شخصية قوية ، وله ماض مجيد . كان من فرسان قريش وأبطالها خطيباً بليغا ، وعابداً لا يبارى فى تحمله مشقات العبادة ، ومن الطبقة الأولى من التابعين . ولكنه قيد نفسه بمكة ، وظل ملازما لها . ولم يخرج أبداً طوال المدة التى ناضل فيها من أجل الخلافة : لم يخرج إلى أى جزء آخر من أجزاء دولته وخاصة العراق . فكانت الصلة بينه وبين الناس بعيدة . ولم توجد الرابطة التى تستلزم الولاء بين الجمهور وزعيم له ، أو بين جيش وقائده ــ وهى رابطة الحب وشعور الإعجاب ــ تلك التى تنشأ عن الاتصال الشخصى ، وتأثير القائد أو الزعيم فى أتباعه .

وقد لحظ عبد الملك نفسه هذا المعنى ، فتحدث — فيما بعد — فى خطبة له بالكوفة ، بعد أن قدم العراق ، : فقال « إن عبد الله بن الزبير لو كان خليفة — كما يزعم — لخرج وآسى أنصاره بنفسه ، ولم يغرز ذنبه فى الحرم ! » .
ولكن هكذا شاء ابن الزبير « أن يغرز ذنبه فى الحرم ».وترك أنصاره وحدهم بعيدا عنه ، دون أن يضرب لهم القدوة أو الأسوة بنفسه، وترك الأمور تجرى دون أن يحكمها . ولم يكن وكلاؤه — حتى إخوته — بكافين عنه .فكان هذا — ولا شك — من أسباب هزيمته وفشل أمره .

وكان من أكبر عيوب ابن الزبير — أيضاً — التى أدت إلى نفور الناس عنه ، وكان سببا فى هزيمته : حرصه وضنه بالأموال —حتى لأتباعه ومناصريه. كما يدل على ذلك هذا الخبر : أن أخاه مصعبا قدم عليه بمكة — ومعه وفد من وجوه أهل العراق — فقال: يا أمير المؤمنين،قد جئتك بوجوه أهل العراق، فأعطهم من المال .فقال عبد الله: «جئتنى بعبيد أهل العراق لأعطيهم من مال الله والله لافعلت . ولوددت أن لى بكل عشرة منهم رجلا من أهل الشام : صرف الدينار بالدرهم ! » ـ ذكر رواة الخبر ، قالوا : « فلما انصرف مصعب ومعه الوفد من أهل العراق ، فسدت قلوبهم فراسلوا عبد الملك بن مروان ، حتى خرج إلى مصعب فقتله » . كما وردت أنباء أخرى تؤيد هذا الخبر .

وقد سجل عبد الملك أيضا عن خصمه هذا المعنى ، فقال فى بعض خطبه : « ما أعلم مكان أحد أقوى على هذا الأمر منى . وإن ابن الزبير لطويل الصلاة كثير الصيام . ولكن لبخله ، لا يصلح أن يكون سائسا» . وقال زيد بن على شيئا شبيها بهذا ، فتحدث عن ابن الزبير —قائلا : « كان عبد الله طويل الصلاة كثير الصيام . وكانت فيه خلال مباينة لما حاول من الخلافة : بخل وضيق

والحجاج » ـ وهو يعنى بالخلة الأخيرة أن عبد الله بن الزبير كان شديدا فى خصومته ، وكان خشن الجانب. وربما كان هذا ناتجا عن قوة اعتداده بنفسه . لكن هذه الخصلة — والصفات السابقة — لم تكن من الصفات التى تساعد على اجتذاب الناس إليه ، ولم تكن من الصفات التى تتفق مع مقتضيات السياسة .

***

وكان عبد الملك بن مروان على خلاف ذلك — ولو فى مجال السياسة — على الأقل — وقبل أن يتم له أمر الخلافة ، وبالنسبة لأهل الشام بصفة خاصة . فكان سخيا مع قواده وجنوده يجزل لهم الأعطيات . وربما كان يقتدى فى هذا بمعاوية . فكان جنده من أهل الشام — وهم الذين كان يعتمد عليهم — يحبونه ويطيعون أمره . وقد كاتب قواد العراق ومناهم، ووعدهم ووصلهم — وإن كان الحجاج فيما بعد نقض هذه السياسة ،وعامل أهل العراق بعنف ، فكانت هذه من أخطائه ، وأدت إلى حروب ومتاعب كثيرة .

كذلك كان عبد الملك حسن المعاملة ، بصفة عامة ، لقواده وحاشيته : يكرمهم ويحلم عليهم ، ويزورهم إذا مرضوا ، ويحضرهم مجالسه كأصدقاء . أما من ناحية الخروج بنفسه ليضرب الأسوة والقدوة لأنصاره ، فإن عبد الملك قرر — فى هذه المرحلة الثانية من النشاط منذ عام ٦٩ هـ — أن ينهض بنفسه ويخرج على رأس قواته فيشترك فى الحصار والحرب والمفاوضة . وهكذا فعل ، وهكذا « لم يغرز ذنبه » ! فى دمشق أو غيرها . فكان هذا من أكبر عوامل نجاحه وانتصاره . وقد حضر بنفسه الموقعة الفاصلة بينه وبين مصعب — على ماسنرى ـ فكان وجوده من أهم أسباب النصر ـ على حين كان عبد الله

ابن الزبير غائبا. وهذه هى الموقعة التى تم بها لعبد الملك الاستيلاء على العراق

مصعب أخو عبد الله

أما مصعب : فكان شخصية قوية أيضا ، وكان يمتاز كأخيه بالشجاعة وإباء الضيم ، وكان نموذجا لوسامة العربى القرشى ، ويتصف بالصفات الحميدة. وعلى خلاف أخيه كان جوادا . لكنه كان يعيش كأمير أرستقراطى ، ينفق بسخاء على شئونه الخاصة ؛ ويتزوج أجمل عقيلات قريش ، ويدفع مهرا لإحداهن ألف ألف (أى مليون) درهم . وفى هذا قال شاعر :

« مهر » الفتاة بألف ألف كامل ويبيت قادات الجيوش جياعا

وكرمه كان كرما فرديا. وليس نظاما عاما يشمل الجميع، ويتمثل فى أعطيات ثابتة للأنصار .

وكما بينا من قبل ، لم يكن هناك من روابط قوية طبيعية ، تربط بينه وبين أهل العراق . فلم يكن من آل البيت، ولا زعيما لشيعة ، ولا من أبناء الخلفاء السابقين . وإنما كان قائما ممثلا لأخيه الذى يعيش فى الحجاز . ولم ينتخب أحدهما انتخابا شرعيا فى مؤتمر يحضره أهل الحل والعقد ـ كذلك المؤتمر الذى انعقد فى الجابية، الذى تحدثنا عنه فى فصل سابق — والذى قامت على أساسه دولة آل مروان. وهذه النقطة ـــ فى المقارنة الدستورية بين أساسى دولتى ابن الزبير ومروان ـــ لم يفت المؤرخ « ابن خلدون » أن يلحظها . حقا ، كان عبد الله ومصعب ـــ كلاهما ـــ شخصيتين رائعتين . لكنهما كانا يريدان أن يؤسسا دولة جديدة ، من البدء : من فراغ . وهذا من أشق الأمور .

على أن مصعبا ظل ، طوال مدته بالعراق ، مشغولا بحروب الخوارج . ثم إنه ارتكب -- كما رأينا ـــ أخطاء سياسية جسيمة ، مثل قتل هذا العدد

من الأسرى فنفـر الناس منه ، وترك له ثأرا عند كثير من القبائل . ولما كان غير واثق تماما من تأييد واتباع أهل العراق له — وهم القوم الذين عرف عنهم فى الأحداث السابقة التقلب والتحول عن الزعماء — فقد لبث فى موقف دفاعى ولم يحاول القيام بهجوم على الشام ، من أجل تصفية الموقف .

***

هذه هى الظروف التى وجد عبد الملك بن مروان فيها نفسه ، حين قرر أن يبدأ مرحلته الثانية من النشاط فى عام ٦٩ هـ ، ويقوم هو بقيادة الجيوش والإشراف على الأمور . وكان هو فى موقف لا يستطيع فيه الانتظار أكثر من ذلك ، لأمد طويل ، لأن دولتـه أكثر تعرضا للأخطار والغارات من الخارج ، أكثر من العراق والحجاز .

فالروم — العدو التاريخى القومى — بدأوا يتحركون ، ويحرضون العناصر المخربة الأجنبية ، التابعة لهم فى الداخل ــ وهم « الجراجمة » . والأراضى تفقد فى الغرب ، والسواحل معرضة للهجوم . وموارد الشام محدوده ، لا تقاس بثروات العراق ، وما وراءه من أقطار إيران . ومصر تـكاد تكون مستقلة ، تحت إمرة أخيه عبد العزيز بن مروان ، وهى تتحمل عبء الدفاع فى الغرب .

فإذا كان عبد الله ابن الزبير — وأخوه — يستطيعان أن يكتفيا بدولتهما فى الحجاز والعراق ، فإن عبد الملك كان لا يستطيع أن يضمن بقاء دولته وقوتها إلا إذا تحقق توحيد الدولة . كانت وحدة الدولة ضرورية لعبد الملك : ألزم له مما كانت بالنسبة لخصومه . فليست غرضا كماليا ، ولا هدفاً من أجل بلوغ العظمة الشخصية ، أو الوصول لتوسيع حدود الدولة ، ولـكنها كانت أمرا حيويا ، وبالشرط الجوهرى الذى يتوقف عليه كل شىء .

فالآن ، قد أجبنا عن السؤال الذى طرحناه من قبل : وهو من يكون الخليفة الذى تعينه الظروف وتدفعه ، وتميزه صفاته ، لينهض لتحقيق هذه المهمة الكبيرة وهى توحيد الدولة ؟ فالجواب أن هذا إنما هو عبد الملك .

خطط سياسية وحربية

ما هى الخطة التى يتبعها إذن لتحقيق توحيد الدولة ؟

لم يختر عبد الملك أن تكون الخطة الآن هى أن يبدأ على الفور ، فيقود جيشا يتوجه به إلى العراق أو الحجاز ويخوض مع خصمه موقعة حاسمة . إن هذه الموقعة حتمية ، آتية لا ريب فيها ـ إذا ظلت الظروف كما هى . ولكن لماذا يجعل الأمر مغامرة ، ولا يكون ضامنا النتيجة ؟ ولماذا يترك الحكم للسيف وحده ، وهؤلاء الذين يريدهم أن ينضموا إلى دولته مسلمون من أمة واحدة ؟

ثم قد دلت التجارب أن بعض الجيوش ، التى تكون كثيرة العدد حسنة العدة ، قد تهزم على أيدى فئات أقل منها عدداً وعدة . فينبغى إذن — وهذه هى الخطة الحكيمة — أن يمهد للحرب — إذا كان لابد منها — بالوسائل السياسية . إن السياسة قد تكسب مالا تستطيع الحروب أن تنيله . وإنها كثيرا ماتوفر الجهد ، وتجعل أمر الحرب — إذا وقعت — هينا ، وأقل كلفة فى التضحية بما يبذل من دماء ، وما يتعرض له من أخطار .

***

وإن عبد الملك ـــ إذا كان قد هداه ذكاؤه وحسن رأيه إلى أن يأخذ بهذه الخطة ـــ فإنه فى الوقت نفسه لابد أن يكون قد تمكن من الحكم بأنه لاتوجد أسباب قوية ، تمنع أن ينحاز كثير من أهل العراق إليه، ويتحولون

عن مصعب وسلطانه إلى تأييده ، ولو بقلوبهم . فإنه قد صار واضحاً أن التقلب فى السياسة أصبح دأب أهل العراق ، وكأنما كانوا يريدون لهم كل يوم أميراً .

ثم إن مصعباً وأخاه يريدان أن يؤسسا دولة من العدم ، أما عبد الملك فإنه يمثل استمراراً لدولة كانت قائمة ، وكان أهل العراق يدينون لها، وكثيراً ما خدموا تحت لوائها ، ونعموا فى ظلها بالأمن والاستقرار والرخاء ، وكانوا راضين عنها فى الجملة - لولا إساءات ابن زياد وأبيه — وهذه هى الدولة الأموية . فعبد الملك إذن إنما يطالب فى الحقيقة بحق تاريخى أو شرعى ، ويريد أن يعيد وحدة الدولة كما كانت، وأن تعود الأوضاع إلى ما كانت عليه .

هذا إلى أنه لم يسىء إليهم ، وليس لهم عنده ثأر — على حين أن مصعباً قد أساء إليهم بمن قتل منهم فى الحروب ومن الأسرى ، وأصبح لكثير عنده ثأر ، ويسىء إليهم بوجوده بما يرتكب من أخطاء أو يمنع عنهم من خير .

* * *

ثم إذا قارن الناس بينه وبين عبد الملك — من حيث النسب ، ومن وجهة العصبية — وهذه كان لها شأن كبير عند العرب — فإن عبد الملك يرجح مصعباً أو أخاه فى النسب . فهذان من أسد بن عبد العزى؛ أما عبد الملك فمن عبد مناف ابن قصى . فهو أكثر شرفاً ، وأقرب إلى نسب الرسول عليه الصلاة والسلام. وقد رأينا أن هذه كانت من الأسباب التى حملت زعماء بنى هاشم : عبد الله بن العباس ، ومحمد بن على (ابن الحنفية) على رفض المبايعة لعبد الله بن الزبير ، وكانوا يفضلون عليه عبد الملك ، ثم بايعوه بعد ذلك. وكذلك كان سائر العرب ينظرون إلى الأمر على هذا الوجه . فأمية وعبد شمس وعبد مناف كانوا أعلى درجة فى الشرف ، وأقوى عصبية ، من أسد بن عبد العزى .

ثم إن أهل العراق — ولا سيما الأشراف ورؤساء القبائل — وهم الذين يعول عليهم فى تقرير مصائر الحروب والدول — كان منطقهم عمليا ، كانوا يريدون أن يحققوا مصالحهم . واعتبار مصالحهم هو الذى كان يوجه مشاعرهم وسياساتهم . فهم إذا وازنوا، يجدون أن مصالحهم ستكون أكثر تحققاً فى ظل عبدالملك ، عنها فى ظل مصعب وعبد الله .

وأخيراً ، فإن الرأى العام لابد أن يكون – بعد مرور هذه السنوات — قد سئم كثرة النزاع ، والحروب التى تنشب بين المسلمين ، وأدرك أن مصالح الإسلام والعروبة قد أصبحت معرضة للخطر . فهم يتمنون أن تعود الوحدة . وإذا لم يمكن إخضاع الشام ، فالبديل أن ينضم العراق — مختاراً — إلى الشام، فيتقوى كل منهما بالآخر . وإذا لم يكن بد من الاختيار ، فعبد الملك هو الذى يبدو أنه أرجح الشخصيات،لما عرف من كمال عقله، وبراعته — مثل أكثر بنى أمية — فى السياسة ، ومقدرته على ضبط الأمور ، ولحسن سيرته أيضاً ، فى نفس الوقت .

ونتائج هذه الأمور كلها ستظهر ، عندما يخرج عبد الملك للقاء مصعب ، فى الموقعة الفاصلة – التى سيتوقف عليها مصير العراق والدولة ، والتى ستحدث بعد ثلاث سنوات . وسنتكلم عنها فيما بعد .

الخروج إلى قرقيسيا

أما الآن ، فإن عبد الملك كان عليه أن يسير إلى تنفيذ أغراضه ، خطوة خطوة .

فأولا ، يجب أن يزيل من طريقه تلك العقبة التى بقيت طويلا، وهى عقبة

حصن قرقيسيا ، الذى ظل زفر بن الحارث الموالى لابن الزبير ممتنعاً به ، وحوله قومه قبائل قيس المتعصبة له — فيزيل هـذه العقبة من طريقه ، حتى يكون الطريق إلى العراق مفتوحاً آمناً . وقد حان الوقت للوصول إلى حل لهـذه المسألة ، فإن قبائل قيس اتخذت من هذا الحصن قاعدة لتشن الغارات والهجوم على قبائل كلب واليمن ثم تغلب ـ المؤيدة كلها لدولة الشام ـ مما أدى إلى وقوع « أيام » من الحرب والتدمير ، مثل « أيام » الجاهلية الأولى .

* * *

ثم إن عبد الملك قرر أن يتخذ من مكان فى شمال الشام ـ على الحدود بينه وبين العراق ـ بالقرب من « قنسرين » ، ويسمى « بطنان حبيب » ـ يتخذ منه مركزاً لمعسكره مع جيشه كل عام . فيكون أولا قاعدة للهجوم ، ويكون وجوده به مظاهرة لإعلان قوته ، فيخيف أعداءه الروم ، وخصومه فى قرقيسيا والعراق .

ثم إلى جانب ذلك — أوفوق ذلك — تكون هناك الفرصة متوفرة له ولممثليه وجيشه ، أن يتصلوا بأهل العراق وجيشهم ، ولتبادل وجهات النظر وتقديم العروض السياسية ، والوصول إلى اتفاقات . وكان كثير من العرب ، فى العراق والشام ، إخوة فى النسب ، ينتمون إلى عشائر واحدة . وسيخرج عبد الملك إلى هذا المكان ، عدة مرات فى السنوات القادمة . وفى نفس الوقت ، يخرج مصعب بقواته إلى نقطة مقابلة على الحدود ، فى شمال العراق — تسمى « باجميرا » . فيمكثان هناك مـدة ، ثم عندما يهجم الشتاء يعودان . وفى هذا المكان قال شاعر فى جيش مصعب :

أكل عام لك باجميرا تغزو بنا ولا نفيد خيرا !

مؤامرة لقلب الدولة!

وفى صيف عام ٦٩ — ٧٠ هـ ، خرج عبد الملك على رأس جيشه من دمشق ، متوجها إلى هذا المكان ، يقصد أن يسير ليواصل الحرب ضد قرقيسيا ، ثم بعدها يسير إلى حدود العراق . لكنه — وقد صار قريبا من هذا المكان — فوجىء وهو فى طريقه بخبر أفزعه : خبر مؤامرة دبرت ضده ، وممن ؟ : من أحد أفراد أسرته من بنى أمية ، من أحد زعمائها ، وهى طعنة من الخلف توجه إلى ظهره ، فى الوقت الذى خرج فيه لملاقاة أعدائه .

* * *

وخلاصة هذا الحادث أن عمرو بن سعيد بن العاص — وهو من بنى أمية ابن عبد شمس ، فهو بمثابة ابن عم لعبد الملك ، وكان ابن عمته أيضا — كان ما زال يحمل فى نفسه الضغن منذ أن غير مروان بن الحكم نظام ولاية العهد ، فبعد أن كان العهد لخالد بن يزيد ثم لعمرو بن سعيد هذا — كما كان اتفق عليه فى مؤتمر الجابية — جعله لابنيه : عبد الملك ، ثم عبد العزيز فلم يزل عمرو يضمر الشر ويترقب الفرصة ، حتى جاء هذا الوقت الذى خرج فيه عبد الملك بجيشه متجها إلى قرقيسيا فالعراق ، فنفذ هذه المؤامرة التى لابد أنها دبرت من قبل ، وأراد أن يقلب الدولة ويخلع عبد الملك ، ويحل نفسه محله فى الخلافة .

والروايات هنا تختلف : فهل كان عمرو مع عبدالملك فى جيشه ، ثم أسرع فرجع فجأة من الطريق ، ودخل دمشق فاستولى عليها وتحصن بها ؟

أم كان عبد الملك قد خلفه وراءه على ولاية دمشق ، أولعمل آخر ، فكان إذن فى دمشق ، وقام بحركته الغادرة وهو فيهـا ؟ . لكن الذى حدث على كل حال — بعد ذلك — أن عبد الملك عاد بقوته على الفور ، وضرب الحصار على دمشق . وحدثت بعض الاشتباكات ، ثم بعد نحو نصف شهر تمكن من دخولها ، بعد أن كتب صلحا بينه وبين عمرو ، وأعطاه الأمان .

ماذا يعمل عبد الملك إذن إزاء هذا الغـدر ، والخطر الجاثم فى بيته وعاصمته ؟ وهل يأمن أن يخرج بعد ذلك بجيشه للحروب ، ويترك دمشق وفيها عمرو وأمثاله — وكان مشتركا مع عمرو فى حركته إخوته وأبناؤه ، وبعض كبار القواد . فكانت إذن مؤامرة خطيرة . هددت بضياع دولة عبد الملك والقضاء عليه . وإحباط كل جهوده التى يبذلها ، أو كان ينوى أن يقوم بها . ثم تؤدى إلى إحداث الفتن والاضطراب فى الشام ، وإلى ما لا يمكن أن يتصور من أوخم العواقب .

* * *

فالذى حدث أن عبدالملك — بعد أن استقر فى دمشق وضبط الأمور — أرسل إلى عمرو بن سعيد . فدعاه إلى القصر . فخرج عمرو — وهو لابس درعه تحت القباء ، ومتقلد سيفه ، وبصحبته مائة من مواليه — ودخل القصر . فاجتمع مع عبد الملك وبنى مروان ورجال الدولة .

ما الذى جرى فى القصر بالضبط بعد ذلك ؟ . هل كان الأمر قد رتب لقتله ، أم حدث اشتباك ، أو اعتداء فى القصر أدى إلى قتله ؟ ومن الذى قتله؟ هل هو عبد الملك بيده ، أم أحد أقاربه أو مواليه ، أو مولاه : « أبو الزعيزعة »

صاحب ديوان رسائله . هنا تختلف الروايات وتضطرب . لكن المؤكد أن ثورة حصلت خارج القصر ، فى أثناء وجود عمرو به ، كان على رأسها أخوه يحيي بن سعيد وسائر أسرته ، وبعض القـــواد الذين اشتركوا فى المؤامرة . وحاولوا اقتحام القصر . فحدثت معركة جرح فيها الوليد بن عبد الملك ، وكاد أن يقتل . وأخيرا — تغلب الحراس عليهم ، وألقيت رأس عمرو إليهم ، ونثرت على النـاس بدر النقود ، فانفضوا وانتهى الأمر .

ثم بعد أن حبس عبد الملك إخوة عمرو وأبناءه ، عفا عنهم وسيرهم جميعاً إلى العراق . فوفدوا على مصعب . وقابلوا عبد الملك بعد ذلك — بعد انتصاره ودخوله العراق — فبعد شيء من العتب ، عفا عنهم ووصلهم .

هذا هو الحادث . وأكثر الرواة يقولون هنا إن عبد الملك غدر بعمرو ابن سعيد ، وأن هذا أول غدر فى الإسلام ، ويسجلونه على عبد الملك . لكن ألا يذكرون أن عمرو بن سعيد هو الذى غدر بعبد الملك ، وأنه هو الذى بدأ بالغدر ؟ ! . وأى غدر كان ذاك ؟ إنه كان غدرا بالدولة كلها ، وبأمنها ونظامها ومستقبلها ؟ . فماذا كان يصنع عبد الملك أو غيره ، إزاء ذلك ؟ وأليس هذا ما نسميه فى الدول الحديثة بأنه التآمر لقلب نظام الحكم ، أو الدولة ، وإحداث الفتن ومحاولة القضاء على الدولة ، وأليس هذا هو ما نقول عنه : إنه الخيانة العظمى ، وجزاؤه — عادة — الإعدام ؟ وهل كان يمكن أن يضحى بالدولة ومستقبلها ، من أجل تحقيق طموح شخصى ، وإرضاء كبرياء فرد لا غاية له إلا أن يحصل على المجد لنفسه ؟؟! .

انتهى هذا الحادث على كل حال ، وسارت الدولة فى طريقها .

غارة على العراق

وخرج عبد الملك كعادته — وذلك فى صيف سنة ٧٠ هـ — إلى حدود العراق . وعرض عليه أحد رجال بنى أمية — وهو خالد بن عبد الله — أن يوجهه على رأس جماعة من الفرسان فيدخلوا البصرة ، ويحتلوها . فوجهه عبد الملك .

وكانت هذه غارة جريئة ، أو هجوماً على خطوط العدو فى قلب بلاده . وقد قدم خالد بالفعل ، فلم يلق مقاومة . وإنما وجد من أجاره ، من قبائل بكر والأزد وتميم . وكان مصعب إذ ذاك بالكوفة ، فأرسل إلى نائبه على البصرة أن يحارب خالداً ومن أجاره . فتواقف الطرفان ، وبعد أن حدثت مناوشات قليلة تصالحوا ، على أن يخرج خالد من البصرة وهو آمن . فخرج خالد ورجع إلى الشام ، دون أن يمس بسوء .

فهذا الحادث يدل دلالة واضحة على أثر نجاح الوسائل السياسية ، وعلى أنه لابد أن كان هناك اتصال واتفاق بين أهل البصرة ومعسكر عبد الملك ، وعلى تحول كثير من الرؤساء والناس من الولاء لمصعب وآل الزبير إلى عبد الملك ودولة الشام ، ويبين ضعف موقف مصعب فى العراق . والحقيقة أنه وجد حزب قوى لبنى أمية فى البصرة ، وغيرها من بلاد العراق . وكان ممن انضم إلى خالد مالك بن مسمع رئيس قبيلة بكر ، والمغيرة بن المهلب من رؤساء الأزد ، وعبيد الله بن أبى بكرة ، من زعماء ثقيف ، وغيرهم .

فبعد أن عاد عبد الملك إلى دمشق ، لم يكن لمصعب هم إلا أن يقدم إلى البصرة . فأحضر الذين اشتركوا فى هـذا الحادث ، فصب عليهم غضبه ، وسبهم جميعاً سباً قبيحاً وضربهم مائة مائة ، وحلق رءوسهم ولحاهم ،

وصهرهم فى الشمس ، وهدم دورهم . وهرب منه من هرب . فما زادهم هذا إلا حنقا عليه . وما كان هذا ليغنيه عما وصلت إليه الحال فى جبهته ، من تخاذل وتفكك . وسيزداد هذا التفكك ، كلما مر الوقت .

الاستيلاء على الجزيرة

نجحت الوسائل السياسية إذن ، وأصبح الجو فى العراق ملائماً للدخول فى المعركة الأخيرة . لكن عقبة قرقيسيا (شمال الجزيرة) لابد أن تزال نهائيا من الطريق ، حتى يكون ظهر الجيش آمنا عند الزحف .

* * *

خرج عبد الملك إذن بجيش كبير فى صيف عام ٧١ هـ ، وهو مصمم على الوصول إلى الحل النهائى لهذه المسالة . فلا بد من دك الحصن ، وإخضاع زفر. فأخذ معه عدة الحصار والمجانيق . ولما وصل ضرب الحصار حول المدينة ، وصوب المجانيق على الأبراج . فامر زفر أن ينادى أهل عسكر عبد الملك ، فيقال لهم : لم وضعتم المجانيق علينا ؟ ففعلوا . فقالوا : لنثلم ثلمة نقاتلكم عليها . فقال زفر : قولوا لهم إنا لا نقاتلكم من وراء الحيطان والأبواب ، ولكن نخرج إليكم .

فلما أصبح زفر دعا الهذيل ابنه ، فقال : اخرج اليهم ، فشد عليهم شدة لا ترجع عنها حتى تضرب فسطاط عبد الملك . والله لئن رجعت دون أن تطأ أطناب فسطاطه ، لأقتلنك . فجمع الهذيل خيله وحمل عليهم ، فصبروا قليلا ، ثم انكشفوا ، وتبعهم الهذيل بخيله حتى وطئوا أطناب الفسطاط وقطعوا بعضها ، ثم رجعوا . فقبل زفر رأس الهذيل ، وقال : لا يزال عبد الملك يحبك بعدها أبدا . وهكذا جرت أعمال فروسية مثل هذه ، تدل على الجرأة والشجاعة المعروفة عند العرب :

وظل عبد الملك يقاتل زفر ويحاصره ،أربعين يوما . ورمى المدينة بالمجانيق حتى ثلم عامة بروجها . وفى أثناء ذلك ، كتب عبد الملك الى زفر كتابا يدعوه فيه الى الطاعة ولزوم الجماعة ، ويرغبه ويرهبه . وبعث بالكتاب مع رجاء بن حيوة والحجاج بن يوسف — كسفيرين فى الصلح — فقال الهذيل بن زفر لأبيه : لو صالحت هذا الرجل ، فقد أكلتك وقومك الحرب ، وأنت مذ سنين فى هذه المدينة . وقد أعطى الناس الرجل طاعتهم واجتمعوا عليه ، وهو خير لك من ابن الزبير . وأمر عبد الملك أخاه محمد بن مروان أن يعرض على زفر وابنه الهذيل الأمان ، على أنفسهما ومن معهما ، وأن يعطيا ما أحبا .

فأجاب زفر والهذيل . واتفق الجانبان على الصلح . وهكذا استقر صلح زفر بن الحارث : على أن آمنه عبد الملك وابنه وكل من معه ، وعلى العفو عن الدماء والأموال ، وأن لا يقاتل زفر مع عبد الملك حتى يموت عبدالله بن الزبير لبيعته له ، وأن يعطى مالاً يقسمه فى أصحابه .

* * *

فهكذا تم الصلح ، ونزل زفر فقابل عبد الملك ، فأكرمه هذا وأجلسه على سريره . ثم توثقت العلاقات بين البيتين بالمصاهرة . وبذا انتهت مسألة قرقيسيا التى استمرت سبع سنوات ، وكانت كالشوكة فى جنب دولة الشام ، وعقبة منعت الاستيلاء على الجزيرة : أى شمال العراق ، وأثارت زوابع من العصبيات القبلية كدرت أمن الدولة . فانتهى أمرها وأمر زفر . واستولى عبد الملك على المدينة . وأصبح الطريق مفتوحاً أمامه للدخول إلى العراق . فلم يضيع وقتاً ، وأخذ يستعد للزحف للالتقاء مع خصمه فى الموقعة الفاصلة ، فى العام التالى .

الموقعتان الفاصلتان

١ — الأولى :

الاستيلاء على العراق

عزم عبد الملك إذن على المسير إلى العراق لقتال مصعب ، وذلك فى خلال عام ٧٢ هـ .

وقبل أن يسير ، كان قد عقد مجلس شورى من بنى أميـة وكبار القواد ، فاختلفت آراؤهم . فأشار عليه عمه « يحيى بن الحـكم » أن يقنع بالشام ، ويترك ابن الزبير والعراق — وكان عبد الملك يستشير يحيى ، ثم يعمل بعكس رأيه . وقال خالدبن عبدالله : إن العام جدب ، وقد غزوت سنتين ونصرك الله ، فأقم عامك هذا . فقال عبد الملك : الشام بلد قليل المـال ، ولا آمن نفاده . وقد كتب كثير من أشراف العراق يدعوننى إليهم . وقال أخوه محمد بن مروان : الرأى أن تطلب حقك وتسير إلى العراق ، فإنى أرجو أن ينصرك الله . وقال بعض الرؤساء من أهل الشام : الرأى أن تقيم وتبعث بعض أهلك ، وتمده بالجنود — وذلك خشـية أن يصاب عبد الملك فى الحرب . فقال عبد الملك : إنه لا يقوم بهذا الأمر إلا قرشى له رأى . ولعلى أبعث من له شجاعة ولا رأى له . وإنى بصير بالحرب شجاع بالسيف ، إن ألجئت إليه . ومصعب شجاع من بيت شجاعة ، ولـكنه لا علم له بالحرب . يحب الخفض ، ومعه من يخالفه ، ومعى من ينصح لى . فأجمع رأيه على السير .

ولما عزم على المسير ، ودع زوجته « عاتـكة » بنت يزيد — فبكت — وبكى جواريها لبـكائها . فقال : قاتل الله كثير عزة ، لـكأنه يشاهدنا حين يقول :

إذا ما أراد الغزو ، لم يثن همه حَصان ، عليها عقد در يزينها
نهته . فلما لم تر النهى عاقه بكت . فبكى مما عناها قطينها

ثم سار ، قائداً جيشه وعدده خمسون ألفا . حتى وصل إلى « مسكن » على مقربة من شاطىء دجلة فى شمال العراق .

* * *

فلما بلغ مصعباً مسير عبد الملك أرسل إلى المهلب بن أبى صفرة يستدعيه ، وأراد أن يخرجه معه . فأبى أهل البصرة وقالوا : لا نسير ، ولا نأمن أن نترك ديارنا وراءنا إلا إذا كان المهلب على حرب الخوارج . فأمره مصعب أن يبقى فى مهمته ، وأرسل إلى ابراهيم بن الأشتر — وكان على ولاية الموصل — فأحضره وجعله على مقدمة جيشه . فأطلع ابراهيم مصعباً على مادار من مكاتبة بين أهل العراق وعبد الملك ، وجاء بالكتاب الذى بعثه إليه عبد الملك مختوماً ، فقرأه مصعب ، فوجد عبد الملك يمنى إبراهيم بولاية العراق . فنصح ابراهيم مصعباً أن يقتل هؤلاء الذين كاتبوا عبد الملك أو ينفيهم إلى المدائن أو يحبسهم . فرأى مصعب أن هذا يثير عليه عشائرهم ، وقال حينئذ : « رحم الله أبا بحر (الأحنف بن قيس) ، أن كان ليحذرنى غدر أهل العراق ، ويقول هم كالمومسة تريد كل يوم بعلا ، وهم يريدون كل يوم أميراً » ! وسار مصعب بجيشه — وقد خذله كثير — حتى أصبح قريباً من معسكر عبد الملك بمسكن ولذا نسبت هذه الموقعة إلى ذاك المكان .

* * *

ولما تدانى العسكران ، أرسل عبد الملك إلى مصعب يعرض عليه أن يدع دعاءه إلى أخيه ، ويدع هو دعاءه إلى نفسه ، ويجعل الأمر شورى بين المسلمين .

فأجابه مصعب: السيف بيننا . ثم بدأ القتال . وكان على مقدمة جيش عبدالملك أخوه محمد بن مروان ، وعلى مقـدمة جيش مصعب إبراهيم بن الأشتر . فالتقى الفريقان . فبعد معركة قتل صاحب لواء محمـــد ، وجعل مصعب يمد إبراهيم فأزال محمداً عن موقفه . فوجه عبد الملك عبد الله بن يزيد إلى أخيه محمد . فاشتد القتال ، فقتل مسلم بن عمرو الباهلى — والد قتيبه — وهو من أصحاب مصعب وأمد مصعب إبراهيم بعتاب بن ورقاء على الخيـل ، فساء ذلك إبراهيم وقال : قد قلت له لا تمدنى بعتاب وضربائه ، وإنا لله وإنا إليه راجعون . فانهزم عتاب بالناس — وكان قد كاتب عبدالملك وبايعه . فلما انهزم ، صبر ابن الأشترفقتل .

وتقدم أهل الشام فقاتلهم مصعب . وقال لأحـد القواد : قدم خيلك ، فقال : أكره أن تقتل عشيرتى فى غير شىء . فقال لآخر مثل ذلك ، فلم يتقدم. فقال لثالث ، فقال : مافعل أحد هذا ، فأفعله. فعندئذ قال مصعب : «ياإبراهيم، ولا إبراهيم لى اليوم ! » . وبدت الهزيمة فى جانبه . فدنا منه محمد بن مروان ، وناداه : أنا ابن عمك ، فأقبل أمان أمير المؤمنين . فقال : أمير المؤمنين بمكة . قال له : فإن القوم خاذلوك . فأبى ما عرض عليه. فعرض محمد الأمان على عيسى ابن مصعب فأبى أن يخذل أباه . ولما صار القوم يتخلون عن مصعب ، صمم على القتال ، وأنشد :

وإن الألى بالطف ، من آل هاشم تأسوا ، فسنوا للكرام التأسيا

يشير إلى موقف الحسين السابق ، فى موقف كهذا .

وظل يقاتل هو وابنه ، وأبى ابنه أن يترك المعركة كما أشار عليـه أبوه ، إلى أن قتل : أى عيسى بن مصعب . وعرض عبد الملك الأمان على مصعب ، وقال له : إنه يعز علىّ أن تقتل . فأقبل أمانى ، ولك حكمك فى المال والولاية .

فأبى وجعل يضارب . فقال عبد الملك : هذا كما قال القائل :

ومدجج كره الكماة نزاله   لا ممعن هرباً ، ولا مستسلم !

وظل مصعب يقاتل إلى أن أثخن بالرمى وكثرت الجراحات فيه ، وتخلى عنه الناس حتى بقى فى سبعة أنفس ، ثم قتل . فأسف عبد الملك لمصرعه ، حيث كان يود لو قبل منه الأمان . وقال — حين وضعت رأسه بين يديه — : « متى تلد قرشية مثلك ! » . وقال : « كانت والله الحرمة بيننا قديمة ، ولكن هذا الملك عقيم ! » . وتحدث عنه غير مرة ، مثنياً على شجاعته وشدة بأسه ومروءته . كما رثاه بعض الشعراء ، فقال :

حمى أنفه أن يقبل الضيم مصعب   فمات كريماً لم تذم خلائقه
ولو شاء أعطى الضيم من رام هضمه   فعاش ملوماً فى الرجال طرائقه

ودعا عبد الملك جند العراق فبايعوه . وسار حتى دخل الكوفة ، وخطب الناس فوعد المحسن وتوعد المسيء ، ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه . وجاءه رجل من الأنصار فأنشد :

الله أعطاك التى ما فوقها   وقد أراد الملحدون عوقها
عنك ، ويأبى الله إلا سوقها   إليك ، حتى قلدوك طوقها

وهكذا تم لعبد الملك النصر ، واستولى على الكوفة والعراق — وكم كان هذا أملاً عزيزاً بعيد التحقيق — فمكنه الله منه . وبذا اتسعت حدود دولته ، وأصبح قريباً من تحقيق هدفه الأكبر ، وهو توحيد الدولة .

ولكنه وهو فى ذروة المجد لم ينس غرور الدنيا وزوالها ، وظهرت فيه طبيعة العابد الناسك القديم ، فتذكر الآخرة . وذلك حين صنع له أحد زعماء العراق مائدة فى قصر الخورنق — مقر ملوك الحيرة — وأمر عبد الملك أن

تكون عامة، فأذن للناس فدخلوا. فبعد أن فرغوا من طعامهم، وأقبل عبدالملك يطوف فى القصر، وهو يسأل مضيفه: لمن هذا البيت، ومن بنى هذا؟ فيخبره — جعل عبد الملك ينشد:

وكل جديد يا أميم إلى البلى وكل امرىء يوما يصير إلى كان

ثم أتى مجلسه فاستلقى، وأنشد:

اعمل على مهل، فإنك ميت واكدح لنفسك أيها الإنسان

فكأن ماقد كان لم يك، إذ مضى وكأن ما هو كائن قد كان

وأقام عبد الملك بالعراق مدة، فولى الولاة على المصرين: الكوفة، والبصرة، وسائر أعمال العراق. وبعث وهو بالكوفة جيشاً عدده ثلاثة آلاف أو أكثر جعل قيادته للحجاج بن يوسف الثقفى، وذلك لمحاربة عبدالله بن الزبير بمكة. وكان ممن ولاهم عبد الملك: أخوه بشر بن مروان على الكوفة، وخالد بن عبد الله (وهو أموى) على البصرة، ليتولى حرب الخوارج. ثم رجع الى الشام. وذلك سنة ٧٢ هـ.

٢ ـ الموقعة الثانية:

الاستيلاء على الحجاز

لما بلغ عبد الله بن الزبير خبر قتل أخيه مصعب، قام فى الناس فخطب خطبة تعد من أبلغ وأروع ما يقال فى مثل هذا الموقف: عبر فيها عن جلده وصبره عند الشدائد، وتسليمه لقضاء الله، واستهانته بأمر الدنيا ـ قال فيها:

« الحمد لله الذى له الخلق والأمر والدنيا والآخرة ... ألا وإنه قد أتانا من العراق خبر أحزننا وأفرحنا: أتانا قتل مصعب — رحمة الله عليه. فأما الذى أفرحنا فعلمنا أن قتله له شهادة. وأما الذى أحزننا فإن لفراق

الجيم لوعة يجدها حميمه عند المصيبة ، ثم يرعوى من بعدها ذو الرأى والدين إلى جميل الصبر وكريم العزاء . ولئن أصبت بمصعب ، لقد أصبت بالزبير قبله ، وما أنا من عثمان بخلو مصيبة . وما مصعب إلا عبد من عبيد الله ، وعون من أعوانى .

إلا إن أهل العراق أسلموه وباعوه بأقل الثمن . فإن يقتل ، فإنا والله لا نموت على مضاجعنا كما يموت بنو أبى العاص ، وما نموت إلا قعصا بالرماح وموتا تحت ظلال السيوف .

ألا إنما الدنيا عارية من الملك الأعلى الذى لا يزول سلطانه ولا يبيد ملكه. فإن تقبل لا آخذها أخذ الأشر البطر ، وإن تدبر لا أبك عليها بكاء الخرق المهين . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

وأعلن عزمه على مواصلة القتال .

كان هذا هو شعور عبد الله بن الزبير ، وهو الشعور الجدير بمثله . لكن فى الحقيقة كان الموقف قد أصبح فى غاية الحروجة بل الخطورة ، بالنسبة له . فإن استيلاء منافسه عبد الملك على العراق كان معناه أن دولته بالحجاز قد صارت أيامها معدودة . فإن العراق إذا انضم إلى الشام ومصر ، فقد أصبح فى يد عبد الملك معظم الدولة الأصلية الكبرى ومعظم القوة ، ولن يستطيع الحجاز أن يقف أمامها طويلا . على أن العراق كان هو الجناح الأيمن الذى يحمى الحجاز ، وكان ابن الزبير يستمد منه المدد لصد غارات الشام ، فالآن قد انكسر الجناح وضاع ، وذهبت الحماية .

ولذا فإن عبد الملك كان مصيباً حين اختار أن يوجه ضربته الأولى القاضية إلى العراق ، لا إلى الحجاز . وكانت هذه هى « الاستراتيجية » ، أو الخطة

الحربية السليمة . فأصبح الحجاز بعدئذ محصوراً ، وغدا ابن الزبير محصوراً في مدينته « مـكة » . وهذا القطر قليل الموارد ، فيمكن أن يسلم حتى بالحصار من غير حرب .

***

وجاء الحجاج — أحد جبابرة العرب — بجيشه الذى ذكرناه، فوصل إلى الحجاز ونزل بالطائف ـ وهى بلدته الأولى لأنه من ثقيف — ثم بدأ حصاره لعبد الله بن الزبير فى مكة ، فى أول ذى القعدة من عام ٧٢هـ . وبعد المناوشات التمهيدية أرسل إلى عبد الملك يستمده ، فأمده بجيش آخر على رأسه طارق ابن عمرو . فاحتل هذا الجيش المدينة فى طريقه ثم وصل إلى مـكة ، وانضم إلى الحجاج . والواقع الذى يسجله التاريخ أن عبد الله بن الزبير ، ومن ثبت معه ، قد ضربوا مثلا رائعاً فى الشجاعة والصبر ، إذ استطاعوا أن يصمدوا أمام هذا الجيش المحاصر لهم — مع تفوقه عليهم فى العدد والعدة والمئونة — وحالوا بينه وبين أن يستولى على مـكة والحرم ، مدة طالت نحو سبعة أشهر على حين أنه كان يكفى مثل هذا الجيش نحو شهر — أو أقل — لإتمام المهمة . وقد لجأ الحجاج إلى استخدام المنجنيق ، فنصبه على جبل مشرف على مـكة ورمى به خصومه. ويروى أن الحجارة كانت تقع بين يدى ابن الزبير وهو يصلى فلا ينصرف .

لـكن الحصار كان لا بد أن يحدث أثره ، بمرور الوقت . فنضبت المؤن وأصابت أهل مـكة مجاعة شديدة ، أجهدتهم مع القتال . وكان الحجاج — وفقاً لما أمره به عبد الملك — قد عرض الأمان على عبد الله بن الزبير وأصحابه، وأهـل مـكة . فلما طال الحصار وبلغ الجهد بالناس غايته ، رأى

أكثرهم أن يخرجوا إلى الحجاج ويقبلوا الأمان . فأخذوا يتخلون عن عبدالله ابن الزبير ، حتى بلغ من خرجوا من عنده عشرة آلاف ، ومن بينهم ابناه : حمزة وخبيب .

حـــديث بين أم عربية وابنها

فلما رأى عبد الله قلة من معه، وأن المعركة قاربت نهايتها ـ دخل على أمه، وهي السيدة أسماء بنت أبي بكر ، ليودعها . فجرى بينه وبينها حديث، يعد من أعظم ما سجل من أحاديث في أوقات الخطر ، ويشهد بقوة النفس والبطولة : لكل من الأم العربية المؤمنة وابنها البطل .

قال عبد الله : « يا أماه ، قد خذلني الناس حتى ولدي وأهلي » ولم يبق معي إلا اليسير، ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا . فما رأيك ؟

فقالت : أنت أعلم بنفسك . إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو ، فامض له ، فقد قتل عليه أصحابك . ولا تمكن من رقبتك ، يتلعب بها غلمان بني أمية . وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك ومن قتل معك . وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ، ولا أهل الدين . كم خلودك في الدنيا ؟ القتل أحسن !.

فقال : يا أماه ، أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني .

قالت : يا بني ، إن الشاة لا تتألم من السلخ بعد الذبح. فامض على بصيرتك، واستعن بالله .

فقبل رأسها ، وقال : هذا والله رأيي ، والذي قمت به داعياً إلى يومي هذا. ما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب

لله أن تستحل حرماته . ولكنى أحببت أن أعلم رأيك ، فقد زدتنى بصيرة . فانظرى يا أماه فإنى مقتول فى يومى هذا ، فلا يشتد حزنك وسلمى الأمر إلى الله .

فقالت أمه : إنى لأرجو من الله أن يكون عزائى فيك حسناً ، إن تقدمتنى احتسبتك ، وإن ظفرت سررت بظفرك. اخرج حتى أنظر إلى مايصير إليه أمرك .

فقال : جزاك الله خيراً ، فلا تدعى الدعاء لى .

قالت . لا أدعه لك أبداً . فمن قتل على باطل ، فقد قتلت على حق .

ثم قالت: اللهم ارحم طول ذاك القيام فى الليل الطويل ، وذلك النحيب والظمأ فى هواجر مكة والمدينة ، وبره بأبيه وبى . اللهم قد سلمته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت ، فأثبنى فيه ثواب الصابرين الشاكرين .

فقبل يدى أمه ، ثم خرج ، فعبأ أصحابه ، وحرضهم وقال لهم احملوا على بركة الله .ولا يلهينكم السؤال عنى ، فمن كان سائلا عنى فإنى فى الرعيل الأول. وحمل على مهاجميه حملة منكرة ، فقتل منهم ، ثم تكاثروا عليه فانكشف هو وأصحابه . فقال له بعضهم: لو لحقت بموضع كذا . قال : « بئس الشيخ أنا إذاً فى الإسلام ، لئن أوقعت قوماً فقتلوا ، ثم فررت عن مثل مصارعهم » . وظل يقاتل قتال الأبطال ، وهو « مثل الأسد فى أجمة » ! حتى أثخنته الجراحات ، وقتل . وكان قتله يوم الثلاثاء لسبع عشرة مضت من جمادى الأولى سنة ٧٣ هـ .

وهكذا انتهت فترة من التاريخ استمرت تسع سنوات متتالية ، منذ قام عبد الله بن الزبير يدعو إلى نفسه بالخلافة ـ عقب موت يزيد فى عام ٦٤ هـ ـ

وكم حدث فى هذه الفترة من وقائع وخطوب . وعلى الأثر ، دخل الحجاج مكة واستولى عليها ، فبايع أهلها لعبد الملك بن مروان . وبدأ منذ ذلك الوقت عهد جديد .

* * *

فالآن ، قد استولى عبد الملك على الحجاز ـ كما استولى فى العام السابق على العراق . وكان تحت يده الشام ومصر . فاجتمعت إذن هذه الأقطار — وهى الأركان الأربعة للوطن العربى ، والعمد الرئيسية لدولة الإسلام ـ اجتمعت مرة أخرى لتكون دولة واحدة ، تحت لواء خليفة واحد . فالنقطة المهمة فى الموضوع أن المنافس فى الخلافة ، وهو ابن الزبير ، قد انتهى ، وانتهت دولته التى بها كانت تنشطر الدولة الأصلية الموحدة إلى قسمين . فلم يعد هناك مدع للخلافة أو معلن حقه فيها ، ولم يعد الولاء موزعاً ، وإنما قد أصبح فى الدولة العربية الإسلامية خليفة واحد ، هو عبد الملك بن مروان ، وهو وحده الذى يدعى « أمير المؤمنين » . وأصبح لهذه الدولة كلها عاصمة واحدة الآن ، وهى « دمشق » .

* * *

والكلمة الأخيرة التى تقال عن عبد الله بن الزبير أنه كان رجلا مسلماً تقياً عابداً إلى درجة مثالية ، كما كان شجاعاً أبياً إلى درجة البطولة ـ كما رأينا ـ وكان يعتقد أنه على الحق وأنه يدعو للحق ، ومن أجل هذا جاهد وقاتل . لكن هذا كله لا يعنى أنه كان كفؤاً — أيضاً — بدرجة متساوية — فى ناحية السياسة والإدارة ، وتصريف الأمور وقيادة الجماهير ، بل الواقع — الذى رأيناه — أنه كان ينقصه كثير من الصفات اللازمة لتوفر هذا الشرط : كان أقل من عبد الملك كثيرا ، فى ذلك .

وقد بينا فى الماضى أهم صفاته وعيوبه ، وحللنا العوامل التى أدت إلى عدم نجاحه . فلا نحتاج لإعادتها هنا . لكننا نذكر بعامل هام ، وهو ملازمة ابن الزبير لمكة لا يبرحها أبدا . فهل مما يشهد على الكفاءة فى القيادة والإداره ، والنجاح فى الزعامة السياسية ، أن تحكم الدولة وتدار وتوجه والقائد أو الزعيم غائب عنها ، معتكف فى مكان بعيد لا يريد أن يفارقه ؟! . وعلى الأقل — كان عبد الملك شابا بالنسبة إلى ابن الزبير ، الذى كان شيخا كبيرا . فهذه الصفة تساعد الأول على النشاط ، وتمكنه من مباشرة الأمور . كما أن عبد الملك كان — كما عرفنا من سيرته السابقة فى حياته الطويلة بالمدينة — كان أوسع ثقافة من ابن الزبير ، وأكثر ذكاء وخبرة عملية . إن بنى أمية — على العموم — كانوا ممتازين فى السياسة والإداره . وعبد الملك كان من أكفئهم فى ذلك .

أمثلة البطولة العربية

وقبل أن نجتاز هذه الفترة من حياة الأمة — فترة الخلاف والانقسام والحرب — أو فترة الفتنة كما كانت تسمى — ويمكن ان يقال إنها بدأت منذ عام ٦١ هـ — منذ خروج الحسين إلى الكوفة ، واستمرت إلى هذا العام ٧٣ ، فانتهت بمقتل عبد الله بن الزبير فى مكة — أى أنها استمرت ثلاثة عشر عاما — نقول : إننا نريد أن نلاحظ ، قبل أن نعبرها ، أننا شاهدنا — فى نفس الوقت — مظاهر مثيرة من حيوية أمة العرب والإسلام ، وأن كل فريق قام ليدافع عما يعتقد أنه الحق . وشاهدنا أمثلة رائعة من البطولة وقوة الشخصية العربية الأصيلة التى لا تقبل الذل ، وتفضل الموت فى كرامة على الحياة الذليلة . وعرفنا كيف أنها تقدر الشرف فوق الحياة ، وكل عروض

الدنيا . فكانت قوة مستمدة من روح العروبة الحقة ، ومن قوة عقيدة لم الله وعزة نفسه .

رأينا كيف قابل الأبطال الموت فى كبرياء وتحدى ، فعاشوا أمجادا وماتوا كراما . وهكذا رأينا مصارع عبد الله بن الزبير ، ومن قبله أخيه مصعب بن الزبير ، وإبراهيم بن الأشتر ، ومن قبلهم المختار بن أبى عبيد ، وسليمان بن صرد ، والمسيب بن نجبة . وقبل الجميع البطل الأكبر ، الذى تحدى جيشا بمفرده ، وانتصر عليهم بقوة إرادته وروحه ، وهو الحسين عليه السلام . ولو اضطرت الظروف عبد الملك أن يقف فى مثل هذه المواقف الحرجة ، لكان مثـــل هؤلاء الأبطال ، ولقابل الموت فى شجاعة بدلا من التسليم بالذل ، لأنه عربى مثلهم مؤمن مثلهم ، بل من أصفى معادن العروبة ، وعلى درجة عالية من قوة الإيمان . لكنه لم يضطر إلى ذلك ، لأنه وفق فى حياته وانتصر فى النهاية فى حروبه ، واستعمل السياسة الموصلة إلى الغايات قبل السيف ، وكتب الله له أن يكون القائد الذى يوحد صفوف الأمة ، والزعيم الذى يجمع شملها ويعيد وحدتها وقوتها .

الفصل الثامن

عام الجماعة وإتمام الوحدة

عام ٧٤ هـ :

لما كان عام ٧٤ هـ هو أول عام يحل وكلمة الأمة مجتمعة بعد خلاف طويل، وقد انتهى النزاع حول الخلافة ، فقد سمى الناس هذا العام بعام الجماعة . والمقصود بالجماعة : الوحدة . وهو عام الجماعة الثانى ، لأنه سبق عام جماعة أول — وكان ذلك عام ٤١ هـ ، حين اجتمعت كلمة الأمة على معاوية بعد تنازل الحسن بن على .

* * *

وقد تمت البيعة لعبد الملك بن مروان فى الحجاز والعراق ، كما تمت البيعة له من قبل فى الشام ومصر .

وكانت البيعة جاءته أيضاً من خراسان فى عام ٧٢ هـ — أرسلها إليه بكير بن وشاح السعدى الذى كان نائباً على « مرو » بعد مقتل عبد الله بن خازم ، الذى تغلب على خراسان ثمانى سنوات وكان مواليا لابن الزبير . ثم تأكدت بيعة خراسان فى هذا العام ٧٤ هـ ، وأرسلوا يطالبون من عبد الملك أن يولى عليهم أميرا قرشيا ، حتى لا تختلف عليه القبائل. فولى عليهم « أمية بن عبد الله » — وهو أموى قرشى أخو « خالد بن عبد الله » ، الذى ولاه على البصرة.

* * *

وبايع من الزعماء الذين يعتد برأيهم المهلب بن أبى صفرة — وكان القائد على حرب الخوارج — فأرسل ببيعته إلى عبد الملك بن مروان ، عندما علم بمقتل مصعب فى عام ٧٢ هـ ، وأخذ البيعة لعبد الملك على الجند . فأقره عبد الملك على عمله ، ومر بطاعته .

وتوجه عروة بن الزبير،على أثر مقتل أخيه عبد الله، إلى عبد الملك. فوفد عليه فى دمشق وبايعه — وكان صديقا له من قبل فى المدينة -- وأخذ الأمان لنفسه وأهله .

وبايع عبد الله بن عمر عقب مقتل عبد الله بن الزبير ، فكتب إلى عبد الملك يقول : « لعبد الملك بن مروان من عبد الله بن عمر : سلام عليك . فإنى أقررت لك بالسمع والطاعة على سنة الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . وبيعة نافع مولاى على مثل ما بايعتك عليه » .

كذلك بايع محمد بن على (المهدى — المعروف بابن الحنفية) (أخو الحسين ، وهو ابن على بن أبى طالب) . ولبيعته أهمية كبيرة ، لأنه عميد بنى هاشم فى ذلك الوقت ، وزعيم الشيعة . فهو يمثل إحدى طوائف الأمة . فبعد مقتل عبد الله بن الزبير ومبايعة عبد الله بن عمر لعبد الملك ، قال عبد الله بن عمر لمحمد بن الحنفية : « ما بقى شىء ، فبايع » .

فكتب محمد بن على إلى عبد الملك : « بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين من محمد بن على . أما بعد ، فإنى لما رأيت الأمة قد اختلفت اعتزلتهم . فلما أفضى هذا الأمر إليك وبايعك الناس ، ورأيت الناس قد اجتمعوا عليك ، كنت كرجل منهم أدخل فى صالح ما دخلوا فيه . فقد بايعتك، وبايعت الحجاج لك ، وبعثت إليك ببيعتى . ونحن نحب أن تؤمننا وتعطينا ميثاقا على الوفاء » .

فكتب إليه عبد الملك : « إنك عندنا محمود . أنت أحب وأقرب إلينا رحما من ابن الزبير . فلك العهد والميثاق وذمة الله وذمة رسوله أن لا تهاج ولا أحد من أصحابك بشيء تكرهه . إرجع إلى بلدك واذهب حيث شئت . ولست أدع صلتك وعونك، ما حييت » . وكتب إلى الحجاج يأمره بحسن جواره وإكرامه . فرجع ابن الحنفية إلى المدينة وبنى بها داره وأقام بها .

* * *

وكان مما كتب عبد الملك إلى الحجاج في هذا الشأن : « لا تعرض لمحمد ولا لأحد من أصحابه » . وكان في كتابه: « جنبي دماء آل أبي طالب فليس فيها شفاء من الحرب . وإني رأيت بني حرب سلبوا ملكهم ، لما قتلوا الحسين بن علي » . وبناء عليه ، لم يتعرض الحجاج لأحد من الطالبيين في أيامه . وهذا الأمر من عبد الملك يدل على حكمته السياسية وسعة صدره وأفقه ، وأنه استخلص العبرة من الأخطاء التي ارتكبها يزيد ، فلا يريد أن يقع فيها . وظلت علاقة « محمد بن علي » به طيبة ، فكتب إليه محمد يستأذنه في القدوم عليه فأذن له ، فلما جاءه في عام ٧٨ أكرمه ووصله ، وقضى ديونه وحوائجه . وهكذا حتى مات محمد في عهد عبد الملك في عام ٨١ هـ آمنا سعيدا .

أما آل العباس فكانوا انضموا أيضاً إلى عبد الملك من قبل ، وكان عبد الله بن العباس لما امتنع عن البيعة لابن الزبير — كما ذكرنا من قبل — أرسل ابنه « عليا » إلى عبد الملك وبايعه . فظل « علي » — وهو جد الخلفاء العباسيين — مع عبد الملك حتى خرج معه لقتال مصعب . وبقي موضع العطف والرعاية . وهكذا كانت العلاقات حسنة بين عبد الملك ، أو بني أمية على العموم ، وبني عمهم : من بني هاشم — علويين وعباسيين — وذلك في عهد

عبد الملك . وظلت العلاقات حسنة بين الأسرتين مدة غير قصيرة بعد ذلك . وهذا مما يشهد بحسن السياسة .

ولا شك أن من أهم العوامل التى ساعدت عبد الملك على النجاح ، ودعت الناس — ولا سيما هؤلاء الزعماء — إلى الالتفاف حوله والرضا به ، والإقبال على مبايعته — على خلاف ما كان الحال مع غيره — هو شخصيته ومعرفة الناس أنه يتمتع بالصفات المتميزة التى تؤهله للزعامة أو تتوافر فيه الشروط اللازمة للخلافة. وفى مقدمة ذلك ما عرف عنه من طيب النشأة وحسن السيرة والخلق — على النحو الذى وصفناه فى أثناء حياته الطويلة بالمدينة — واجتهاده فى العبادة والعلم . ولا نعرف ما يدل على أن هذه السيرة قد تغيرت بعد توليه الخلافة ، وإن كان وقته قد أصبح مشغولا بشئون السياسة والحرب والإدارة أكثر من غيرها . ولكن هذه أيضا خدمة المسلمين ، وعبادة جليلة بل من أجل ضروب العبادة .

* * *

فالآن ، قد أعان الله عبد الملك على تحقيق هدفه الأكبر ، والأمنية الغالية لجميع المسلمين : وهى جمع شمل الأمة وتوحيدهم فى دولة واحدة . وهذا هو الضمان لبقاء الأمة وازدياد قوتها .

وقد كلل عبد الملك هذه المرحلة من النجاح بأن توجه إلى الحج ، فذهب إلى الحجاز وحج بالناس فى موسم عام ٧٥هـ . وأقام مدة بمكة ثم المدينة ، وتحدث إلى الناس وخطبهم ورسم لهم سياسته . والواقع أن تحركه من دمشق إلى مكة والمدينة فى تلك السنة إنما كان موكب الظفر ، لدخوله المدن التى كان فيها خصومه ، والتى طالما شنت الحرب . فها هى ذى تعود لتبايعه وترضى به — وما كان

عبد الملك غريبا عن المدينة . ومنذئذ يندمج الحجاز مع الأقطار الأخرى في الدولة الواحدة : دولة العرب والإسلام الموحدة، التي تستأنف سيرها نحو النصر

معارك تصفيه

لإتمام الوحدة

تحققت وحدة الدولة ، وبايع العواصم والأقطار لعبد الملك . لكن فئة شاذة ، قليلة بالنسبة إلى كثرة الأمة ، بقيت خارجة — كدأبها — على إرادة الجماعة . وهم المتطرفون ، الذين أداهم تعصبهم إلى المروق من الدين ، وشنوا الحرب على المسلمين ، وهم الخوارج . وكانوا طائفتين : طائفة ببلادفارس وهم الأزارقة ، وكانوا أشدهم ، وطائفة باليمامة ، وهم أتباع نجدة وأبي فديك . كما كانت هناك جماعات أخرى صغيرة .

غير أن مسألة الخوارج — بعد توحد الدولة — قد أصبحت أشبه بحركة تمرد ، وصارت مشكلة محدودة ، وبانت نهايتها قريبة ومحتومة . وكل ما كان يتطلب هو أن تصدق الجهود وتعد القوة الكافية وتوضع الخطة السليمة ، لمقاومتها والقضاء عليها . على أن الخوارج — وقد عرفوا بالبطولة والحماسة وشدة البأس — كانوا لابد أن يكلفوا الدولة جهودا وأعباء غير قليلة، ويخوضوا معارك عنيفة ، قبل أن يقضى عليهم نهائيا. ومهما يكن من أمر المعارك الباقية فهي لا تصح أن تسمى إلا أنها « معارك تصفيـة » . ونكتفي بإيراد موجز تاريخي لها . وستكون هـذه المشكلة هي المناسبة لظهور شخصية معروفة : هي شخصية «الحجاج» .

* * *

اهتم عبد الملك بأمر الخوارج بمجرد أن استولى على العراق، عقب مقتل مصعب عام ٧٢ هـ. وأرسل إليه المهلب حينئذ ببيعته، وبيعة جنده.

فعين عبدالملك على البصرة أحد رجال بنى أمية، وهو «خالد بن عبد الله (من بنى أبى العيص بن أميـة) وأمره بقتال الخوارج. وكان رئيس الخوارج حينئـذ هو «قطرى بن الفجاءة». وكان المهلب يحاربه طوال مدة مصعب،ولم يقدر على إنزال هزيمة كبيرة به، لضعف دولة ابن الزبير واختلال الأحوال. لـكن المهلب كان أعـرف الناس بالخوارج، وأصلح قائد لقيادة الحرب ضدهم. فارتكب «خالد» بعد أن ولى البصرة خطأً كبيرا، وهو أنه عزل المهلب عن ولاية الحرب، وعينه على ولاية الخراج بالأهواز. وبعث مكانه أخاه «عبد العزيز بن عبد الله»، على رأس جيش جديد. فهزم عبد العزيز هزيمة منكرة، على يدى قطرى والخوارج، وتفرق جيشه.

فلما بلغ عبد الملك الخبر، أرسل يؤنب «خالدا» تأنيبا شديدا، لبعثه أخاه «أعرابيا من أهل مكة» على القتال، وتركه المهلب إلى جانبه يجبى الخراج «وهو الميمون النقيبة، الحسن السياسة، البصير بالحرب، المقاسى لها، ابنها وابن أبنائها» — كما قال عبد الملك. وأمره أن يعيد المهلب إلى الحرب، ويستشيره فى كل الأمور.

وفى نفس الوقت، كان خالد قد بعث بجيش آخر — على رأسه أخ ثان له، هو «أمية بن عبـد الله» — ليقاتل الخوارج الآخرين، الذين هم باليمامة. وكان رئيسهم إذ ذاك «أبو فديك»، الذى خرج منذ قليل على «نجدة بن عطية» الزعيم السابق، وقتله. فسار أمية بجيشه، فهزمه أبو فديك وتفرق عنه القوم فماد وعادوا إلى البصرة.

* * *

فبعد أن كتب عبد الملك إلى خالد بما مر، خرج خالد بنفسه، وأحضر معه المهلب. وأمده بشر بن مروان — الذى كان والى الكوفة — بجيش آخر، كما أمره أخوه عبد الملك. فأحرز خالد نصراً على الخوارج، واضطرهم إلى التقهقر عن الأهواز، وأرسل وراءهم من يتتبعهم، ويقتل فيهم. وأمر عبد الملك بشرا أن يرسل أيضا مددا من الكوفة على رأسه «رجل شجاع بصير بالحرب». فأرسل مددا، عليه عتاب بن ورقاء. فما زال الجندان يتتبعان الخوارج، حتى نفقت خيولهم وأصابهم الجهد. فرجعوا إلى البصرة.

وفى العام التالى: ٧٣ هـ، وجه عبد الملك عمر بن عبيد الله بن معمر — وهو القائد المجرب، نظير المهلب — على رأس جيش كبير، لقتال خوارج أبى فديك. فلما انتهى عمر بجيشه إلى البحرين، حدثت موقعة عنيفة، كاد أن يهزم فيها، لولا ثبات أهل الكوفة وأبطال البصرة. ثم دارت الدائرة على أبى فديك، فقتل، وهزم جيشه وحصر. ثم نزلوا على حكم عمر بن عبيد الله، فقتل أكثرهم، وأسر أعداداً كبيرة. وانتهى أمر هؤلاء الخوارج.

بشر بن مروان

عزل عبد الملك خالداً عن البصرة فى ذاك العام ٧٣ هـ، وولى عليها أخاه بشراً مع الكوفة. فأصبح بشر بن مروان والى العراق كله. وبعث إليه عبد الملك حينئذ، بهذا الكتاب :—

«أما بعد، فابعث المهلب فى أهل مصره إلى الأزارقة. ولينتخب من أهل مصره وجوههم وفرسانهم وأولى الفضل والتجربة منهم، فإنه أعرف بهم. وخَلِّه ورأيه فى الحرب، فإنى أوثق شىء بتجربته ونصيحته للمسلمين. وابعث من أهل الكوفة بعثاً كثيفاً، وابعث عليهم رجلا معروفاً شريفاً حسيباً صليباً،

يعرف بالبأس والنجدة والتجربة للحرب . ثم أنهض إليهـم أهل المصرين ، فليتبعوهم أى وجه ماتوجهوا ، حتى يبيدهم الله ويستأصلهم . والسلام عليك» .

وهذه الرسالة والأحداث السابقة تدل على شدة اهتمام عبد الملك بمسـألة الخوارج ، وتشهد بإشرافه على الأمور ومباشرته لأعمال الدولة . فهو الذى يصدر التوجيهات ويضع الخطط ويرسم الحلول . وهـذا دليل على كفاءته وسهره على مصلحة الأمة .

نفذ بشر أوامر أخيه — على مضض — إذ كان ينفس على المهلب مابلغه من مكانة . وأرسل معه قائداً آخر ليعارضه . وخرج الجيشان ، ولـكن بعـد وصولهم إلى الميدان بقليل ، جاء الخبر بنعى بشر . كانت وفاته فى عام ٧٤ هـ .

فسرى التخاذل فى الجيش ، وارفض ناس كثير من أهل البصرة وأهل الـكوفة ، وأخذوا ينصرفون إلى العراق .

وعبثاً حاول « خالد بن عبدالله » ـ الذى كان نائب بشر على البصرة ، وكان واليها من قبل ـ عبثاً حاول أن يرد الناس إلى الميدان ، ليؤدوا واجبهم . وفى محاولاته ، كتب إليهم هذا الخطاب :

« أما بعد ، فإن الله كتب على عباده الجهاد ، وفرض طاعة ولاة الأمر ، فمن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ، ومن ترك الجهاد فى الله كان الله عنه أغنى . ومن عصى ولاة الأمر والقوّام بالحق أسخط الله عليه . . أيها المسلمون ، إعلموا على من اجترأتم ومن عصيتم : إنه عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين ، الذى ليست فيه غميزة ، ولا لأهل المعصية عنده رخصة . سوطه على من عصى ، وعلى من خالف سيفه . فلاتجعلوا على أنفسكم سبيلا . . » .

فما أجدى كل ذلك ، واستهتر الناس بالأوامر ، وتفرق الجند . وعادوا إلى بلادهم ، وصار الموقف خطيراً .

الحجاج فى العراق

فلما بلغ ذلك عبد الملك ، قرر اتباع سياسة الشدة والحزم ، والغلظة على أهل المعصية . ورأى أن أهل العراق الذين مرنوا على العصيان ، وطالما أوضعوا فى الفتن وسلكوا سبل الغى ، وآثروا الخلاف والشقاق — رأى أنه لا يصلحهم إلا الشدة والقوة . « فنثر كنانته ، ثم عجم عيدانها » ، فانتقى « أمرها عوداً وأصلبها مكسراً » ، فرمى به أهل العراق .

كان هـذا العود المرير الصلب هو : « الحجاج بن يوسف الثقفى » — الذى كان القائد فى حرب عبد الله بن الزبير ، واكتسب مكانة وشهرة من جراء ذلك ، والذى ولاه عبد الملك بعد ذلك ولاية الحجاز ٧٣ — ٧٥ - ثم فى هذا العام ٧٥ هـ ، بعد أن فرغ عبد الملك من مشاكله ، وحقق وحدة الدولة — نقله من الحجاز ، وعينه والياً على العراق كله ، وعلى المشرق — ما عدا خراسان وسجستان .

* * *

جاء الحجاج إلى الكوفة فدخل مسجدها وصعد المنبر ، ثم ألقى خطبته المشهورة التى ملأها بالتهديد والوعيد ، والتى قال فيها :

« يا أهل الكوفة ، إنى لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها ، وإنى لصاحبها . وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى !

« إنى ، والله ، يا أهل العراق ما يقعقع لى بالشنان ، ولا يغمز جانبى كتغماز التين . وإن أمير المؤمنين نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها ، فوجدنى أمرها عودا وأصلبها مكسرا ، فرماكم بى ، لأنكم طالما أوضعتم فى الفتنة واضطجعتم

في مراقد الضلال . « والله لأحزمنكم حزم السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل ، حتى تذروا العصيان وتنقادوا » .

« وقد بلغني رفضكم المهلب ، وإقبالكم على مصركم عصاة مخالفين . وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم ، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة . وإني أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه » !

كانت هذه هي السياسة ، التي أعلن الحجاج أنه سيتبعها مع أهل العراق . وهي سياسة الحكم العرفي أو الحكم العسكري — كما نقول اليوم — وجرى عليها الحجاج طوال حكمه .

المهلب والخوارج

وقد أجدت هذه السياسة ، فيما يتعلق بتنفير الناس إلى حرب الخوارج ، ولحوقهم بالمهلب . فاجتمع إليه جند كثير ، وأصبح جيشه قويا مستعدا لمجابهة الخوارج ، في المعركة الأخيرة . ونشط المهلب إلى حرب الخوارج ، فقاتلهم قتالا شديدا . لكن التغلب على الخوارج — مع ذلك — لم يكن بالأمر السهل ، فهم كانوا « سباع العرب » — كما وصفهم المهلب . وفي بعض المواقع ، قتل أحد كبار قواد المهلب .

ثم اضطر الخوارج — كدأبهم — إلى التقهقر ، واتباع الحركة السريعة . فما زال المهلب يقاتلهم ويناهضهم ، ولا يتمكن منهم من موقعة فاصلة . وذلك طوال عام ٧٦ هـ . وكان هو يفضل الصبر والمكث ، حتى تضعف قوتهم ، ويصيب منهم المقتل . فلما أجلوا عن فارس كلها ، وبعدت ديارهم ، ضاق عليهم العيش وقلت مواردهم ، وانحصروا في كرمان . فتبعهم المهلب ،

وواصل قتالهم . وكانت أشد موقعة له معهم هي موقعة « يوم البستان » ، في عام ٧٧ هـ .

وكان أبناء المهلب أبطالا ، يقاتلون معه في كل هذه الحروب . وقد وفد عليهم رسول من قبل الحجاج لينظر أمرهم ، فقال للمهلب : « ما رأيت كبنيك فرسانا قط ، ولا كفرسانك من العرب فرسانا قط ، ولا رأيت مثل قوم يقاتلونك قط أبأس ولا أصبر . أنت والله المعذور » .

* * *

وأخيرا — وقع الخلاف بين الخوارج أنفسهم . نخلع أكثرهم « قطرى ابن الفجاءة » ، وولوا بدلا منه « عبد ربه الكبير » . وبقى مع قطرى نحو ربعهم أو خمسهم . فتحاربوا وظلوا يقتتلون شهرا . ورأى المهلب أن لا يقاتلهم ، حتى يضعف بعضهم بعضا — على خلاف رأى الحجاج ، الذى كان يريد أن يقاتلهم حينذاك — وكان رأى المهلب أصوب .

فانكشف قتالهم عن خروج قطرى بمن معه ، إلى طبرستان . وبقى عبد ربه ومن تبعه ، وقد ضعفت قوتهم . فحمل عليهم المهلب حينئذ ، حملة أخيرة صادقة . فهزمهم هزيمة تامة ، ولم ينج منهم إلا القليل . واستولى على معسكرهم وما فيه . وهكذا انتهى أمر هؤلاء الخوارج . وذلك فى عام ٧٧ هـ .

أما قطرى — ومن سار معه — فقد توجهوا إلى طبرستان . فأرسل الحجاج إليهم جيشا — بقيادة سفيان بن الأبرد من أهل الشام — فلحقوا بقطرى ، فى شعب من جبال طبرستان . فقاتلوه فتفرق عنه أصحابه ، ووقع عن دابته فى أسفل الشعب وأصيب . فأسرع إليه نفر من أهل الكوفة فقتلوه ، وأخذوا رأسه إلى الحجاج ، فأرسلها إلى عبد الملك .

وتتبع سفيان من بقى من جيش قطرى ، حتى حصرهم فى مكان بعيد اسمه « قومس » . فظلوا حتى جهدهم الحصار ولم يجدوا طعاما ، فخرجوا فقاتلوا فقضى عليهم . وكانت هذه هى نهاية الخوارج الأزارقة فى عام ٧٧ هـ — بعد أن ابثوا يشنون الحرب على جماعة المسلمين منذ عام ٦٤ هـ حين خرجوا مع ابن الأزرق — بلا انقطاع .

صالح وشبيب

وفى نفس الوقت ، كان خرج خارجيان على الحجاج ، شديدا البأس : أولهما « صالح بن مسرح التميمى » الذى خرج بالجزيرة شمال العراق فى عام ٧٦ هـ . فأرسل إليه محمد بن مروان جيشا ، فهزمه . فأرسل إليه الحجاج جيشاً آخر ، فقاتل صالح أشد قتال حتى قتل فى ذاك العام .

* * *

وأما الثانى : فهو « شبيب بن يزيد الشيبانى » — وكان أقوى شكيمة وأشد بأساً ، وأكثر براعة فى فنون القتال . خرج هذا الرجل مع صالح — وكان على مذهبه — ثم حل محله بعد أن قتل ، وانضم جند صالح إليه .

كان أمر شبيب عجيبا ، وقصته ما هى إلا ملحمة ، تشبه إحدى أساطير الأبطال القدماء . لقد ظل شبيب يقاتل فى جماعة قليلة لا تزيد على ألف ، فلم يستطع أحد أن يتغلب عليه . كانت حربه أشبه بحرب العصابات : لا يثبت فى مكان ، يتقن الكر والفر والحركة السريعة ، ويوجه الضربة المباغتة . فلبث الحجاج يرسل إليه الجيش وراء الجيش ، فيبدد الجيوش ويقتل القواد ، وهزم وقتل عدداً من كبار قواد الكوفة . ودخل الكوفة مرتين ، ووضع الحجاج

فى مأزق ، وكاد أن يستولى على المدينة . ولولا ثبات الحجاج — وكان يثبت فى موقف الخطر — وقيادته المعركة بنفسه ، لتم لشبيب ما أراد .

وكان من أسباب نجاح شبيب أن أكثر جند العراق كان متغيباً ، مشغولا بحرب الخوارج الأزارقة ، فى نفس الوقت — على ما وصفنا من قبل — كما أن العلاقات كانت سيئة بين أهل العراق والحجاج ، لسياسته الشديدة ، وجبريته. فلم ينقذ الحجاج إلا أهل الشام ، حيث أرسل الحجاج يستنجد بعبد الملك ، فأنجده بجيش من الشام . وعلى يد هذا الجيش ، تمت هزيمة شبيب . لكنه لم يقتل فى معركة ، وإنما مات غرقا فى نهر ، وهو يعبر بحصانه على قنطرة عليه ، فزلت قدم فرسه ، فوقع بصاحبه فى الماء . وكان ذلك فى سنة ٧٧ أيضاً . فياله من فارس هزم الفرسان ، وبطل أعيى الأبطال .

سياسة الحجاج

لكن هذا كله لا يبرر عدم نجاح الحجاج فى القضاء عليه بسرعة ، وهزيمته أو قتل هذا العدد من القواد ، الذين أرسلهم اليه . فهذا يبين — أولا — نقصاً فى كفاءة الحجاج . ويشير — ثانية — إلى ناحية خطيرة ، وهى أن سياسة الشدة والغشم ، التى اتبعها الحجاج ، إذا كانت أجدت فى إخراج الناس لحرب الخوارج — فإنها فى ذات الوقت قد أفسدت قلوبهم ونياتهم ، وأصبحت الجفوة بعيدة بين أهل العراق وبينه . ولقد صار أهل العراق يكرهونه ، إلا من كانت مصالحهم تتفق مع البقاء معه .

وهذه السياسة أدت إلى قيام ثورة فى البصرة عليه فى خلال عام ٧٦ هـ —

قادها عبد الله بن الجارود ، وأيده عدد من القواد . وكاد الحجاج يهلك فيها أيضاً ، لولا ثباته وحسن حظه ، وانضمام بعض القواد اليه .

ولم يكن هناك من سبب قوى لكى يعرض نفسه لهذه الثورة ، وهذا الخطر . فقد كان سببها أنه رفض أن يجيز زيادة فى أعطيات الجند ، كان قررها مصعب فى أواخر أيامه . فكان رفض الحجاج لهذه الزيادة — فى الواقع — تعنتا وبخلا ـ ولاسيما أن بشر بن مروان كان أقر هذه الزيادة. فكان أحسن فى السياسة لو أجاز الحجاج هذه الزيادة ، وبذلك يرضى الناس والقواد ، ويضمن تأييدهم بدل إغضابهم وإثارتهم . إن التضحية بالأموال خير من التضحية بالرجال . ولئن كان الحجاج نجح فى إخماد الثورة والقضاء على من خرجوا عليه فما كسب بذلك بل خسر كثيراً .

* * *

وقد أدت هذه السياسة أيضاً إلى ثورة رجل من أهل بيت ، عرف بإخلاصه للدولة — وهو «مطرف بن المغيرة بن شعبة» — وكان إذ ذاك واليا على « المدائن » . فلم يرض عما وصفه بأنه : « سياسة جور وتسلط بالجبرية» ! وقام بثورة فى عام ٧٧ هـ ، تبعه فيها ناس كثير . فأرسل اليه الحجاج جيشاً فلحق بالجبال . وما زال يقاتل ، حتى قتل فى ذاك العام . وسيكون لشدة الحجاج وجبريته أيضاً آثار خطيرة ، ستظهر فى ثورة قادمة ، وتعرض الحجاج والدولة كلها ـ وقتاما ـ للخطر . وسنتكلم عنها فى الفصل التالى .

* * *

فالحقيقة التى نريد أن نقررها أن سياسة الشدة والعسف ، إذا كانت

تنجح فى ظروف حربية خاصة ولمدة مؤقتة ، فإنها لاتنفع أن تكون سياسة دائمة تساس بها الشعوب ، وإنها تؤدى إلى عواقب خطيرة .

فملخص الحكم على الحجاج أنه كان حاكما عسكريا ، ولم يكن سياسيا ، ولا قائداً حربياً . وكان يجب على عبد الملك — بعد أن انتهى أمر الخوارج أن يعزله ، ويبدله بحاكم أكثر سياسة ، وأوسع أفقاً ، ليجتذب قلوب الناس بدل أن يزيدهم نفوراً . ولكن يظهر أن عبد الملك كان سيىء الاعتقاد فى أهل العراق ، وكان يرى أنه لايصلح لهم إلا الشدة والقوة ، وإلا أحدثوا الفتن ولم يطيعوا الأوامر ، وأنه لايخضعهم إلا مثل الحجاج .

وكانت فى الرجل مزايا لها قيمتها — ولاشك — هى التى جعلت الخليفة يتشبث به . ففى مقدمتها ، شدة إخلاصه لرئيسه عبد الملك ، وتفانيه فى خدمة الدولة وأداء واجبه . ومنها قوة شخصيته وإرادته ، ورغبته فى الإصلاح والتعمير وكفاءته الإدارية ، واهتمامه بشأن الفتوح التى سيكون له فيها أثر كبير . لكن هذا كله لايوازى حب الناس ، وطاعة الرعية عن رغبة ، والوثوق بإخلاصهم للوقوف مع الدولة فى أوقات الشدة . فالقاعدة المتينه الراسخة التى يؤسس عليها الحكم ، وتقام عليها الدول ، إنما هى حب الشعب لمن يحكمونه وإخلاصه لهم .

دولة كبرى واحدة

على كل ، فإنه — فيما يتعلق بالخوارج — قد نجح الحجاج فى القضاء عليهم ، ولو بعد جهود كثيرة . وكان للمهلب الفضل الأكبر فى هزيمة الأزارقة . وانتهت حينئذ فتنتهم ، وأخمدت الثورات الأخرى ، وذلك فى سنة ٧٧ هـ . فعند ذلك تمت وحدة الدولة ، نهائياً . ولم يعد هناك استثناء ولاشذوذ .

صارت الدولة — من حدود نهر بلخ ، وجبال سجستان ومشارف الهند شرقاً ، إلى أواسط بلاد المغرب غرباً ، ومن بحر قزوين والبحر الأسود شمالا ، إلى حدود النوبة والسودان جنوباً — صارت دولة واحدة وكتلة واحدة ، ليس عليها إلا خليفة واحد : هو عبد الملك بن مروان ، من بنى أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف ، وليس لها إلا عاصمة واحدة هى « دمشق » ، فى أرض الشام .
فيا له من نجاح كبير ، ونصر باهر قد تحقق — إذا قارنا حالة هذه الدولة حينئذ بحالتها حينما تولى عبد الملك الخلافة ، أو قبل ذلك بقليل ، وقد كانت متفرقة ، متمزقة إلى أقسام وطوائف ، والحروب دائرة بين بعضها والبعض الآخر . لقد حدث مايشبه المعجزة ، وتحقق الأمل الكبير . ونجح عبد الملك حقاً فى أن يصل إلى غايته ، وهى توحيد الدولة كلها تحت لوائه ورعايته .

* * *

إن الفقيه ، العابد ، الذى قضى أربعين سنة من حياته بالمدينة ، وما كان يفكر أن يخرج منها ، والذى أخرج منها — كرهاً — وهو فى سن الأربعين ، ليبدأ حياة فى المنفى — قد كتب له أن ينال الملك ويتولى الخلافة ، ويرعى شئون أمة الإسلام ودولة العرب ، ويوجه الجيوش أو يقودها ، ويضع السياسات ويحكم الإدارة ، حتى يحقق أغلى أمنيـــة للأمة : ألا وهى جمع كلمتها وتوحيد صفوفها ، فى دولة كبرى واحدة .

الفصل التاسع

فتوحات - وإصلاحات

لو لم يكن لعبد الملك بن مروان من فضل إلا أنه حقق وحدة دولة العرب والإسلام ، وأنقذ الأمة من شرور الانقسام ، وأخطار الحرب الأهلية — لكفاه ذلك من عمل مجيد ، يؤهله لأن يدرجه التاريخ بين العظماء الذين أسدوا أجل الخدمات لأممهم . كانت هذه هي المهمة الكبرى التي قام بها في خلافته . وقد وصفنا في الفصول الماضية كيف اضطلع بها ، وما هي الخطط التي اتبعها لكي يؤديها ، وكيف تكللت جهوده فيها بالنجاح . وسنبين في هذا الفصل — فيما بعد — أهم النتائج الجليلة ، التي ترتبت على الوحدة .

لكن عبد الملك كانت له أعمال أخرى مجيدة — أيضاً — وهي تؤكد أهليته لأن يضعه التاريخ في تلك المرتبة الرفيعة . فمن ناحية ، نهض عبد الملك بهمة وحزم — حتى من قبل أن تتم الوحدة — ليستأنف الفتوحات التي توقفت طويلا ، منذ بدء الفتنة والنزاع الداخلي . فأثمرت جهوده — ولكن بعد أن تمت الوحدة — أن ضمت إلى الدولة أقطار هامة ، كم صار لها فيما بعد شأن في تاريخ العروبة والإسلام — ونعني بها بلاد المغرب — بعد أن كاد الروم يحولون بين الدولة وبينها ، ويسلمونها إلى التأخر وحياة الاستعباد والفوضى .

فعبد الملك بن مروان هو صاحب الفضل فى إتمام تحرير هذه البلاد وطرد الروم منها نهائياً ، وفتح الطريق لنشر الإسلام واللغة العربية فيها ، واستقرارهما. كما أثمرت جهوده أيضاً أن أعادت للدولة — بصفة عامة — كامل قوتها أمام الأعداء ، فاستردت هيبتها ومركزها . وبذلك أوجد العوامل وهيأ الوسائل للتمهيد لفتح أقطار أخرى كبيرة، سيتم ضمها فى عهد خلافة ابنه الوليد ثم العهود التالية ، سنشير إليها فيما بعد .

ومن ناحية أخرى ، أمر عبد الملك بتنفيذ إصلاحات داخليـة ، كان من شأنها دعم المقومات التى تقوم عليها الدولة ، ورفع الروح القومية وحفظها . وأهم هذه الإصلاحات أمران : الأول :— تحقيق الاستقلال المالى للدولة وسيادتها الاقتصادية ، وذلك بإصدار عملة عربية قومية لها ، بدل اعتمادها على النقود الأجنبية . والثانى : جعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية القومية للدولة ، وإبطال استخدام اللغات الأجنبية فى الدواوين .

فالآن نتـكلم عن هاتين الناحيتين من جهود عبد الملك : فالأولى هى الفتوحات ، والثانية هى الإصلاحات . ثم نختم الـكلام بوصف شخصية عبدالملك وبيان صفاته ، ومبادىء سياسته العامة ، ثم نتحدث عن بيته وخلفائه ، وآثاره . وبذلك كله تتحدد مكانته فى التاريخ .

الفتـــوحات

أولا — فى بلاد المغرب

كانت أهم الفتوحات التى تحققت فى عهد عبد الملك — كما ذكرنا — هى فتوحاته فى بلاد المغرب .

وبلاد المغرب تسمى الآن : ليبيا ، تونس ، الجزائر ، فمراكش . لكن كانت أسماؤها عند العرب ، فى تلك العصور ، هى — على الترتيب المذكور — :

برقة وطرابلس ، ثم إفريقية أو المغرب الأدنى ، فالمغرب الأوسط ، فالمغرب الأقصى .

* * *

بدأ الجهد الإسلامى لفتح هذه البلاد ، وتحريرها من احتلال الروم واستعبادهم ، فى عهد دولة الخلفاء الراشدين : فى عهدى — عمر وعثمان — رضى الله عنهما .

وقد أمكن لجيش الإسلام التحررى — فى عهد عثمان — أن يصل إلى قلب تونس (إفريقية) ، ويواقع الروم فى موقعة « سبيطلة » ، فيهزم ملكهم المسمى « جرجير » ـ وهو جريجورى ـ ويقتله ، ويبيد جيشهم . وذلك على يد عبد الله بن سعد بن أبى السرح ، الذى كان والى مصر . فمصر ، منذ ذلك الوقت وظلت دائما ، القاعدة لفتح أو تحرير بلاد المغرب .

لكن المسلمين لم ينووا الإقامة فى ذلك الوقت ، فاكتفوا بدفع الفدية لهم ، ثم عادوا إلى برقة . وفى أثناء الفتنة الأهلية التى تلت ، توقفت الفتوحات. ثم بعد أن توحدت الدولة ، استأنف معاوية الفتوحات بعزيمة جديدة ، وبقصد الحصول على نتائج دائمة . فكان البطل الذى حمل لواء الفتح فى عهده هو « عقبة بن نافع الفهرى » ، الذى ظفر بالنصر حتى انتهى إلى قلب تونس ، وأسس هناك مدينة «القيروان» — سنة ٥٥ هـ — ، لتكون مركزاً للإسلام ونشر العربية ، وقاعدة حربية . ثم عاد إلى الشام ، وحمل عبء الجهاد بعده قائد آخر من مصر ، هو « أبو المهاجر دينار » .

ثم عاد عقبة، ثانية، فى عهد يزيد بن معاويه عام ٦٢ هـ. فاستأنف جهاده وواصل الفتوحات، فهزم الروم ومن معهم هزائم كبيرة متوالية، حتى وصل إلى المغرب الأقصى. ولما بلغ شاطىء المحيط، وقف وهو على ظهر جواده، وقال قولته المشهورة: «يارب، لولا هذا البحر، لمضيت مجاهدا فى سبيلك»! ثم عاد. ولكنه فى عودته حينما صار على مقربة من القيروان، سرح معظم جيشه وبقى فى فئة قليلة. فانتهز الروم هذه الفرصة، وكانوا قد اتفقوا مع «كسيلة» من البربر المسيحيين — على أن يغدر بعقبة، فغدر كسيلة وارتد عن الإسلام وانضم إلى البيزنطيين. واجتمعوا على عقبة، فحاربهم محاربة الأبطال، هو والمسلمون الذين معه على قلة عددهم، إلى أن استشهد — رحمه الله ومن معه.

وأراد «زهير بن قيس البلوى» — وكان نائبه فى القيروان — أن يهب لمحاربة الروم. ولكن خالفه قوم ممن معه وعادوا إلى مصر. فاضطر «زهير» أن يعود بجيشه إلى برقة، وبقى مرابطا بها ست سنوات، من سنة ٦٣ حتى سنة ٦٩ هـ. وذلك لحدوث الحرب الأهلية، والفتن التى وصفناها فى الماضى فكانت الدولة فى شغل بالنزاع الداخلى عن أن تعنى بجهاد الأعداء فى الخارج.

زهير بن قيس فى إفريقيه

كانت هذه حال المسلمين والفتح فى تلك الجبهة.

وكان «زهير بن قيس» لايزال مقيما فى «برقة»، وكانت جالية من المسلمين قد تركت فى خطوط العدو، بـ«القيروان»، وإن نالت الأمان — لكنها كانت تعيش معرضة للغدر تحت حكم العدو — كانت هذه هى الأحوال، حينما ذكر حال هؤلاء المسلمين وزهير وجنده عند عبد الملك بن مروان

وكان هو فى أشد مشغلة بالحرب مع ابن الزبير وغيره. فعلى الرغم من انشغال عبد الملك بذلك، وعلى الرغم من حاجته لتوفير كل جهد وكل جندى لينتهى من المعركة الداخلية التى أمامه — على الرغم من ذلك، قرر أن لا يدخر وسعا لإنقاذ هؤلاء المسلمين، وإظهار قوة الدولة أمام العدو فى ذلك الميدان.

***

ففى عام ٦٩ هـ — فى ذروة الأزمة، وهو يستعد للخروج إلى العراق لمواجهة ابن الزبير — أعد جيشا قويا وأرسله إلى «زهير» ببرقة. وكتب إلى زهير بولاية إفريقية. وبذلك أخذ عبد الملك يحارب الروم وحلفاءهم المعتدين، فى نفس الوقت الذى كان فيه مشغولا بالفتنة الداخلية. وهذا يشهد لعبد الملك بقوة العزيمة، وقوة إيمانه بالله وثقته بنصره، ورغبته فى الجهاد فى سبيل الله، وحرصه على الدولة وصالح المسلمين.

تقدم زهير بهذا الجيش، وتوجه لفتح إفريقية — وكان زهير من خيرة المسلمين: عابداً زاهداً، نذر نفسه للجهاد من أجل مرضاة ربه، كما كان من كبار القواد مع عقبة ابن نافع، واشترك معه فى أكثر غزواته. فلما وصل قرب القيروان، وجد أن كسيلة — الزعيم البربرى الغادر، الذى كان فى خدمة البيزنطيين — ويجب أن نذكر هنا أن كثيراً من البربر، ولا سيما فى الجنوب قد اعتنقوا الإسلام، فلم يبق إلا بربر الشمال الذين كانوا متأثرين بالروم وموالين لهم — وجد أن كسيلة هذا قد ترك القيروان، خوفا أن يحاصر فيها ويثور عليه المسلمون الذين كانوا بها، وسار إلى الجبال فاتخذ عندها معسكره ليحمى ظهره بها وليلوذ بها إذا هزم.

وفى موقعه هذا حشد جموعا كثيرة من البربر التابعين له والروم،

وتأهب للقتال . ويجدر أن ننقل هنا ما قاله مؤرخ كبير من القدماء عن هذه الموقعة ، بأسلوبه الموجز — قال : « .. وبلغ ذلك زهيرا فلم يدخل القيروان . بل أقام ظاهرها ثلاثة أيام حتى أراح واستراح ، ثم رحل فى طلب كسيلة ، فلما قاربه ، نزل وعبى أصحابه ، وركب إليه . فالتقى العسكران . واشتد القتال ، وكثر القتل فى الفريقين ، حتى أيس الناس من الحياة . فلم يزالوا كذلك أكثر النهار . ثم نصر الله المسلمين ، وانهزم كسيلة وأصحابه . وقتل هو ، وجماعة من أعيان أصحابه بممس (هذا اسم الموقعة) . وتبع المسلمون البربر والروم فقتلوا من أدركوا منهم ، فأكثروا . وفى هذه الوقعة ذهب رجال البربر والروم ، وملوكهم وأشرافهم . وعاد زهير إلى القيروان » .

* * *

هكذا أحرز الجيش الإسلامى ــ بقيادة زهير ــ هذا النصر الكبير على قوات البربر والروم ، التى قادها « كسيلة » . وقتل « كسيلة » نفسه فى هذه الموقعة ــ وكان هو الذى ارتد عن الإسلام ، وغدر بعقبة وتسبب فى قتله ــ فأخذ المسلمون إذن بالثأر منه وممن تابعوه . وانتهى أمر هــذا الخائن المرتد ، بعد أن ظل يعبث فى البلاد فساداً ، منذ سنة ٦٣ هـ . ولاشك أن الدافع الأول لهذا النصر وراعيه إنما هو : « عبد الملك بن مروان » ، الخليفة فى دمشق ــ وذلك بفضل عزمه وإيمانه .

على أن فتح إفريقية ما كان ليتم بسهولة . وكم لاقى المسلمون فى فتوحهم من عقبات ، وكم منوا بنكسات . لكن هذا ما كان الا ليشحذ همتهم ويقوى إيمانهم . فبعد هذا النصر المبين جاءت نكسة . وذلك أن إفريقية ، أو بلاد المغرب ، لها ساحل طويل ممتد على البحر المتوسط ، فما لم تكن هناك قوة بحرية

تحميه ، فإن الأعداء يستطيعون أن يهاجموه فى أى وقت ، من أى نقطة . فلما بلغ الروم بالقسطنطينية أن زهيرا سار من برقة إلى القيروان ، انتهزوا الفرصة وأرسلوا أسطولهم بقوة كثيفة ، فاحتلوا برقة . وبذلك قطعوا خط المواصلات أو الرجعة ، على زهير وجيشه . وكان زهير قد قرر العودة من القيروان إلى مصر ، فترك جزءا من جيشه وعاد بجزء . ولم يعلم بما حدث فى برقة إلا وهو فى الطريق ، فلم ينتظر حتى تصله إمدادات أو يرتب أمره ، بل بادر إلى إنجاد المسلمين الذين استنجدوا به ، وهاجم الروم وهو قوة قليلة ، وكان الروم على استعداد وقد دسوا له كمينا . فعلى الرغم من قتاله بشجاعة وفدائية ، تكاثر عليه الروم وأحاطوا به ، فقتل رحمه الله ومن معه .

فلما بلغ خبر مقتله عبد الملك بن مروان ، حزن حزنا شديدا ــ كما أثبتت أخبار التاريخ ــ وأهمه ذلك كثيرا . لكن ماذا كان يستطيع أن يصنع ، وهو فى غمرة النضال مع الخارجين عليه ، وقواه مشغولة بالمعارك الفاصلة معهم ؟ إن الفتن أو المنازعات الداخلية تنقص فاعلية الدول ، وتكاد تشل حركتها . فكان عبد الملك مضطرا إذن أن ينتظر حتى ينتهى من الفتنة التى أمامه ، ثم بعد ذلك يستطيع أن يستأنف جهاده ، ضد الأعداء المعتدين .

حسان بن النعمان يفتح قرطاجنه

وما أن فرغ عبد الملك من المعركة مع ابن الزبير ، حتى أعد جيشا كبيرا ــ اختار له قائدا قديرا هو « حسان بن النعمان الغسانى » ــ فسيره إلى إفريقية ، وقد جعل له الولاية عليها .

فسار حسان بجيشه ، وكان ذلك فى عام ٧٤ هـ ، فلم يجد مقاومة فى طريقه:

فى برقة أو طرابلس ، حتى دخل إفريقية بجيشه « ولم يدخل أفريقية قط جيش مثله » . وكان الهدف منازلة الروم أولا ، لأنهم هم العدو الحقيقى . وهم الذين يقفون فى طريق الفتح ، وهم الذين هاجموا « زهيرا » .

فبعد أن وصل حسان إلى القيروان ، وأراح جنده وتجهز منها بما أراد زحف بجيشه على « قرطاجنه » — وكانت أكبر معقل للروم فى إفريقية ، وقاعدتهم البحرية الكبرى — ولم يكن المسلمون هاجموها من قبل . فجمع الروم كل قواتهم للدفاع عنها ، ولكن حسانا حاصرها ، وظل يقاتل الروم حتى هزمهم ، وتمكن من دخول المدينة عنوة . فأسرع الروم إلى الهرب فى البحر ، وساروا بمراكبهم إلى صقلية أو الأندلس . فاستولى حسان على المدينة ثم أمر بهدم أسوارها ، حتى لا تتخذ حصنا بعد ذلك .

ثم اتجه أيضاً إلى معقلين آخرين للروم على الساحل ، وهما مدينتا : بنزرت وسطفورة ، فاستولى عليهما أيضاً ، بعد قتال عنيف . وهكذا نجح حسان فى تحطيم معاقل الروم ، على ساحل إفريقية . وكان لانتصاراته على الروم دوى شديد ، ورفع من هيبة قوة الدولة الإسلامية ؛ حتى أصبح الروم منها فى خوف ، وشعروا بقرب نهايتهم .

الكاهنة

لكن ثورة كانت ناشبة بين البربر منذ مقتل « كسيلة » ، حيث ظهرت امرأة تسمى « الكاهنة » من بيت ملكهم ، فالتفوا حولها واعتصموا بجبال أوراس ، وهى منطقة منيعة ، فأراد حسان أن ينازل هذه القوة ويقضى عليها أيضاً . لكن جيشه كان أصيب بخسائر ، من جراء المواقع العديدة التى خاضها

مع الروم ، ومع ذلك اتجه لمقاتلة الكاهنة وأتباعها ، فلقى مقاومة عنيفة وأسر بعض رجاله . فرأى أن الأولى أن يعود حتى تصله إمدادات . فرجع وأقام بطرابلس ، التى اتخذها قاعدة له لقربها من البر والبحر . وظلت القيروان كما هى ، قاعدة حربية إسلامية فى قلب إفريقية ، ولم تجرؤ الكاهنة أن تتقدم إليها وأرسل حسان إلى عبد الملك يطلب إمدادات. لكن عبد الملك كان لا يزال مشغولا بحروب الخوارج ، فأمر حسانا بالمقام وأن يكتفى بما فتح حتى يصله أمره .

* * *

وبعد أن فرغ عبد الملك من حروب الخوارج ، وأتم الوحدة ، وجه عنايته ثانية إلى إفريقية . فبعث بالجنود والأموال إلى حسان ، وأمره باستئناف الزحف ، حتى يقضى على الكاهنة. وكانت الكاهنة — فى أثناء ذلك — قد أساءت السيرة ، وعسفت بأهل البلاد وظلمتهم : من بربر وروم وغيرهم . فكرهوها ، وتمنوا الخلاص منها ، وقدروا مزايا حكم الإسلام الذى كان يتميز بالعدل والتسامح وسيادة القانون والنظام . فأرسلوا إلى المسلمين يستنجدون بهم .

فلما سار حسان إليها ، عمدت إلى خطة التخريب . فأخذت تخرب المدن وتنقل الأموال ، وتحرق المزارع أمامه ، لتوقف زحفه . ولكن كل ذلك لم يجدها نفعاً . بل زاد من كره الناس لها ، وسخطهم عليها. وواصل حسان سيره فقابله كثير من أهل المدن حتى الروم بالترحيب ، وقدموا الطاعة . وأخيراً التقى بجموع الكاهنة . فبعد قتال عنيف هزمهم شر هزيمة ، وقتل فيهم قتلا ذريعاً . وفرت الكاهنة إلى الجبال ، فأتبعها من أدركها وقتلت .

بذلك انتهى أمر الكاهنة . وكانت هذه آخر ثورة للبربر . فبعد ذلك خضع أهالى البلاد لحكم الإسلام ، وأخذوا يدخلون فى الإسلام أفواجا . وكان مقتل الكاهنة فى سنة ٨١ هـ .

* * *

لكن الروم كانوا قد انتهزوا فرصة خروج الكاهنة والأحداث التى تلت ، فعادوا بقوة جديدة واحتلوا قرطاجنة . فتركهم حسان ، حتى انتهى من أمر الكاهنة . ثم اتجه إليهم فقاتلهم ، وطردهم مرة أخرى من قرطاجنه . وأعانه فى هذه المرة أسطول إسلامى ، قدم من الشام ومصر . فقتل من الروم من قتل ، وهرب من هرب . وكانت هذه آخر مرة يرون فيها قرطاجنه . فقد كان هذا هو القضاء النهائى عليهم ، وتمام تحرير إفريقية والمغرب ، من حكمهم واحتلالهم وجورهم .

المغرب العربى الإسلامى

وهكذا أتم حسان تحرير بلاد المغرب ، وخلصها — نهائياً — من حكم الروم ، الذى كان قائماً على أساس استغلال السكان ، واستعبادهم ، وتقسيم الناس إلى طبقات ، والاضطهاد الدينى والعنصرى ، وغير ذلك من مساوىء حكم الظلم — كما قضى أيضاً على عناصر الشغب والفوضى بين البربر ، وطهر البلاد من القوات المعادية .

فأتم الفتح ، حتى وصل إلى طنجة والمغرب الأقصى ، وشاطىء المحيط . وأخذ يوجه جهوده كلها إلى نشر الإسلام ، والتأليف بين السكان ، وطبق حكم المساواة ومبادىء العدل ، وأحسن معاملة الناس . فرغب الناس فى الإسلام ، وأخذوا يدخلون فى دين الله أفواجا . وأخذت اللغة والثقافة العربية

تنتشر . وكان عدد كبير من البربر قد دخل فى الإسلام — فعــــلا — منذ وقت طويل ، فى مدى نصف قرن أو أكثر مضى منذ دخول العرب البلاد . وسارت عملية المزج بين الأجناس — جنبا إلى جنب — مع انتشار الدين والثقافة .فوضعت إذن أسس شخصية المغرب العربى الجديد ، الذى سيكون من أهم أقطار الدولة الإسلامية .

* * *

بدأت هذه التطورات فى عهد حسان — الذى بقى فى ولايته حتى سنة ٨٩ هـ ثم خلفه موسى بن نصير . فسار على نفس السياسة وأكملها ، وحقق بها نتائج عظيمة . وموسى بن نصير هو القائد الذى سيجعل المغرب قاعـدة لفتح الأندلس . ويـكون إلى جانبه قائد آخر : هو طارق بن زياد ، الذى يمثل شخصية المغرب الجديد ، فى ظل الإسلام. فأصله من البربر سكان البلاد ، لكنه صار خلقاً آخر ، فأصبح قائداً عربياً إسلامياً .

وهـكذا استمر المغرب فى هذا الطريق ، حتى أصبح من أهم أقطار العروبة والإسلام — شأنه شأن مصر أو الشام أو العراق . وهو اليوم بمثابة الجنـاح الغربى للأمة العربية والإسلامية ، تخفق معه قلوب جميع العرب والمسلمين . فإذا كان لأحد فضل فى بدء هذه التطورات وهذا التاريخ للمغرب ، فاسم عبد الملك ابن مروان يجب أن يـكون فى مقدمة من يقر لهم بهذا الفضل .فهو الذى وجه إليه بالغ عنايته ، على الرغم من انشغاله ، وأهمه أمره وواصل الجهود لإنقاذه ، حتى أتم تحريره من الروم الأجانب المعتدين ، وأوجد له الظروف ليصبح جزءاً لا يتجزأ من عالم العروبة والإسلام . فهـذا هو فضـل عبد الملك بن مروان بالنسبة لبلاد المغرب .

ثانيا — الفتوح فى بلاد الروم

كانت قوة الدولة العربية الإسلامية ظاهرة على الروم — أو الامبراطورية الرومية البيزنطية — طوال عهد معاوية . حتى إنه ضرب الحصار سبع سنوات على « القسطنطينية » : عاصمة تلك الامبراطورية الرومية ، وهاجم الروم عند أسوارها ، وكاد أن يستولى عليها ، لولا مناعة موقعها. فكان للدولة الإسلامية إذن هيبة كبيرة فى قلوب الروم وأباطرتهم ، تجعلهم يعترفون بتفوقها عليهم ويترددون فى مهاجمتها .

عبد الملك — وجستنيان

ظلت الحال كذلك ، حتى نشبت الفتنة الداخلية بين المسلمين بسبب ظهور ابن الزبير . فلما تولى الخلافة عبد الملك بالشام رأى من الحكمة السياسية أن يعقد هدنة مع الروم ، فعقد اتفاقا فى أول عهده مع الامبراطور جستنيان الثانى الذى كان معاصراً له . وكان هذا الإمبراطور على النقيض من عبد الملك، إذ كان طائش التصرفات ، ولهذا لقب بـ « الأحمق » . وانصرف عبد الملك لى معالجة الأزمة الداخلية دون أن يحدث شىء .

لكن الروم — وهم العدو القومى للمسلمين — وقد رأوا عبد الملك فى أزمة قد طالت — بدا لهم أن لا يضيعوا الفرصة . فبدأوا بتحريك العناصر الأجنبية الموالية لهم ، التى كانت تقيم فى جبال اللكام ولبنان، ومنهم الذين كانوا يسمون « الجراجمة » . فقاموا فى عام ٦٩ هـ بثورة وشغب ضد دولة دمشق ، انضم إليهم فيها الرعاع والعبيد ، وفى نفس الوقت أخذ الروم يهددون الحدود. ولما علموا فى نفس العام بمسير زهير من برقة لغزو إفريقية ، أرسلوا قوة

وأسطولا فاحتلوا برقة ، وجرت موقعة قتل فيها زهير عند عودته — كما قدمنا . ثم فى العام التالى ٧٠ هـ بدأ الروم حربا جدية ، فأخذوا يعبرون حدود الشام من الشمال ، ويغيرون على المسلمين داخل أراضيهم .

* * *

فلما رأى عبد الملك ذلك — وكان فى ذروة الأزمة وأمامه خصومه فى الداخل لم يتغلب عليهم بعد ، وتبين له حرج الموقف — رأى أن يلجأ إلى السياسة . فأرسل أولا إلى الجراجمة قائداً استطاع بحيلته ودهائه أن يتمكن منهم ، ثم فاجأهم بقوة كان أكثنها لهم فهزمهم وشردهم . وفى نفس الوقت دخل عبد الملك فى مفاوضات مع ملك الروم ، وتوصل إلى عقد معاهدة معه ، رضى فيها عبد الملك أن يدفع إلى الروم مبلغاً قدره ألف دينار كل جمعة — وكان هذا ضد شعور عبد الملك — لكنه كان مضطراً أن يدفع الأذى عن المسلمين نظير دفع هذا المبلغ من المال ، ريثما تنجلى الأزمة الداخلية . وهكذا يصل التفرق والنزاع الداخلى بالأمم والدول إلى أن تضعف — رغم قوتها الأصلية — أمام أعدائها .

لكن عبد الملك حصل فى هذا الاتفاق على شرط دل على بعد نظره ، إذ كانت له نتائج حسنة ، وذلك أنه اشترط أن تقوم دولة الروم بنقل «الجراجمة» إلى جهات داخل أراضيها . فنفذ « جستنيان » — فعلا — هذا الشرط ، ونقل الجراجمة إلى البلقان . فاستراح المسلمون من شرهم وأمنوا خيانتهم ، إذ طالما كانوا ينضمون إلى أعدائهم ، على حين خسر البيزنطيون ماأسموه مؤرخوهم : بالستار الحديدى ،حيث كان هؤلاء يدافعون عنهم ضد دولة المسلمين .

وآتت هذه المعاهدة ثمرتها ، حيث أعطت عبد الملك فرصة ثلاث سنوات

استطاع فيها أن ينهض فيلاقى خصومه فى المواقع الفاصلة ويتغلب عليهم ، وينهى الفتنة الداخلية الأساسية ، ويحقق الوحدة — على ما وصفناه فى الفصول السابقة . وفى أواخر عام ٧٣ هـ شعر عبد الملك أن الدولة استعادت قوتها ، وأنها تستطيع أن تستأنف جهادها وتعلى إرادتها ، كما كان دأبها دائماً .

هزيمة الروم

وكانت العلاقات قد ساءت بين دولة الروم والدولة الإسلامية فى هذه الفترة ، وأخذ الروم يتأهبون للانقضاض . فكان عبد الملك لهم بالمرصاد ، وقد أحكم إعداده .

فعين أخاه محمد بن مروان والياً على الجزيرة وأرمينية ، ليكون القائد فى هذه الجبهة . ومنع عبد الملك إرسال النقود التى كان يدفعها وقت الضرورة ، فأثار هذا حنق جستنيان الأحمق فأعلن الحرب . وقدم بجيش كبير ليغزو المسلمين من ناحية أرمينية ، فلاقاه محمد بن مروان بجيشه ودارت موقعة عنيفة ، هزم فيها الروم على كثرة عددهم هزيمة شنيعة ، وفر الامبراطور بنفسه وانفض عنه أكثر جنوده . وكان ذلك فى عام ٧٤ هـ . فزعزعت هذه الوقعة الدولة البيزنطية ، وردت إمبراطورها إلى صوابه .

وفى نفس العام ، قام الخليفة عبد الملك بالهجوم على الروم فى جبهة أخرى — هى جبهة إفريقية — فأرسل حسان بن النعمان بجيش كبير — على ما ذكرنا آنفاً — فاتجه حسان إلى مهاجمة الروم فى أكبر معقل لهم وهو مدينة «قرطاجنة» وقد أنزل بالروم هزيمة ساحقة ، فى عام ٧٥ — كما بينا — وطردهم من المدينة واستولى عليها .

الاستيلاء على معاقل الروم

وهكذا أثبتت الدولة الإسلامية ، بعد الوحدة ، أنها مازالت محتفظة بقدرتها على التفوق وإحراز السيادة ، وعادت قوة رهيبة ، يخشى بأسها الأعداء ويعملون حسابها — كما كان شأنها من قبل . وبعد أن فرغت الدولة من كل مشاكلها الداخلية بإنهاء مسألة الخوارج ، ازدادت قوتها ، وغدت قوة مندفعة لا ترد . فحررت جيوش المسلمين إفريقية وبلاد المغرب — نهائياً — من نير البيزنطيين ، وثبتوا قبضتهم على قرطاجنة وجميع المدن الساحلية . وتحولت إفريقية إلى قطر إسلامى — على ما ذكرناه من قبل . وكانت الموقعة الأخيرة فى عام ٨١ هـ ، فى عهد عبد الملك .

* * *

وفى نفس الوقت ، بدأ التقدم والتوغل داخل الأراضى البيزنطية القريبة . فكانت الصوائف تخرج بانتظام للاغارة على هذه الأراضى ، يقودها محمد بن مروان أو غيره من أمراء بنى أمية . وفى عام ٨١ هـ بعث عبد الملك ابنه عبد الله ابن عبد الملك ، ففتح « قاليقالا » — وهى إحدى مدن الروم الكبيرة . وفى عام ٨٤ هـ ، تمكن عبد الله بن عبد الملك من فتح مدينة أخرى رئيسية ، داخل دولة الروم فى آسيا الصغرى ، وهى مدينة « المصيصه » فبنى حصنها ، ووضع بها حامية من ثلاثمائة مقاتل من ذوى البأس ، ولم يكن المسلمون سكنوها من قبل ، وبنى مسجدها .

وهكذا اندفعت قوة دولة العرب والإسلام إلى الأمام : تفتح المعاقل وتستولى على الحصون داخل أرض العدو فى دولة الروم ، منذ تحققت الوحدة

فى عهد عبد الملك . واستمرت فى اندفاعها طوال مدة الوليد ثم سليمان ، حتى بلغت الغاية فى محاولة قوية لفتح القسطنطينية نفسها — عاصمة الدولة — فى عهد سليمان بن عبد الملك ، عام ٩٩ هـ . وكان ذلك كله بفضل همة عبد الملك وعزيمته ، ونذره نفسه للجهاد فى سبيل الله لإعلاء كلمته ونشر دينه الحق ، ورفع شأن دولة الإسلام والعروبة ، التى لم تكن تضاهيها أية دولة فى حيويتها وقواها الكامنة ، التى كانت كفيلة بأن تجعلها — وقد جعلتها فعلا — أقوى دولة على وجه الأرض .

ثالثا ـ الفتوح فى المشرق

والكلام هنا يتناول جبهتين : خراسان ، ثم سجستان .

فأما عن خراسان : فإنها كانت قد أصبحت فى عهد معاوية قاعدة هامة للدفاع عن حدود الدولة فى الشرق ، ولغزو الترك فيما وراء النهر (نهر بلخ، أو جيحون)، و بدأت منها بعض الفتوحات . ولكن الأمور اضطربت فيها حينما حدثت الفتنة بعد موت يزيد ، فاضطر واليها « سلم بن زياد » إلى الهرب ، واستعرت روح العصبية القبلية . فأدى ذلك كله إلى توقف الفتوحات. و بعد حروب قبلية ، تغلب على خراسان رجل من مضر اسمه « عبد الله بن خازم » ، وأخيرا قتل فى بعض هذه المواقع عام ٧٢ هـ . وقام بعده « بكير بن وشاح السعدى » من تميم ، وهو الذى بايع لعبد الملك بن مروان .

* * *

فبعد سنتين ، أرسل أهل خراسان إلى عبد الملك يطلبون أن يولى عليهم واليا قرشيا ، حتى لا يقع التنافس بين القبائل . فارسل إليهم «أمية بن عبد الله» ـ وهو أخو « خالد بن عبد الله » ـ وهما من بنى أمية . فانتظمت الأحوال

أحسن من ذى قبل ، لكن لم يقض على المنازعات ولم تبدأ فتوح جديدة . ولم يثبت « أمية » كفاءته .

فعزله عبد الملك فى عام ٧٨ ،وعين الحجاج الثقفى واليا على المشرق كله ـ بما فيه خراسان وسجستان — فاختار الحجاج المهلب بن أبى صفرة بعد أن انتصر على الخوارج ، وعينه واليا على خراسان . فقدم إليها فى عام ٧٩ هـ . فأخذت الأمور فى الاستقرار منذئذ،و بدأ عهد من النشاط و التقدم،واستؤنفت الفتوحات .

* * *

عبر « المهلب » النهر (نهر جيحون) : الفاصل بين إقليم خراسان و بلاد ما وراء النهر — كما كانت تسميها العرب — وهى الآن بلاد « تركستان» . وكان عبوره ذلك فى عام٨٠ هـ . فبدأ يغزو ول منطقةـ وكان يسكنها قوم من الترك يسمون «الختل» أو « الهياطلة »،وكانو كثيراً ما يغيرون على المسلمين، و يهددون حدود الدولة من الشرق . فحاصرهم فصالحوه على دفع الفدية والولاء. ثم بعث المهلب أولاده لغزو الجهات ، حتى قار بوا مدينة « بخارى » . ومكث المهلب سنتين وراء النهر، ليعد قاعدة حر بية للمسلمين هناك. وأعاد للدولة هيبتها ثم عاد إلى « مرو» ، ومات بها فى عام ٨٢ هـ .

ومما يجدر ذ كره نه أحضر أولاده وأوصاهم وصية غالية ، بالاتحاد وعدم التفرق . ومثل لهم ذلك : بأن دعا بمجموعة من السهام ، فحزمت ، فقال : أترونكم كاسريها مجتمعة ؟ قالوا : لا . قال : أفترونكم كاسر يهامتفرقة؟ قالوا : نعم . قال : فهكذا الجماعة .

فولى الحجاج يزيد بن المهلب فى عام ٨٣ هـ مكان أبيه ، فوجه همته لفتح قلعة حصينة كانت لاتزال ممتنعة فى أطراف خراسان فى منطقة وعرة تسمى

« باذغيس » وكان أهلها كثيراً ما ينتقضون على المسلمين ويغيرون عليهم، فتمكن يزيد من الاستيلاء على هذه القلعة الحصينة فى عام ٨٤ هـ . وفى العام التالى عزله الحجاج وولى مكانه أخاه « المفضل بن المهلب ». فلبث فى الولايه تسعة أشهر فتح فى أثنائها منطقة « باذغيس » كلها ، واستولى على حصونها. وكان ذلك العمل وجميع جهود آل المهلب ممهدة للقيام بفتوح كبيرة فى بلاد الترك ، وراء النهر .

ثم عزل الحجاج « المفضل » عام ٨٥ هـ ، لإسرافه فى الأموال، وعين فى مكانه « قتيبة بن مسلم الباهلى » — وهو القائد الكبير ، الذى سيتم على يديه فتح بلاد ما وراء النهر وبخارى وسمرقند حتى حدود الصين ، وذلك فى عهد الوليد ابن عبد الملك .

سجستان

أو (أرض كابل)

وأما عن سجستان : فإن الحجاج كان — حين ولى على المشرق كله فى عام ٧٨ هـ — ولى عليها « عبيد الله بن أبى بكرة » وهو من ثقيف .

وفى العام التالى ٧٩ هـ ، وجه عبيد الله هذا بجيش لغزو « رتبيل » — وفى رواية « زنبيل » — ملك سجستان ، لأنه نقض عهد الصلح الذى كان بينه وبين المسلمين . فتوجه القائد وغلب على البلاد ، وأوغل فيها حتى صار غير بعيد من العاصمة . لكن العدو أخذ على المسلمين العقاب والشعاب ، وحاصرهم فرأى ابن أبى بكرة أن يصالح رتبيل على مبلغ من المال ، ويخلى بينه وبين الخروج . ولكن جنده عارضوا الصلح ، وأبوا إلا أن يقاتلوا حتى الشهادة . فقاتلوا ، حتى استشهد أكثرهم ونجا أقلهم .

* * *

فلما بلغ ذلك الحجاج ، صمم على أن يجهز جيشاً كثيفاً ويبعثه ليؤدب رتبيل ، ويأخذ بثأر المسلمين . وأرسل إلى الخليفة : عبد الملك بن مروان يستأذنه فى ذلك ، فأذن له . فجهز جيشاً من أربعين ألفا : عشرين ألفا من الكوفة ، وعشرين ألفا من البصرة . وأعدهم بكل ما يحتاجون إليه ، وأعطى الناس أعطياتهم كاملة ، وأمدهم بالخيول الروائع ، والسلاح الكامل ، فكان هذا الجيش يدعى : « جيش الطواويس » ، لكامل رونقه وحسن عدته . وولى الحجاج قائداً على هذا الجيش : « عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندى ». فخرج هذا الجيش إلى مقصده فى عام ٨٠ هـ .

* * *

وصل الجيش إلى بلاد « رتبيل » ، فأرسل هذا يعتذر و يسأل الصلح ، فلم يقبل منه . وسار عبد الرحمن فى غزوه لتلك البلاد وفق خطة منظمة ، ومتخذا إجراءات الاحتياط : فكلما حوى بلداً بعث إليه عاملا ، و بعث معه أعوانا ، ووضع البرد فيما بين كل بلد و بلد ، وجعل الأرصاد على العقاب والشعاب ووضع المسالح بكل مكان مخوف . حتى إذا حاز من بلاد رتبيل أرضاعظيمة ، وملأ يديه من المغانم ، حبس الناس عن الوغول فى أرض رتبيل ، وقال نكتفى بما أصبناه العام من بلادهم حتى نجبيها ونعرفها ، ثم نتعاطى فى العام المقبل ماوراءها وهكذا حتى يتم فتح البلاد . وكتب إلى الحجاج يعلمه بما فتح الله عليه من بلاد العدو ، و بما صنع الله للمسلمين ، و يخبره برأيه هذا .

* * *

فكتب إليه الحجاج : « أما بعد ، فإن كتابك أتانى ، وفهمت ماذكرت فيه . وكتابك كتاب امرىء يحب الهدنة ويستريح إلى الموادعة . قد صانع

عدواً قليلا ذليـلا ، أصابوا من المسلمين جنداً كان بلاؤهم حسنا وغناؤهم فى الإسلام عظيما .. وإنى لم أعدد رأيك رأى مكيدة ، ولـكنى رأيت أنه لم يحملك عليه الا ضعفك والتياث رأيك. فامض لما أمرتك به من الوغول فى أرضهم».
وفى كتاب تال أمره بالوغول ، وإلا فان أمير الناس أخوه اسحاق بن محمد ابن الأشعث بدلا عنه .

فتنة او محنة أخيرة

تمرد جيش العراق

حينئذ جمع عبد الرحمن الناس ، وعرض عليهم رأيه ورأى الحجاج — مدافعاً عن رأيه هو . فانضم الناس إلى رأى عبد الرحمن،وثاروا إليه.وتكلموا ضد الحجاج متهمين له بأنه إنما يريد هلاكهم أو نفيهم . وأظهر كلامهم ما فى قلوبهم من كراهية عميقة له . وأجمع رأيهم على مبايعة الأمير عبد الرحمن،وعلى خلع الحجاج ، وعلى العودة إلى العراق لنفيه . وكروا راجعين إلى العراق . وذلك فى عام ٨١ هـ .

هكذا انقلب الأمر إلى حركة تمرد أو عصيان ، فى جيش العراق . وكانت حركة خطيرة هزت الدولة هزاً عنيفاً ، وكادت تعرضها لأسوأ النتائج . وقبل أن نبين رأينا — أو حكم التاريخ عليها — نتم القصة بذكر ما تلا من أحداث ، بإجمال :

سار هذا الجيش عائدا إلى العراق . ولما وصلوا فارس ، قالوا : إذا خلعنا الحجاج فقد خلعنا عبد الملك . فخلعوه ، وبايعوا عبد الرحمن .

ولما بلغ الحجاج خبرهم بعث إلى عبد الملك يستنجده ، ويسأله أن يوجه الجنود إليه . فهال الخليفة الأمر ، وبادر بإرسال الجنود من الشام اليه،والحجاج

مقيم بالبصرة . فلما اجتمعت الجنود إليه ، سار بها حتى نزل « تستر » أول الأهواز . وأقبلت جنود ابن الأشعث ، فهزمت مقدمة الحجاج يوم الأضحى سنة ٨١هـ. فانصرف الحجاج راجعا ، حتى نزل « الزاوية » قرب البصرة ، وجاءت جنود ابن الأشعث حتى دخلت البصرة ، وذلك فى آخر ذى الحجة سنة ٨١هـ .

ثم تقابل الجندان بالزاوية ، فى أوائل عام ٨٢ . فهزمت جنود الحجاج أولا ، ولكنه ثبت وتمثل بموقف مصعب، وقال : « لله در مصعب ، ما كان أكرمه حين نزل به ما نزل ! » . فقوى ذلك قلوب جنوده حتى هزموا ميمنة أهل العراق ، وقتل منهم عدد وافر . فمضى ابن الأشعث إلى الكوفة ، واستولى على قصرها .فسار فى أثره الحجاج، وخرج ابن الأشعث حتى عسكر بدير الجماجم .

***

وقبل أن تقع بينهما الموقعة الفاصلة ، أرسل عبد الملك أخاه محمد بن مروان وابنه عبد الله ، ليعرضا على أهل العراق عزل الحجاج عنهم . فان قبلوا وثابوا إلى الطاعة عزله عنهم ، وولى بدلا منه أخاه محمد بن مروان أميرا على العراق وأجرى عليهم أعطياتهم مثل أهل الشام . فمال عبد الرحمن إلى قبول العرض ، ولكن أهل العراق رفضوا ، وأصروا على موقفهم وعلى خلع عبد الملك . فلم يكن بد من القتال .

وكانت بين الفريقين مواقع هائلة بدير الجماجم ، استمرت مائة يوم . وكانت نهايتها فى ١٤ من جمادى الآخرة سنة ٨٢ ، حيث تمت الهزيمة على ابن الأشعث وجنوده .

وكان الحجاج قد أمر بعد الهزيمة بعدم اتباع الناس ، ونادى مناديه : من رجع فهو آمن ، ومن لحق بقتيبة بن مسلم بالرى فهو آمن . فلحق

به كثيرون . ودخل الحجاج الكوفة منتصرا . وجاء الناس يبايعونه ، فكان لا يرضى مبايعتهم إلا إذا شهدوا على أنفسهم بالكفر بخروجهم هذا . واستعمل الشدة ، فقتل من الخارجين عددا غير قليل .

أما ابن الأشعث فهرب إلى البصرة ، وأراد أن يقاتل فهزم مرة أخرى ، ففر إلى سجستان . وانتهى أمره ، بأن أرسل الحجاج إلى رتبيل يطلب منه أن يرسل إليه ابن الأشعث ، فأراد رتبيل أن يرسله . فلما أحيط به ألقى نفسه من فوق قصر فمات : أى انتحر . وهكذا أحبطت هذه الفتنة ، بعد أن سفكت الدماء وذهب فيها عدد كبير من أهل العراق وجنود المسلمين .

التمرد وسياسة الحجاج

وخلاصة الحكم على هذه الفتنة أنها لا يمكن أن توصف إلا بأنها « حركة تمرد وعصيان » ، من جيش العراق على رئيسه الأعلى وعلى الدولة . وأنه لا يمكن أن يسمح لجيش خرج لقتال العدو أن يعود فيقاتل مواطنيه ودولته . ولو كانت الفتنة نجحت ، لأدت إلى انشقاق الدولة واندلاع الحرب الأهلية مرة أخرى ، ولعرضت الدولة كلها لأخطر النتائج . وقد أدت — بالفعل — إلى ضياع أرواح كثيرة ، فكانت هذه خسارة عامة .

لكن — من ناحية أخرى — تدل هذه الثورة على خطأ سياسة الحجاج . وقد ذممنا من قبل هذه السياسة ، وبينا أنها كانت سياسة قهر وعنف . فنفرت الناس وحفرت فى قلوبهم الكراهية له ، بل ولدولته . وكانت هذه الحركة — التى هددت بأفدح الأخطار — ثمرة مرة لسياسته تلك : سياسة الشدة والتسلط ، دون محاولة اجتذاب قلوب الناس بالعدل والرحمة .

وقد رأينا — فى مناسبة سابقة — أنه كان ينبغى للخليفة عبد الملك —

بعد أن فرغ من أمر الخوارج — أن يستبدل بالحجاج واليا آخر ، يتبع سياسة جديدة تهدف إلى ربط قلوب الناس بالدولة ، بشعور الولاء والمحبة . ولكنه لم يفعل ، فكانت هذه هى النتيجة . ويبدو أن عذر عبد الملك فى ذلك أنه — أولا — فوض أمر العراق إلى الحجاج ، وكان أوثق ما يكون من إخلاصه له وللدولة . وثانيا — لأنه — كما أشرنا إليه من قبل — كان سيىء الرأى فى أهل العراق ، إذ كان يرى أنهم ميالون إلى الغدر وعصيان الأوامر ، فهم محتاجون إلى الشدة ، ولا يسيرهم إلا رجل قوى مثل الحجاج .

* * *

ولكن سياسة الشدة — إن كان لابد منها — فيجب أن تكون موقوتة ، ولا تتخذ مبدأ دائما ، ويجب أيضاً أن تقترن بالعدل .

وقد كان لأهل العراق شكاوى يجب الاعتراف لبعضها بأنها كانت عادلة . فمن ذلك أن الدولة كانت تسير على قاعدة تفضيل أهل الشام ومنحهم أعطيات أكبر . وكان جند الشام يقيمون بالعراق فيتأذى بهم الناس ، . فكانت هذه محاباة أو تحيزا . وسياسة المحاباة تضر الدولة لأنها تفسد القلوب . كما أن الحجاج كان صارما فى عقوبته ، شديداً على أهل الخراج ، مسرفا فى الدماء .

والواقع أنه كان يعامل العراق كأنه إقليم محتل ، ويعامل أهله كأنهم شعب مغلوب . وكان موقفه منهم موقف الحاكم العسكرى الذى يسيرهم ويجبرهم بما يشبه الأحكام العرفية. وكان ينعتهم فى خطبه بأنهم «أهل الشقاق، والنفاق»، و « الفجرات » و « الغدرات » و « النزوات » ، ويقول إنه ما شعب شاغب ، أو نعب ناعب ، إلا كانوا أتباعه وأنصاره ! . فكانت الثقة منعدمة

إذن بين الجانبين ، واتسعت الهوة بينه وبينهم . فكان لا يستطيع أن يعيش بينهم إلا إذا ظل هكذا حاكما عسكريا ، أو جبارا ، أو « ديكتاتورا » . وقد ظل يعتمد فى حكمه لهم على جند الشام . ولذا بنى لهؤلاء الجند مدينة « واسط » ، لتكون قاعدة لهم .

فهذه سياسة خاطئة ، كان من نتائجها تلك الثورة التى كادت أن تهدم كل شىء ، وتطيح به ، وعرضت الدولة لخطر جسيم . وقد جعلت اسمه — على رغم الأعمال العظيمة التى قام بها — مكروها فى الأجيال . بل أساءت أيضاً إلى سمعة عبد الملك . ولئن نجحت هذه السياسة فى المدى القريب ، فإنه كان لا بد أن تحدث عنها نتائج ضارة أو خطيرة ، فى المدى البعيد . وفى رأينا أن الحجاج وسياسته كانا من العوامل التى أدت إلى انهيار دولة بنى أمية فيما بعد .

على أننا — مع هذا كله — لا نبرر أن يقوم أهل العراق بثورة ، كتلك التى قاموا بها . وليس الطريق للوصول إلى الإنصاف ورفع الشكاوى هو طريق السيف ، ومقاتلة المواطنين ، ومحاولة هدم الدولة التى تكفل الأمن والسلام والعزة للجميع . إن الحركة التى قام بها جيشهم فى سجستان — وما بعد ذلك — بقيادة ابن الأشعث ، لا يمكن أن ترى إلا على أنها حركة تمرد وعصيان ، من جيش على رئيسه الأعلى وعلى الدولة . ومثل هذه الحركة تدمغ اليوم بأنها خيانة وطنية . ولا يمكن أن تبرر على أى وجه .

وإنما نحن نبين أن الحجاج بسياسته هذه مسئول عن قيام هذه الحركة ، والنتائج السيئة التى أدت اليها . إنه يحمل — الى حد كبير — وزر الحركة . لأنه دفع الناس اليها ، وهيأ الجو لها بإعدامه الثقة بينه وبين الرعية ، واتباعه سياسة العسف التى تبث الكراهية ، بدل سياسة التعاون والإنصاف والعطف .

ولا نبرىء ابن الأشعث أيضاً من المسئولية ، لأنه عصى أميره ، واستغل الموقف ليرضى طموحه ، وظن أنه سينجح بفتنته فيحقق مجداً شخصياً . ولكنه لاقى جزاءه ففر وشرد ، ثم لم يجد أمامه إلا أن يقتل نفسه .

ولقد أضاع أهل العراق فرصة طيبة ، حينما عرض عليهم عبد الملك عزل الحجاج ، فرفضوا . كان هذا العرض عدلا وإنصافاً من عبد الملك ، وحسن سياسة ، وبه أقام الحجة عليهم . وهم أخطأوا خطأ بالغاً برفضهم ، وكانوا فى ذلك مأفونى الرأى .

على كل حال ، أراد الله للدولة الخير . ففشلت هذه الحركة ، ونال مثيروها جزاءهم . ووقى الله الأمة والمسلمين ، ونجت الدولة . واستمرت فى طريقها لتحقق أعمالها الكبيرة .

(ب) الإصلاحات

أولا : — إصدار العملة العربية

ظلت الدولة الإسلامية العربية ، منذ نشأتها حتى عهد عبد الملك بن مروان ، تتعامل بالنقود الأجنبية . ذلك أن العرب منذ الجاهلية كانوا يذهبون فى التجارة إلى بلاد الروم ، فيحصلون على عملة الدولة الرومية . ويذهبون كذلك إلى بلاد الفرس أو اليمن ، فيحصلون على العملات الفارسية واليمنية . وكانت هذه هى النقود الموجودة فى الأسواق . ولما ظهر الإسلام وفتح العرب تلك البلاد ، وجدوا فيها العملات الرومية والفارسية . كانت الدنانير الذهبية ترد إذن من بلاد الروم ، والدراهم الفضية تأتى من بلاد الفرس ، وهناك دراهم قليلة ترد من بلاد اليمن .

ولم تهتم الدولة الإسلامية — فى بادىء الأمر — بأن تصدر نقوداً خاصة

بها ، فهذه العملات فى بادىء الأمر كانت موفورة . وكل ما فعله الإسلام أن أقر وزنا شرعيا خاصا ، وهو الوزن الذى كانت تتعامل به قريش فى مكة . ذلك لأن العرب والتجار كانوا يتعاملون بهذه النقود بالوزن ـ لا بالعدد ـ كأنها تبر ، وليست نقوداً ، لاختلاف أحجام وأوزان الوحدات النقدية ، فلا يضمن العدل إلا بالوزن .

***

ثم اتسعت الدولة الإسلامية ، وتطورت إلى امبراطورية ممتدة الأطراف ، وكثر فيها التعامل وازداد نشاطها التجارى . وكانت دولة الفرس قد انتهت . وانقطعت العلاقات التجارية بين الدولة الإسلامية والروم — أو قلت . فأدى ذلك إلى أنه — فى الوقت الذى كثر فيه التعامل ، وازداد النشاط الاقتصادى فى الدولة الإسلامية — أخذت تقل كمية النقود السائلة فى الأسواق ، لانقطاع مصادرها ، أو صارت ـ باطراد ـ لا تتناسب ولا تتكافأ مع نشاط الدولة المالى ، وحاجاتها الاقتصادية . وظلت الحالة تزداد سوءا ، حتى وصلت إلى درجة خطـيرة .

وكان أهم عامل أدى إلى سوء الوضع المـالى — ولاسيما بالنسبة للنقود الفارسية — أن هـذه النقود دخل عليها الغش والتزييف ، منذ أواخر عهد الدولة الفارسية . واستمر الغش فيها بعد ذلك ، وكذلك كثر تزييف أو إنقاص العملة الذهبية . قال « قدامة » بالنسبة للدولة الفارسية : « ولمـا أخذ أمر الفرس يضمحل ، ودولتهم تضعف ، وسياستهم تضطرب — فسدت نقودهم . فقام الإسلام ونقودهم من العين (الذهب) والورق (الفضة) غير خالصة . إلى أن اتخذ الحجاج دار الضرب وجمع فيها الطباعين الخ » . وقرر

ابن خلدون أنه « تفاحش الغش فى الدنانير والدراهم » ، « إلى أن جاء عبد الملك وأمر بطبع العملة » .

وهكذا كانت العملة الموجودة بالأسواق - كما نقول بالتعبير الاقتصادى - قد أصبحت « عملة رديئة » . والعملة الرديئة - كما ينص على ذلك قانون اقتصادى مشهور - تطرد دائما العملة الجيدة من السوق . وأدى ذلك إلى نتائج اقتصادية ضارة كثيرة : فمنها هبوط قيمة العملة ، وارتفاع أسعار الحاجيات ، وزوال الثقة المالية ، ومن أهمها الغبن الذى يقع على الدولة فى استيفاء حقوقها من الضرائب ، فيؤدى ذلك إلى نقص كمية الخراج .

لكل هذه الأسباب ، ولأنه ما كان يمكن أو يصح أن تظل دولة — بل امبراطورية كبيرة كالدولة العربية الإسلامية — معتمدة فى تعاملها التجارى أو الاقتصادى العام على نقود أجنبية — كان لا بد من اتخاذ إجراءات لإصلاح هذا الوضع المالى الجامد ، الذى صار غير طبيعى ، وأيضاً لكى تستكمل الدولة شخصيتها أو مقوماتها الاقتصادية ، وتحقق سيادتها أو استقلالها المالى ، وتتمم كرامتها القومية .

* * *

وجاءت حادث يؤثر فى الكرامة القومية . فكان هو السبب الأخير أو المباشر ، الذى جعل المسئولين يرون ضرورة البدء فى الإصلاح . هذا الحادث كان من أسباب سوء العلاقات بين الدولة الإسلامية ودولة الروم البيزنطية ، الذى سبق إعلان الحرب بينهما . وهى الحرب التى نشبت بين الخليفة عبدالملك وجستنيان — التى أشرنا إليها قبلا . وذلك فى سنة ٧٣ (٦٩٢) وما بعدها .

وموجز الحادث أن مصر — وكانت مشهورة بصنع الورق — كانت تصدر ورق الكتابة (القراطيس) إلى دولة الروم ، وكانت الدولة الإسلامية —

فى مقابل ذلك — تحصل على الدنانير الرومية . فحدث أن عبد الملك بن مروان أمر أن تكتب آية : «قل هو الله أحد» فى صدر هذه الصحف ، بدل عبارات التثليث ، والصليب الذى كان يرسم عليها . فغضب ملك الروم ، وكتب إلى الخليفة : « إنكم أحدثتم فى قراطيسكم كتابا نكرهه . فان تركتموه ، وإلا أتاكم فى الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه » . فساء ذلك عبد الملك وكبر عليه ، وشعر أن ملك الروم يهدده . وحينئذ أدرك أن الدولة الإسلامية الكبيرة لا يصح أن تظل معتمدة على النقد الذى يرد من بلاد العدو ، وتبقى عرضة لتهديده أو إذلاله ، وهو العدو الذليل الذى يجب أن يبقى خاضعا .

***

قرر عبد الملك إذن أن يحقق للدولة استقلالها المالى ، ويجرى الإصلاح الذى يزيل المفاسد الاقتصادية التى تحدثنا عنها ، ويضمن سلامة العملة ، ويوفر الشروط اللازمة للنمو الاقتصادى وانتشار الرخاء . وبذلك قرر إصدار العملة العربية القومية .

ففى عام ٧٤ هـ أنشأ دارا للضرب فى دمشق ، وبدأ باصدار الدينار العربى الذهبى ، فى ذلك العام — وهو عام الجماعة . وكذلك أصدر أمره إلى الحجاج بإنشاء دار للضرب فى الكوفة ; وبدأ الحجاج بإصدار الدرهم العربى الإسلامى . وعم ضرب العملة فى جميع الأنحاء منذ سنة ٧٦ هـ . وقد أصدر عبد الملك الدينار والدرهم على الوزن الشرعى ، والنسبة المعينة التى حددها الاسلام وذلك منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام والخليفة عمر بن الخطاب . فجاءت عملة نقية خالصة . وحرصت الدولة على سلامة النقد . ومنعت ضرب النقود إلا فى الدور الحكومية المعتمدة . وشددت فى عقوبة من يمس العملة بغش أو تزييف .

فكان هذا إصلاحا شرعيا أو عملا دينيا أيضا ، يضاف إلى حسنات عبد الملك ، إلى جانب أنه اصلاح اقتصادى .

ولما صدرت العملة الإسلامية وكثرت ، أمر عبدالملك بمنع التعامل بالنقود الأجنبية الرومية والفارسية وغيرها ، التى كان أكثرها عملة مغشوشه — كما بينا — وجمعت من الأسواق ، وأعيد سبكها وطبعها على النسبة الجديدة . وهكذا بطل التعامل — نهائيا — بالنقود الأجنبية . وصارت العملة الرسمية المعترف بها ، منذ ذلك الحين ، هى العملة العربية الإسلامية الصحيحة : الدينار العربى الذهبى الخالص ، والدرهم الإسلامى الفضى الخالص ، والوحدات اللاتى ينقسمان إليها . وأصبحت سمعة هذه العملة أشرف سمعة ، لأنها كانت تمثل أعلى درجة فى الجودة والنقاء .

هذا الإصلاح الكبير — الذى كانت له أنفع النتائج الاقتصادية ، ووفر للدولة أيضاً ، من ناحية أخرى ، أحد عناصرها المعنوية ، ومقوماتها القومية — كان الفضل فيه للخليفة عبد الملك بن مروان .

ثانيا — اللغة العربية هى اللغة الرسمية

نفذ عبد الملك أيضاً إصلاحاً آخر ، كان له أجل النتائج من حيث صيانة أحد المقومات الكبرى للأمة ، وحفظ كيانها القومى ، وهو خاص باللغة. واللغة — بلا جدال — من أكبر مقومات وأهم أركان القومية .

فقد بقيت أهم دواوين فى الدولة — وهى دواوين الخراج — وهى التى كانت تشرف على الشئون المالية للدولة ، وكانت موجودة فى عواصم الدولة العربية الإسلامية ولها فروعها فى مدن كثيرة — بقيت هذه الدواوين تستعمل اللغات الأجنبية — كما كانت حالها فى عهود الدول السابقة قبل ظهور الإسلام

فكانت لغة الدواوين فى العراق هى اللغة الفارسية ، ولغتها فى الشام الرومية أى اليونانية ، وفى مصر اليونانية والقبطية .

استمر الحال على ذلك ، منذ بدء الإسلام حتى عهد عبد الملك . فكانت نتيجة ذلك احتفاظ الدولة بطوائف من الموظفين ، الذين يعتبرون أجانب ، أى من غير العرب والمسلمين . ومن نتائجه بقاء تلك اللغات الأجنبية حية ، وكأنها معترف بها لغات رسمية ، ويقبل الناس على تعلمها وإتقانها لحاجة الدولة إليها ، وكونها طريقا لتولى الوظائف العالية . ولو استمر الحال كذلك لبقيت هذه اللغات منافسة للغة العربية ، ولما أمكن للغة العربية أن تتغلب عليها ، بل لأدى ذلك إلى انتشار هذه اللغات الأجنبية ، وكان هذا يضعف من شأن اللغة العربية وخطرا يهددها ، وبالتالى كان يضعف من تكوين الدولة القومى .

* * *

وشعر عبد الملك بتعارض هذا الوضع مع شخصية الدولة العربية الإسلامية ، التى كان يرأسها ويرعاها . وكان هو مهتما بالإشراف على جميع شئون الدولة ، وحريصاً على أن تبلغ الإدارة درجة عالية من الكفاءة والدقة والانتظام ، ووجد — من الناحية العملية — أن هذا لا يمكن أن يتم مادام هؤلاء الموظفون غريبين عن الدولة ، وما دامت اللغات التى يستعملونها فى الأعمال والمكاتبات الرسمية هى لغات أجنبية . فقرر عبد الملك إزالة هذا الوضع الشاذ ، وأصدر أوامره بتحويل الدواوين إلى اللغة العربية ، فتكون اللغة العربية هى اللغة الرسمية الوحيدة فى جميع الدواوين ، وفى الدولة . وهذه هى الحركة التى تسمى فى كتب التاريخ بحركة : « تعريب الدواوين » . وكانت لها نتائج عظيمة بعيدة المدى .

كان رئيس ديوان الخراج بدمشق هو « منصور بن سرجون الرومى »، وكان محتكرا لهذا العمل منذ عهد معاوية . فأمر عبد الملك شخصا عربيا هو « سليمان بن سعد الخشنى » الملقب أبا ثابت ، أن يقوم بتحويل الديوان من الرومية إلى العربية . فقام سليمان بذلك منذ سنة ٨١ هـ . وأتم النقل بعد سنة . وكان عبد الملك قد جعل له خراج الأردن فى مقابل هذا العمل . ولما أتم النقل ، عزل سرجون وتولى سليمان رئاسة الديوان . وحينئذ قال منصور لكتاب الروم : « اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة » . وأمر عبد الملك بتحويل جميع دواوين الشام ، على هذا النحو .

وكان رئيس ديوان العراق يسمى « زاذان فروخ » — وهو فارسى — وكان محتكرا لهذا العمل كذلك من أيام يزيد — وقتل فى أثناء فتنة ابن الأشعث فى عام ٨٢ هـ . وجاء قتله مناسبا للوقت الذى اتجهت فيه الدولة إلى تعريب الدواوين ، وصدر الأمر بذلك من الخليفة عبد الملك . فعين الحجاج بدلا منه صالح بن عبد الرحمن ، وأمره بتحويل ديوان العراق من الفارسية إلى العربية . وكان صالح يحذق اللغتين معا ، وحدد الحجاج له أجلا لينهى عمله . فأتم مهمته بنجاح . وحكى أن « مردانشاه » بن زاذان فروخ بذل له مائه ألف درهم ، على أن يظهر عجزه عن هذا العمل ويمتنع عنه ، فأبى . وحينئذ دعا عليه لأنه — كما قال — قطع أصل الفارسية . وأمر الحجاج بتحويل جميع دواوين العراق من الفارسية إلى العربية . وتخرج على يد صالح هذا أكثر كتاب العراق ولذا كان عبد الحميد الكاتب يقول: «لله در صالح، ما أعظم منته على الكتاب ».

وكذلك تم نقل ديوان الخراج أيضا فى مصر، من اليونانية والقبطية إلى اللغة العربيه ، ولكن فى وقت بعد هذا ـ أمر بنقله عبد الله بن عبد الملك فى آخر عهد أبيه .

ثم تم تحويل جميع الدواوين فى سائر أنحاء الدولة إلى العربية ، فى أوقات بعد ذلك .

بذلك أصبحت اللغة العربية هى لغة جميع الدواوين ، ولغة الدولة . وكانت كبرى نتائج ذلك إبطال تلك اللغات الأجنبية ، فتحقق نصر اللغة العربية عليها. وكان تعريب الدواوين سبيلا إلى تعريب الجاليات والأقاليم ، فكان هذا من أكبر العوامل فى انتشار العربية . ولما كانت هى اللغة التى تؤدى إلى الوظائف والمناصب العالية ، فقد أصبحت لها المكانة الممتازة . وأقبل الموالى وغيرهم على تعلمها وإتقانها ، فتكونت فى الدواوين طبقات من الموظفين المثقفين الذين حصلوا على قدر من الثقافة العربية ، ونبغوا فى الكتابة والآداب العربية . ومن أظهر الأمثلة فى ذلك : عبد الحميد الكاتب ، ثم كبار الكتاب فى عهد بنى العباس .

حفظ للأمة العربية إذن أكبر مقوم لثقافتها القومية ، وأغلى عنصر تعتز به — بعد دينها — فى تكوين شخصيتها — ألا ، وهو اللغة العربية . وكان لعبد الملك فضل لا يقدر فى ذلك .

مكانته فى التاريخ

فالآن، بعد أن وصلنا إلى هذه الغاية وفى ضوء ما قدمنا من حقائق عن سيرة عبد الملك وأعماله وفتوحاته وإصلاحاته ، نستطيع القول بأن مكانته فى التاريخ قد أصبحت واضحة . فهذه المكانة تحددها الجوانب الرئيسية التالية :

أولا : أنه حفظ الدولة وثبت دعائمها ، ومكنها من البقاء والاستمرار .

ثانيا : أنه حقق وحدة الدولة . وهذا مطلب غال. وهو أكبر ضمان لبقائها ونموها وازدياد قوتها .

ثالثاً : أنه عمل على تقوية الدولة ، وجعلها تسترد مكانتها وهيبتها وسيادتها على الأعداء — كما كانت ، أو أكثر .

رابعاً : أنه وسع حدود الدولة ، فأضاف إليها أقاليم جديدة . وأهم ما تحقق فى هذا الشأن فتوحه فى بلاد المغرب . فأصبحت منذ ذلك الحين جزءاً لايتجزأ من الدولة العربية .

خامساً : وضع أساس السيادة الاقتصادية للدولة بإصداره العملة العربية .

سادسا : حفظ أحد المقومات الكبرى للدولة وللقومية بتحويله جميع الدواوين إلى اللغة العربية .

وقد استمرت الدولة بعد ذلك محتفظة بهذه المميزات والمقومات والأسس ، حتى بعد أن انتهى عهد الدولة الأموية ، وذلك بعد نحو نصف قرن . فإن الدولة العباسية إنما قامت — أيضاً — على هذه الأسس ، واحتفظت بهذه المقومات . وكانت — على رغم تغيير الأسرة — استمرارا للدولة الأموية ، من حيث القواعد الجوهرية . ولولا إقامة عبد الملك الدولة على أسس ثابتة ، وتحقيق وحدتها ، وإعادة قوتها وروحها وتدعيم نظمها — لما أمكن لبنى العباس أن يقيموا دولتهم ويحفظوها ، ويسيروا بها إلى أن أوصلوها الذروة التى بلغتها . فاللاحق بنى على جهود السابق ، والدولة الإسلامية العربية استمرت فى حياتها .

بقيت بعد ذلك جوانب ، تعرف من دراسة شخصية عبد الملك وصفاته وسياسته ، وتتصل أيضاً بأثره فى التاريخ ببقاء الخلافة والملك فى بيته ، إذ تولى أمانة الحكم بعده أولاده ، ثم استمر الملك فى أحفاده وذريته حين أقاموا الدولة الأموية الأخرى فى المغرب : أى الأندلس . فهذه هى النقط الباقية ، ونتحدث عنها الآن ليتم بها الحديث عن هذه الشخصية الكبيرة الأثر فى التاريخ .

الفصل العاشر

شخصية عبد الملك

سياسته - خلفاؤه

لا بد أن شخصية عبد الملك قد أصبحت الآن متميزة من خلال دراسة سيرته وأعماله وجهوده وسياسته . لكن هذه الصورة تزداد وضوحاً وجلاء ، وتتحدد ملامحها ، إذا عينا الصفات الخاصة التي تميز شخصيته ، وجمعناها في نسق واحد . وعرفنا نماذج من صلاته الإنسانية ، وأسلوب إشرافه على الدولة ومبادىء سياسته ، ومن حياته في الأسرة وأثره فيها ، وهذا ما نحاول أن نضيفه — فيما يلي — إلى هذه الصورة . وهو ختام البحث.

* * *

فإذا أردنا — أولا — أن نعرف شيئاً عن صورته الجثمانية ، فلم يرد إلا القليل . فهذا ما ورد . قال « المدائني » : « كان عبد الملك آدم (أي أسمر) جميلا أقنى ، كأنه من رجال ثمود في تمامه » . واستشهد بعد ذلك بما قال عبدالله ابن قيس الرقيات ، وهو يمدح عبد الملك :

يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب !

فحكى المدائني أن رجلا سمع هذا الشعر ، فقال :

نعلم — والله — أنه (أي الشاعر) قد رآه : أي أن هذا الوصف صادق ينطبق على عبد الملك .

فبعد أن نتخيل عبد الملك فى هذه الصورة — نتقدم لمعرفة صفاته النفسية ، ويهمنا أن نعرف الصفات البارزة قبل كل شيء .

فما قد تبين لنا من دراسة تاريخ عبد الملك أنه كان قوي الإرادة ، وأنه كان ثابت العزم ، يصر على الوصول إلى غايته ، مهما كان فى طريقه من عقبات ، ومهما حاول المترددون أن يثبطوا من همته . وكانت الشجاعة لديه موفورة ، فيقدم على إرسال الجيوش ومنازلة الخصوم وخوض معارك القتال ، دون أن يتهيب الصعاب أو يخشى المخاطر . وهاتان الصفتان : ـ قوة الإرادة ، والشجاعة — فى مقدمة الصفات التى تشترط للقيادة والزعامة ، فلا يصلح لقيادة الأمم ورياسة الدول إلا من كانت متوفرة فيه هاتان الصفتان . وبفضل هاتين الصفتين ، استطاع عبد الملك فعلا أن يصل إلى غايته : من الانتصار على خصومه ، ونجاحه فى تحقيق الوحدة .

وكانت تصاحب هاتين الصفتين ـ أو هى فرع عنهما ـ صفة عبر عنها القدماء فى تحدثهم عن عبد الملك ، بأنها : « الحزم » . ويقصد به الثبات فى مواجهة المواقف ، واتخاذ القرارات ، والبت فى الأمور دون تردد . ولذا قالوا : « كان معاوية أحلم ، وعبد الملك أحزم » . وبذلك شهد له أبو جعفر المنصور — وقد ذكر ملوك بنى أمية — فقال : « كان عبد الملك أشدهم شكيمة ، وأمضاهم عزيمة » .

فإذا أردنا أن نجمع هذه الصفات كلها فى صفة واحدة ، ونجملها صفة تعبر عن شخصية عبد الملك ـ قلنا إن الصفة التى نستخلصها من تصرفات عبد الملك وأعماله وسياسته هى : القوة . فالقوة هى الطابع العام لشخصيته : القوة فى الإرادة والعزم والسلوك والتنفيذ . وقد كان الموقف الذى وصلت إليه الأمة

والدولة فى ذلك الوقت — كما شرحنا فى الفصول السابقة — يتطلب رجلا له هذه القوة النفسية ، ليحل الأزمات والمشاكل بقرارات نهائيـة يتخذها وينفذها ، بقوة الإرادة والإصرار والحزم . وهكذا تمكن عبد الملك من حل جميع المشاكل التى كانت أمامه — وقد سبق أن فصلنا القول فيها — فحين ترك الدولة لابنه الوليد تركها هادئة ، خالية من المشاكل والتعقيدات . فكانت سفينة الحكم فى عهد الوليد تسير فى بحر مستقر ، وجو هادئ . ولذا أمكن أن تتم فى مدته أعمال عظيمة .

ومن الأمثلة الظاهرة على حزم عبد الملك : تصرفه فى مسألة عمرو بن سعيد الذى قام بمؤامرة لقلب الدولة ، فقد تحرك عبد الملك بسرعة ، وبت فى الأمر ، وقضى على الفتنة فى مهدها ، دون أن يدفعه إلى التردد عامل القرابة والصلة ، أو مكانة عمرو أو اعتبارات أخرى . وقد ذكر عبد الملك هذه المسألة — فى أواخر عهده — فى أثناء حديث جرى بينه وبين أحد مستشاريه حول التأنى والعجلة ، فقال عبد الملك : « .. ربما كان فى العجلة خير كثير . أرأيت عمرو ابن سعيد ، ألم تكن العجلة فى أمره خيراً من التأنى فيـه » ! . وقد كانت هذه المسألة مثلا أو درساً ، ردع من كانت نفسه تحاول أن تحدثه أن يفعل مثلما فعل عمرو بن سعيد .

* * *

وقد كان من نتائج صفة القوة أن عبد الملك كان شديداً فى سياسته . وهذه الشدة كانت موجهة — بصفة خاصة — ضد المخالفين أو العصاة ، أو من يحتمل أن يكونوا كذلك . وقد ظهرت هذه الشدة فى معاملته لأهل العراق . فلا شك أن عبد الملك أوصى عامله الحجاج حين أرسله إلى العراق أن

ينهج منهج الشدة ، وتدل على ذلك خطبة الحجاج . وكان الأمر يقتضى ذلك ، لتخاذل أهل العراق عن الدفاع عن وطنهم والدولة ضد الخوارج ، ودأبهم على العصيان ، لكن الحجاج استمر فى هذه السياسة ، وجعلها قاعدة بعد انتهاء مقتضيها . فأدت إلى عكس ما يراد منها . فكان هذا خطأ فى السياسة . وقد أوضحنا ذلك فيما مضى حين تحدثنا عن سياسة الحجاج ، وحملنا عبد الملك أيضاً جانباً من المسئولية .

وقد بينا أيضاً فى فصل سابق « الرابع » السبب أو العلة فى انتحاء عبد الملك منحى الشدة واتباع سياسة الصرامة والحزم ، فقلنا إن أكبر درس تلقاه فى مطلع عمره ، ورسبت عبرته فى أعماق نفسه ، كان هو الدرس الذى أخذه من مقتل الخليفة عثمان الذى كان عميد أسرته وقمة مجدها . فقد فجع بمصرع هذا الخليفة . ولم يجد سببا لحدوث الفاجعة أو الكارثة إلا ضعف أو تهاون عثمان ، إذ أن الخليفة لو كان اتبع سياسة الشدة ضد الذين شغبوا عليه ، لقضى عليهم من بادىء الأمر ، ولم يعرض نفسه والدولة للكارثة التى وقعت . فمن ذلك الحين وعى عبد الملك هذا الدرس ، ثم رأى الفتن التى حدثت بعد ذلك وعواقبها . فحين شاءت الأقدار أن تضعه فى موضع عمه الخليفة عثمان ، عزم على أن يطبق الدرس ويتمسك به ، وهو يكره الفتن ويعتقد أن خير سياسة هى الشدة أو القوة وفيها النجاة للنفس والدولة ، وأن فى الضعف والتردد الخطر والهلكة . وقد أوردنا فى ذلك الفصل المذكور نص حديث عبد الملك عن هذا الموضوع ، وكان مما قال فيه : « وما خالف عثمان عمر فى شىء إلا باللين . فإن عثمان لان لهم حتى ركب . ولو كان غلّظ عليهم جانبه كما غلظ عليهم ابن الخطاب ، ما نالوا منه ما نالوا » .

وتظهر هذه السياسة فى خطب ولاته كخطبة الحجاج ، وفى خطبه هو أيضاً . ونذكر هنا نص خطبتين له — وهما يبينان أيضاً أسلوبه فى الخطابة :

فالخطبة الأولى خطبها فى دمشق ، بعد حادث عمرو بن سعيد ، وفيها قال — بعد المقدمة — : « ارموا بأبصاركم نحو أهل المعصية ، واجعلوا سلفكم لمن غبر منكم عظة . ولا تكونوا أغفالا من حسن الاعتبار ، فتنزل بكم جائحة السطوات ، وتجوس خلالكم بوادر النقمات . وتطأ رقابكم بثقالها العقوبة ، وتترككم همدا رفاتا ، وتشتمل عليكم بطون الأرض أمواتا . فإياى من قول قائل ، ورشقة جاهل ؛ فإنما بينى وبينكم أن أسمع النغوة ، فأصمم تصميم الحسام المطرور ، وأصول صيال الحنق الموتور . وإنما هى المصافحة والمكافحة بظبات السيوف وأسنة الرماح. فانظروا لأنفسكم وأقبلوا على حظوظكم . وليكن أهل الطاعة يدا على أهل الجهل من سفهائكم . واستديموا النعمة التى ابتدأتكم برغيد عيشها ونفيس زينتها ، فإنكم من ذلك بين فضيلتين: عاجل الخفض والدعة ، وآجل الجزاء والمثوبة . عصمكم الله من الشيطان وفتنته ونزعه ، وأمدكم بحسن معونته وحفظه . انهضوا — رحمكم الله — إلى أعطياتكم غير مقطوعة عنكم ولا مكدرة عليكم » .

أما الخطبة الثانية فقد خطبها بالمدينة — وذلك بعد عودته من مكة عام حج سنة خمس وسبعين — وكان ذلك بعد إحرازه النصر وانتهاء أمر عبد الله ابن الزبير ، فقد صعد المنبر وألقى الخطبة التالية :

« أما بعد — أيها الناس — فلست بالخليفة المستضعف، ولا الخليفة المداهن ، ولا الخليفة المأفون (يعنى بذلك الخلفاء : عثمان ومعاوية ويزيد — على الترتيب).

ألا وإنى لاأداوى أدواء هذه الأمة إلا بالسيف ، حتى تستقيم لى قناتكم فمن أحب أن يبدى صفحته فليفعل .

تكلفوننا أعمال المهاجرين ، ولا تعملون مثل أعمالهم ؟!

إن الله عز وجل فرض فرائض وحدد حدودا . فما زلتم تزدادون فى الذنوب ونزداد فى العقوبة ، حتى اجتمعنا وأنتم عند السيف .

هذا عمرو بن سعيد ـ قرابته قرابته، وموضعه موضعه ـ قال برأسه كذا ، فقلنا بأسيافنا كذا .

ألا وإنا نحمل لكم كل شىء ، إلا وثوبا على أمير ، أو نصب راية .

ألا وإن الجامعة التى جعلتها فى عنق عمرو بن سعيد عندى ، فو الله لا يفعل أحد فعله إلا جعلتها فى عنقه .

أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم » . ثم نزل .

فهاتان الخطبتان تدلان على السياسة التى اختارها عبد الملك ، وهى سياسة الحزم والقوة . ولا غرو ، فهذه السياسة كانت رد الفعل للفتن التى اجتاحت الأمة وفرقت أمرها ، وآذتها طوال سنين عديدة . وقد لخص الجاحظ حياة عبد الملك — فى دوريها — فى قوله الذى سبق أن اقتبسناه ، إذ قال : « كان عبد الملك بن مروان سنان قريش وسيفها ، رأيا وحزما . وعابدها قبل أن يستخلف ورعا وزهدا » .

نستخلص من كل ذلك أن الفترة التى كانت تجتازها الأمة فى ذلك الوقت كانت تتطلب القوة والحزم ، وأن عبد الملك كان الشخصية المناسبة للموقف ولقيادة الأمة فى ذلك الدور ، وأن القوة كانت الطابع العام لسياسته . وكان

هو بشعر بذلك وبثقته فى نفسه ، إذ كان يقول : « والله ما أعلم مكان أحد أقوى على هذا الأمر منى » .

* * *

على أننا يجب أن نفرق بين الشدة والقسوة، وبينها وبين الرغبة فى التسلط أو النزوع إلى الاستبداد. فقد كانت شدة عبد الملك بعيدة عن هذا. وإنما كانت نوعا من الحزم لمنع الفتن أو قمعها ، وكان رائدها المحافظة على سلامة الدولة وطاعة القانون ، لا الرغبة الشخصية حبا فى التحكم أو الانتقام ، حتى الشدة التى جاوزت حدها من الحجاج كان رائده العام فيها حرصه على سلامة الدولة وسيادة القانون والنظام ، لكنه أخطأ فى التنفيذ وغلا ، فلم يراع الشعور العام ولا الخاص ، حتى انقلب حكمه إلى نوع من التجبر والعسف . ولا نخليه أيضاً من النزعات الشخصية .

وقد لاحظ عبد الملك إسرافه هذا، فكتب إليه يلومه على ذلك ، وكثيراً ما كان يؤنبه ويرشده . ولما تبين لعبد الملك خطأ سياسة الحجاج فى أثناء فتنة ابن الأشعث ، عرض على أهل العراق عزل الحجاج ، وتولية أخيه محمد بن مروان عليهم — كما قدمنا — وكان هذا إنصافا وحكمة من عبد الملك — لكنهم رفضوا ، وأصروا على أن يداوموا الحرب ضد عبد الملك والدولة : فاستحقوا بذلك سوء رأى عبد الملك فيهم ، وصار من الضرورى إبقاء الحجاج عليهم ، عقابا لهم وتأديباً ، وحتى يعودهم الخضوع ويشفيهم من داء الفتنة والعصيان . فهذه كانت حالة خاصة أو استثنائية .

* * *

لكننا نرى أن شدة عبد الملك كان يقترن بها — بصفة عامة — الحكمة.
كما يتجلى ذلك في توصيته للحجاج أن يكف عن العلويين ، وأن يجنبه دماء آل أبي طالب . وقد سبق أن روينا نص وصاته فى ذلك . ولذا لم يحدث فى عهد عبد الملك شيء يثير الرأى العام . بل إنه أحسن معاملة آل على وآل العباس . وقد كان هذا من بواعث الاستقرار فى عهده وعهد ابنه الوليد . ولم نسمع عن قتل أحد من الناس أو اضطهاده لغرض شخصى ، وحتى الخصوم السياسيين ، الا من اشتركوا فى فتنة أو ثورة ضد الدولة .

بل أننا إذا تعمقنا فى فهم شخصية عبد الملك نتبين أن شدته كانت ظاهرية ، وأنها كانت مجرد اتخاذ موقف حازم من المخالفين والعصاة لأن الضرورة العملية كانت تقتضى ذلك ، أى أنها كانت سياسة فرضتها أو تفرضها الظروف والأحوال القائمة . أما حقيقة شعور عبد الملك فإنه كان يميل إلى العفو والمسالمة والود . فنرى ذلك من أنه كان يعرض الأمان على أعدائه قبل بدء القتال وفى أثنائه ، ويكره قتلهم ، ثم يعز عليه مصيرهم : كما حدث مع مصعب ، وعبد الله بن الزبير وزفر بن الحارث ، ومن كان معهم ، وغيرهم . فهذا يدل على سمو نفسية عبد الملك وسماحته ، وتشبعه بالروح والعاطفة الإنسانية . فمن قبل من هؤلاء الأمان وفى له وعفا عنه ، بل أكرمه ، كما حدث له مع زفر وابنه الهذيل — بعد أن ظلا يقاتلانه سبع سنوات — وقد صارا بعد من خواص جلسائه. ولو كان مصعب وعبد الله بن الزبير قبلا الأمان ، لاستبقيا حياتيهما .

وكما حدث أيضاً من عفوه عن أخوة وأبناء عمرو بن سعيد وأسرته ، ثم وصله لهم وبره بهم . وأمثلة عفوه عن خصومه كثيرة . فقد عفا عن القواد الذين كانوا مع مصعب والذين حاربوه من قبل . فقد روت الأخبار أنه «لما قتل

مصعب واستقام الأمر لعبد الملك ، دخل عليه عمر بن عبيد الله بن معمر ، وسويد بن منجوف ، ونعيم بن مسعود التميمى ، وقيس بن الهيثم السلمى — بعد أن حبسهم على بابه حينا ـ فقال عبد الملك : إنكم سعيتم مع الشيطان فكنتم حزبه ، فلما نكص نكصتم . ثم بعد أن تكلموا بكلام فيه اعتذار واستعطاف — عفا عنهم ، وأسنى جوائزهم » . ووردت أنباء أخرى عن عفوه عن كثير من الناس .

* * *

فهذه الشواهد وغيرها تدل على حقيقة نفسية عبد الملك ، وأنه يميل إلى الرحمة والعفو والمسالمة . وأما الشدة فإنها كانت سياسة وضرورة . أو بعبارة أخرى : إن هذه الشدة كانت نابعة من عقل عبد الملك لا وجدانه . فهى أشبه بالشدة التى يلجأ إليها الوالد لضرورة إصلاح ابنه وتقويم مسلكه ، على حين أن قلبه يفيض بالرحمة والعطف والأسى لما يحدث : وهو ما يعبر عنه الشاعر بقوله :

« فقسا ليزدجروا ، ومن يك حازما   فليقس أحيانا على من يرحم »

وهذا هو الذى يتفق حقيقة مع طبيعة نفسية عبد الملك وخلقه ، وهى نفسية التقى الفقيه الذى يخاف ربه ويعرف أحكامه . وإذن فلا تناقض بين دورى حياة الرجل : ففى الدور الأول كان عابدا محافظا يشتد على نفسه فى أداء واجبه ، وفى الثانى كان سياسيا وراعيا ووالدا ، ينهج منهج الشدة للمحافظة على الأمة والدولة ، وصونهما من شرور الفتن والخلاف والتفرق . وكلاهما واجب دينى : الأول خاص ، والثانى عام . فالخلاصة أن عبد الملك كان رجل الواجب ، صارما فى أدائه والاضطلاع بمسئوليته ، دون أن تختلط بذلك نزعة الحقد أو

الانتقام أو التسلط ، بل فى استعداد للرحمة والعفو والمصالحة . وهذه هى السياسة الجديرة بالمسلم الذى يعرف ربه ، والعربى النبيل .

* * *

وحيث قد عرفنا أن قوة عبد الملك وصرامته تنبعان من عقله ، فقد وصلنا إلى صفة جوهرية تميز شخصيته — وتتفرع عنها صفات أخرى — وهى قوة العقل أو رجاحته . فكل تصرفات عبدالملك وأعماله وسياسته توحى بأن صاحبها رجل موفور العقل، أو أنه «محشو عقلا» ، وأنه سديدالرأى ،تملى عليه تصرفاته الحكمة ، ومتزن الشخصية . وآية ذلك ضبطه لعواطفه ، وقدرته على العفو — كما شاهدنا — ونسيان الماضى ، بما كان فيه من أذى وأضرار . وآيته إنصافه ، حتى لأعدائه . فلم تحمله خصومته لمصعب أوعبدالله بن الزبير — أو غيرهما — أن ينال منهم ، بل كان يعطيهم حقهم ويثنى عليهم . فقد تحدث لجلسائه عن مصعب ووصفه بأنه أشد الناس ، وذلك لأنه — كما قال — : « كان أكثر الناس مالا ، وقد جعلت له الأمان وولاية العراق ، وعلم أنى سأفى له للمودة التى كانت بيننا ، فحمى أنفا ، وأبى وقاتل حتى قتل » ! . فذكر رجل أن مصعبا كان يشرب النبيذ ، فقال عبد الملك : « كان ذلك قبل أن يطلب المروءة ، فأما مذطلبها فلو علم أن الماء ينقص مروءته، ماشربه ». وحدث أن مدح طارق بن عمرو — وهو القائد الذى كان مع الحجاج فى محاصرة ابن الزبير — مدح عبد الله بن الزبير ، فاعترض عليه الحجاج ، وقال له : تمدح من يخالف طاعة أمير المؤمنين . فبلغ كلا منهما عبد الملك ، فحكم بأن طارقاً هو المصيب .

ومما يشهد بقوة عقل عبد الملك ما حدثت به الأنباء أن عبد الملك كان إذا دخل عليه رجل من أفق من الآفاق ، قال له : « أعفنى من أربع . وقل

بعدها ما شئت : لا تكذبني ، فإن المكذوب لا رأي له . ولا تجبني فيما لا أسألك فإن فيما أسألك عنه شغلا . ولا تطرني فإني أعلم بنفسي منك . ولا تحملني على الرعية فإني إلى الرفق بهم أحوج » .

وليس هناك ما هو أكثر حكمة من هذه التعليمات إلى من يجالس الحاكم فهو ينهاه عن الكذب ، لأن الكذب ضلال . وعن أن يخوض فيما لم يسأل عنه وعن النفاق ومداهنة الحاكم . فليس عبد الملك ممن يقبل أو يغره النفاق ، ويحذره أن يثيره ضد الرعية ، لأنه يرى أن الرفق بهم واجب . ومما يؤيد أيضاً ما قررناه ما روى أن عبد الملك سئل : من أفضل الناس ؟ فقال : « من تواضع عن رفعة . وزهد عن قدرة . وأنصف عن قوة » . وبالجملة فإن أعمال عبد الملك وأقواله تشهد برجاحة عقله وقوة رأيه . وسنقرأ أمثلة أخرى أيضاً في وصاياه ، ورسائله ، التي سنورد بعضها بعد قليل .

***

ومن أهم الصفات التي عرفت عن عبد الملك ثباته عند الخطوب وجلده في الشدائد ، فيحتملها بقوة عزيمته ولا يرتاع لها .

ومن ذلك ما رواه التاريخ عن أحد أصحاب عبد الملك أنه قال : « رأيت عبد الملك وقد أتته أمور أربعة في ليلة ، فما تنكر ولا تغير وجهه : قتل عبيد الله بن زياد ، وقتل حبيش بن دلجة بالحجاز ، وانتقاض ما كان بينه وبين ملك الروم ، وخروج عمرو بن سعيد إلى دمشق » . وهذا الخبر يبدو صحيحا في جوهره ، ولكن عند التأمل يعترض عليه بأن هذه الأمور لم تحدث في ليلة واحدة ، ولا في سنة واحدة . فالأول حدث في سنه ٦٧ ، والثاني حدث في

سنة ٦٥ ، والأمران الأخيران حقيقة حدثا فى عام واحد، لكن هذا هو عام ٦٩ هـ. كذلك أورد المسعودى رواية فيها أكثر من هذا الخلط ، وذكر أموراً عديدة ثابت أنها حدثت فى سنوات متفرقة على أنها وقعت فى عام واحد ، أو نفس الليلة.

وكما قلنا إن جوهر الخبر صحيح . وهو أن عبد الملك وردت عليه أخبار مفزعة فى ليلة واحدة أو وقت متقارب ، فلم يظهر أثر الانزعاج عليه ولم يتغير وجهه . لكن الرواة خلطوا بين الوقائع ، ونسوا أمورا فذكروا غيرها . وإذا أردنا أن نصحح الخبر ، فإننا نقول إن هذه الأمور الأربعة — التى يمكن أنها وردت أخبارها على عبد الملك — هى: قتل زهير بن قيس بإفريقية ، وانتقاض ما بينه وبين ملك الروم ، وخروج عمرو بن سعيد ، وحدوث اختلال الأمن فى دمشق . فهذه الأمور الأربعة قد حدثت كلها فعلا فى عام ٦٩ هـ . وقد وردت بعض هذه الأمور فى الروايتين ، ولكن مخلوطة بغيرها . وقد ذكر المسعودى فى ختام روايته — بعد أن عدد ما نمى إلى عبد الملك من المفظعات فى تلك الليلة — قال : « فلم ير عبد الملك فى ليلة قبلها أشد ضحكا ، ولا أحسن وجها ، ولا أبسط لسانا ولا أثبت جنانا ، منه تلك الليلة — تجلدا وسياسة للملوك » .

إدارته للدولة

أما من حيث أسلوبه فى إدارة الدولة ، فإنه كان يشرف على الأمور بنفسه. كان مثال الرئيس العارف بواجبه لا يلهيه عنه شاغل ، والذى ينظر إلى عمله فى الدولة أو خدمته لها على أنه الغاية من حياته . كان البريد منتظما فى أيامه . فتصل اليه الأخبار والرسائل من جميع الأنحاء ، ويبعث برسائله وتعليماته الى ولاته وعماله . وكان يرجع إليه دائماً فى الأمور الهامة . وحتى الحجاج — على علو قدره ومقامه — كانت ترد إليه الرسائل والأوامر بانتظام ، ويبعث هو

يطلب الإذن بالشروع فيما يهم به من أعمال ذات بال . ومن خلال هذه المكاتبات لا يبدو الحجاج إلا مجرد عامل أو تابع ، أو خادم للخلافة والدولة ، فيخاطبه عبد الملك بأشد لهجة اذا اقتضى الأمر . ونورد أمثلة من هذه الرسائل :

* * *

كتب إليه عبد الملك بعد موقعة دير الجماجم يقرعه ، ويقول له : « أما بعد ، فقد بلغني سرفك في الدماء ، وتبذيرك الأموال . وهذا ما لا أحتمله لأحد من الناس . وقد حكمت عليك في القتل بالقود ، وفي الخطأ بالدية . وأن ترد الأموال إلى أصحابها ، فإنما المال مال الله ونحن خزانه . وقد متعنا بحق فأعطينا باطلا » .

وفي هذه المناسبة كتب إليه الخليفة أيضاً ، يأمره أن يعطي الناس عطاءهم . فكتب الحجاج يبرر منع العطاء عنهم بأنهم نكثوا العهد ، ونقضوا البيعة وفارقوا الجماعة الخ ، فرد عليه عبد الملك برسالة شديدة ، قال له فيها : « إنما تجب طاعتنا عليهم بأن نعطيهم حقوقهم » .

وكان الحجاج قد كتب إليه أيضاً يستأذنه في أخذ زيادة من أموال أهل العراق ، فكتب إليه عبد الملك : « لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك . وأبق لهم لحوما يعقدون بها شحوما » .

أما إحدى الرسائل الشديدة اللهجة فتلك التي كتبها عبد الملك إلى الحجاج ، حين أساء هذا إلى أنس بن مالك خادم رسول الله وأضرّ به ، إذ أن عبد الله ابن أنس كان من الخارجين على الحجاج في بعض الثورات .

غضب عبد الملك لما لحق أحد أصحاب رسول الله (ص) ، وأقرب الناس إليه من الإهانة . فكتب إلى الحجاج رسالة قال فيها : —

« من عبد الله عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف . أما بعد ،

فإنك عبد طمت بك الأمور فطغيت . وعلوت فيها حتى جزت قدرك ، وعدوت طورك . وأيم الله ... لأغمزنك كبعض غمزات الليوث الثعالب ، ولأركضنك ركضة تدخل منها فى وجارك ... وقد بلغ أمير المؤمنين استطالة منك على أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جرأة منك على أمير المؤمنين، وغرة بمعرفة غيره ونقماته وسطواته على من خالف سبيله . وأيم الله لو أن أمير المؤمنين علم أنك اجترمت منه جرما ، وانتهكت له عرضا فيما كتب به إلى أمير المؤمنين ، لبعث إليك من يسحبك ظهرا لبطن ، حتى ينتهى بك إلى أنس ابن مالك ، فيحكم فيك بما أحب . ولن يخفى على أمير المؤمنين نبؤك . « ولكل نبأ مستقر ، وسوف تعلمون » .

***

وجاءت الأخبار بما يدل على أن عبد الملك بن مروان كان حريصاً على أن تكون النزاهة من أولى صفات عماله وولاته .

فقد روى المدائنى وغيره أنه بلغ عبد الملك أن بعض عماله قبل هدية . فأمر بإشخاصه إليه . فلما حضر ، قال له : أقبلت هدية مذ وليتك ؟ قال : ياأمير المؤمنين بلادك عامرة ، وخراجك موفور ، ورعيتك على أفضل حال . قال : أجب عما سألتك ! . قال نعم ، قد قبلت ! .

فقال : لئن كنت قبلت هدية لا تنوى تعوض المهدى لها ، إنك أن للئيم . وإن كنت قبلتها لتكافىء المهدى من مال المسلمين ، أو لتقلد رجلا من عملك مالم تكن لتقلده اياه قبل الهدية — إنك لخائن . وإن كنت نويت تعويض المهدى عن هديته من مالك ، فقد فعلت ما جلب لك التهمة ، وبسط فيك لسان معامليك ، وأطمع فيك سائر مجاوريك — وإنك لأحمق . وإن

من أتى أمرا لم يخل فيه من لؤم ، أو خيانة ، أو حمق — لحقيق ألا يُصطنع : (أى يستخدم) ، ثم عزله .

أما عن بيت مال عبد الملك ، فقد حدثت الأخبار بأنه « كان لعبد الملك بيت مال لا يدخله الا مال طيب ، لم يظلم فيه مسلم ولا معاهد . وقد عرف وجوهه ، ويقول : لا أستحل الا طيبا » .

وهذا هو الجدير بالرجل الفقيه العابد التقى ، الذى صار فيما بعد ملكا . وهو — كما نقول اليوم — الملك العالم . فعبد الملك كان من طراز الخلفاء السابقين ، وكان يتشبه بعمر بن الخطاب : فى شدته ونزاهته ورعايته لواجبه ، وحرصه على صالح الدولة .

ويتبين جانب آخر من سياسته العامة فى مثل هذه الوصية التى أوصى بها ابنه ، حين عهد إليه بإمارة مصر — قال له : « أنظر — أى بنى — إلى أهل عملك ، فإن كان لهم عندك حق غدوة فلا تؤخره إلى عشية ، وان كان لك عشية فلا تؤخره إلى غدوة . وأعطهم حقوقهم عند محلها ، تستوجب بذلك الطاعة منهم . وإياك أن يظهر لرعيتك منك كذب ، فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك فى الحق . واستشر جلساءك وأهل العلم . فإن لم يستبن لك فاكتب إلى ، يأتك رأيى فيه إن شاء الله . وإن كان بك غضب على أحد من رعيتك ، فلا تؤاخذه به عند سورة الغضب ، واحبس عقوبتك حتى يسكن غضبك . ثم انظر إلى أهل الحسب والدين والمروءة ، فليكونوا أصحابك وجلساءك . ثم ارفع منازلهم منك على غيرهم . أقول هذا ، وأستخلف الله عليك » .

* * *

وكان كبار معاونى عبد الملك فى ديوان الخلافة بدمشق — أى المتولين رئاسات دواوينه — هم : — قبيصة بن ذؤيب الخزاعى ، وهو من أجلاء فقهاء المدينة ، وقرين عبد الملك فى العلم والعبادة . وكان هو أقرب الناس إليه بمثابة الوزير ، يكتب له ويتلقى الرسائل الخاصة ، وكان صاحب « ديوان الخاتم » . ثم يليه « روح بن زنباع الجذامى » ، وهو من عرب الشام ، وكان معروفاً أيضاً بالفضل والورع وكمال السيرة ، فتولى رئاسة «ديوان الرسائل» حينا .

وكان عبد الملك يقول عنه : « ان روح بن زنباع شامى الطاعة ، عراقى الخط ، حجازى الفقه ، فارسى الكتابة » . كما كتب لعبد الملك أيضاً رسائله « أبو الزعيزعة » مولاه ، وهو من بلاد المغرب من البربر المتعربين ، وعرف بسداد الرأى ، والإخلاص فى الطاعة .

أما ديوان الخراج — الخاص بالأموال — فكان الذى يتولاه هو «منصور ابن سرجون الرومى » ، كما كان فى هذه الوظيفة منذ عهد معاوية . ولكن حين أمر عبد الملك بتعريب الدواوين ، عين على رئاسة الديوان أحد مثقفى العرب : وهو « سليمان بن سعد الخشنى » .

* * *

وكان كبار ولاة عبد الملك على الأقاليم هم : الحجاج بن يوسف الثقفى — واليا على العراق والمشرق ، والمهلب بن أبى صفرة الأزدى على خراسان ، ثم ابناه يزيد والمفضل . ومحمد بن مروان على الجزيرة والموصل ، وعبد العزيز بن مروان فى مصر ، وحسان بن النعمان الغسانى على بلاد المغرب . وتعاقب على الحجاز يحيى بن الحكم ، فأبان بن عثمان ، فهشام بن إسماعيل المخزومى . وكل هؤلاء عرب . فالدولة فى ذلك العهد كانت عربية خالصة : خليفتها وولاتها وحكامها

وقوادها عرب . وهم الذين يتولون المناصب الرئيسية . وقد برهنوا على كفاءة ومقدرة عالية ، ووصلت الدولة فى عهدهم إلى أرج القوة والسيادة .

ولم يكن عبد الملك يقيم بدمشق طوال العام ، بل كان يتنقل بين أماكن مختلفة حسب فصول السنة . وقد بينت الأخبار هذه الأماكن . فكان يشتو : أى يقضى وقت الشتاء القارس فى موضع ، اسمه « الصنبرة » بالأردن ، ثم ينتقل فى أواخره إلى « الجابية » ثم يقضى فصل الربيع فى دمشق ، وكذلك فصل الخريف . أما فى الصيف فى شهور الحر الشديد ، فكان يقيم ببعلبك فى لبنان . ذلك لأن الأردن ولبنان وسورية كانت كلها اقليما واحدا ، وهو الشام .

مجالسه الأدبية

كان عبد الملك أديباً عالما ، أو كما عبر « ابن طباطبا » : « كان أديبا ذكيا فاضلا » ، وحصل — كما ذكرنا من قبل عند الكلام على سيرته — على أكبر قدر ممكن من الثقافة العربية . فكان يحب الأدب والشعر ، وفى أوقات فراغه يعقد المجالس الأدبية فى حضرته ، التى تتبادل فيها الأحاديث اللغوية والأدبية وغيرها ، وينشد الشعراء شعرهم مدحا فيه وفى بيته أو فى أغراض أخرى .

وقد سجلت كتب الأدب أو التاريخ بعض هذه المجالس ، وبينت كيف أن عبد الملك كان هو الذى يشرف على المجلس وينتقد ما يلقى عليه من الشعر انتقادا دل على ذوق أدبى رفيع وذكاء لماح وبراعة فى النقد .

ولنورد هنا طرفاً من أخباره الأدبية :

عقد عبد الملك أحد هذه المجالس، وقال للحاضرين : ليقل كل منكم أحسن شعر سمع به . فرووا لامرىء القيس وطرفه والأعشى ، فأكثروا حتى أتوا على محاسن ماقالوا . فقال عبد الملك : أشعرهم والله الذى يقول :

وذى رحم قلمت أظفار ضغنه بحلمى عنه ، وهو ليس له حلم
يحاول رغمى لايحاول غيره وكالموت عندى أن يحل به الرغم

والظاهر أن الذى أعجب عبد الملك المعنى الخلقى الذى ينطوى عليه هذا الشعر ، وهو الإحسان إلى ذوى الأرحام والعفو عن سيئاتهم ، ومايتضمن ذلك أيضا من حكمة سياسية .

وفى مجلس آخر قال للشعراء : « يامعشر الشعراء ، تشبهوننا مرة بالأسد الأبخر ، ومرة بالجبل الأوعر ، ومرة بالبحر الأجاج . ألا قلتم فينا كما قال الشاعر : —

نهاركمو مكابدة وصوم وليلكمو صلاة واقتراء

أى أنه أراد أن يمدحه الشعراء بأنه يقضى ليله ونهاره فى العبادة وطاعة الله .

ودخل عليه « عبد الله بن قيس الرقيات » فأنشده مادحا له :

إن الأغر الذى أبوه أبو العا ص عليه الوقار والحجب
يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

فلم يرض عبد الملك عن ذلك ، وقال : يا بن قيس ، تمدحنى بالتاج كأنى من العجم ! وتقول فى مصعب :

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجه الظلماء
ملكه ملك عزة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

ورده دون أن يعطيه عطاء .

ووفد عليه جرير ليمدحه . وكان خبر ذلك أن جريرا امتدح الحجاج فأعجبه شعره ، بيد أنه قال له : إن الطاقة تعجز عن المكافأة ، ولكنى موفدك على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، فسر إليه بكتابى هذا . فسار إليه ، ثم استأذنه فى الإنشاد فأذن له ، فأنشد جرير قصيدته التى مطلعها :

أتصحو أم فؤادك غير صاح ؟ !

فبادره عبدالملك عندئذ ، قائلا : بل فؤادك ، لا أم لك ! ثم استمر جرير :

عشية هم صحبك بالرواح !

واستمر حتى قال :

تعزت أم حزرة ثم قالت	رأيت الواردين ذوى امتناح
تعلل وهى ساغبة بنيها	بأنفاس من الشبم القراح
ثقى بالله ليس له شريك	ومن عند الخليفة بالنجاح
ألستم خير من ركب المطايا	وأندى العالمين بطون راح !

فلما بلغ هذا البيت ظهر الارتياح على عبد الملك . وكان متكئا فاستوى جالسا ، ثم قال : من مدحنا منكم فليمدحنا بمثل هذا ، أو ليسكت . وبعد أن فرغ جرير من إنشاده قال له « أترى أم حرزة ترويها مائة ناقة »؟ فقال جرير : إذا لم تروها — يا أمير المؤمنين — فلا أرواها الله ! فأمر له بمائة ناقة كلها سود الحدقة . وكان بين يديه صحاف من فضة ، فقال له جرير : يا أمير المؤمنين ، تأذن لى بواحدة منهن . فقال : خذها ، لا نفعتك ! » فقال جرير . « كل ما أخذته منك ينفعنى إن شاء الله » .

ويدل ماورد من أخباره الأدبية على أنه كان من كبار رواة الشعر والأدب ولذا كان يستشهد بالشعر كثيرا . فمن أمثلة ذلك :

أنه كتب مرة رسالة إلى الحجاج فى شأن الخوارج ، فقال :

«أما بعد، فإنى أحمد إليك السيف وأوصيك بما أوصى به البكرى زيدا».

فلم يدرك الحجاج ماعناه عبد الملك — على ماهو عليه من رواية ومعرفة بالأخبار .

فسأل عن ذلك، حتى أخبره رجل أن ماعناه أمير المؤمنين هو قول البكرى لابن عمه زيد ، وهو :

أقول لزيد لاتثرثر ، فإنهم   يرون المنايا دون قتلك أو قتلى
فإن وضعوا حرباً فضعها، وإن أبوا   فشب وقود الحرب بالحطب الجزل

أيضا ، كتب عبد الملك ردا إلى الحجاج فيما يتعلق بأمر ابن الأشعث — وهو الذى أثار الفتنة التى تحدثنا عنها فيما مضى — وضمن رده جواباً لابن الأشعث شعراً ، وهو : —

فما بال من أسعى لأجبر عظمه   حفاظا، وينوى من سفاهته كسرى
أظن خطوب الدهر بينى وبينهم   ستحملهم منى على مركب وعر

وكان الأخطل يحضر كثيرا مجالس عبد الملك ، وكان أثيرا عنده ، وكان عبد الملك يقدر موهبته وقدرته فى البلاغة العربية . فأدى هذا التشجيع إلى أن الأخطل قضى سنة ينظم قصيدة ليمدح بها عبد الملك ، ثم وفد على الخليفة فأخبره بذلك ، وقال إنه مع ذلك لم يبلغ ما أراد . فطلب اليه الخليفة أن ينشدها ، فأنشدها وهى قصيدته الرائية التى مطلعها .

خف القطين فراحوا منك أو بكروا   وأزعجتهم نوى فى صرفها غير

والتي يقول فيها :

الخائض الغمر والميمون طائره	خليفة الله يستسقى به المطر
وما الفرات إذا جاشت حوالبه	فى حافتيه وفى أوساطه العشر
يوما بأجود منه حين تسأله	ولا بأجهر منه حين يجتهر

ثم يمدح بنى أمية ، فيقول .

فى نبعة من قريش ، يعصبون بها	ما أن يوازى بأعلى نبتها الشجر
حشد على الحق عيافو الخنا أنف	إذا ألمت بهم مكروهة صبروا
شمس العداوة حتى يستقاد لهم	وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا

فجعل عبد الملك يتطاول لها ويطرب لمعانى المدح فيها . وأعلن عن شديد إعجابه بالمعنى فى البيت الأخير — خاصة — وأخذ يردده . فلما فرغ الأخطل من إنشاده ،قال له عبد الملك : «يا أخطل ، أتريد أن أكتب إلى الآفاق أنك أشعر العرب ! » . قال : أكتفى بقول أمير المؤمنين . فأمر له الخليفة بجفنة كانت بين يديه فملئت دراهم فمنحها له ، وأنعم عليه بخلع ثمينة . وخرج به مولى على الناس يقول : هذا شاعر أمير المؤمنين ، هذا أشعر العرب !

* * *

وهكذا كان عبد الملك مغرما بالأدب والشعر ، راعياً للأدباء والشعراء ، وذلك لأنه هو نفسه كان أديباً وعالماً كبيراً . وقد حضر هذه المجالس « الشعبى » — عالم العراق — فى أواخر عهد الخلافة ، وقال شهادته التى سبق أن اقتبسناها ، وهى قوله : « ما ذا كرت أحداً إلا وجدت لى الفضل عليه ، إلا عبد الملك : فإنى ما ذا كرته حديثاً إلا زادنى فيه ، ولا شعراً إلا زادنى فيه » .

وكان يعجب عبد الملك من الشعر — بصفة خاصة — مايدعو إلى مكارم الأخلاق ، ولذا كان يستحث الشعراء على أن يضمنوا شعرهم المعانى الكريمة ،

ويفضل أن يمدحه الشعراء بالأوصاف الدينية ، من التقوى والعدل ، بدل التشبيهات القديمة . وقد رأينا الأدلة على أنه كان يكرم الشعراء ويجيزهم ويحسن صلاتهم . لكنه كان يكافىء المتازين ، وليس كل من يفد عليه للسؤال . ولم يسرف فى ذلك ، لأنه — كما عبر فى مناسبة — كان يرى أن الأموال العامة حق للدولة . ولذا نسب اليه بعضهم البخل ممن لم يظفروا بنواله . لكنه فى الحقيقة لم يكن بخلا ، ولكن اقتصاداً وموازنة بين الأمور ، لتصرف أموال الدولة فى الوجوه التى تستحق .

ولا شك أن عبد الملك أوجد بعمله واتجاهه هذا نهضة أدبية عظيمة . وشجع الشعراء والرواة على القول والتنافس ، ودل باهتمامه بالأدب على تقديره للثقافة العربية . فبذلك أدى خدمة كبيرة للغة العربية تضاف إلى خدماته السابقة لها . وبذلك حافظ على أحد المقومات الكبرى للقومية العربية ، وهى اللغه وثقافتها . وكان هذا هو الذى يتوقع من خليفة عربى ، من صميم العرب ، قرشى من خيرة قريش ، وعالم مسلم يعلم أن الدين واللغة صنوان . ومادامت صبغة القومية تزداد فى الدولة ، فهذا يؤدى إلى قوتها ونهوضها وتماسكها . أى أن رعاية عبد الملك للثقافة القومية كانت لها أيضاً نتائج سياسية طيبة .

بيته وأولاده

وهذه آخر نقطة فى الكتاب .

عنى عبد الملك أكبر عناية بأمر تربية أولاده . ونثبت هنا إحدى وصاياه لمربى أولاده ، فهى تبين المنهج الذى رسمه عبد الملك لتربيتهم .

قال عبد الملك لمعلم ولده : « إنى قد اخترتك لتأديب ولدى ، وجعلتك عينى عليهم وأمينى ، فاجتهد فى تأديبهم . ونصيحتى فيما استنصحتك فيه من

أمرهم علمهم كتاب الله — عز وجل — حتى يحفظوه ، وقفهم على ما بين الله فيه من حلال وحرام حتى يعقلوه . وخذهم من الأخلاق بأحسنها ، ومن الآداب بأجمعها . وروهم من الشعر أعفه ، ومن الحديث أصدقه . وجنبهم محادثة النساء ، ومجالسة الأظناء ، ومخالطة السفهاء . وخوفهم بى ، وأدبهم دونى . ولا تخرجهم من علم إلى علم حتى يفهموه ، فان ازدحام الكلام فى السمع مضلة للفهم . وأنا أسأل الله تسديدك وتوفيقك » .

وفى وصية أخرى ، قال عبد الملك أيضاً :ـ

« علم بنىّ القرآن . وخذهم بمكارم الأخلاق . وحثهم على صلة الأرحام . ووقرهم فى الملأ ، وأخفهم فى السر . فان الأدب أملك بالغلام من الحسب . وتهددهم بى . وأدبهم دونى . ولا تخرجهم من علم إلى علم حتى يفهموه ، فإن ازدحام الكلام فى السمع مضلة للفهم » .

وهذا يدل على عناية عبد الملك بتربيتهم تربية دينية وأخلاقية كريمة . وأولاد عبد الملك الذين صار لهم تاريخ هم : الوليد بن عبد الملك ، وأمه بنت العباس بن جزء من عبس ، وأخوه — وهو شقيقه — سليمان بن عبد الملك . ويزيد بن عبدالملك ، وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية . وهشام بن عبدالملك ، وأمه بنت هشام بن إسماعيل المخزومى . وجميع هؤلاء صاروا خلفاء أو ملوكاً ، بدورهم ، بعد أبيهم . ولذا فإن عبدالملك يقال له : « أبو الملوك » . ثم مسلمة ابن عبد الملك وعبد الله وسعيد ، وهم لأمهات أولاد . ويجدر ذكر فاطمة بنت عبد الملك ، وهى التى صارت زوجة لعمر بن عبد العزيز . وكانت له نعم القرين والمؤازر ، موافقة له على مذهبه المثالى ، وأمها أم المغيرة بنت المغيرة المخزومى .

ولاية العهد

كان العهد بعد عبد الملك لأخيه عبد العزيز بن مروان والى مصر ، حسب ماقرره وعقده من قبل أبوهما مروان بن الحكم . وبقى الأمر كذلك حتى أواخر عهد عبد الملك ، فبدأ يفكر فى مسألة الخلافة بعده ، وهو يود تحويل العهد من أخيه إلى ابنه الوليد بن عبد الملك ، ولكنه كان يخشى أن هذا سيغضب أخاه . واستشار عبد الملك من حوله ، فبعضهم أشار بالتنفيذ ، وبعضهم نصح بالتأجيل . ولكنه بعدئذ ، اتخذ قراره وعزم على تحويل ولاية العهد . وبينما هم فى ذلك ، وإذا بالخبر يرد من مصر بوفاة عبد العزيز بن مروان ، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٨٥ هـ .

وهنا يذكر الرواة أن الخطاب وصل أولا إلى قبيصة بن ذؤيب صاحب الخاتم والبريد ، فقرأه واطلع على ما فيه قبل عبد الملك — وكان عبد الملك قد أذن له بذلك — فدخل قبيصة على عبد الملك ليلا بعد وقت نومه ، وأبلغه الخبر . فاسترجع عبد الملك ووجم ساعة ، حزناً لموت أخيه . لكنه شعر فيما يتعلق بولاية العهد أن المسألة حلت من نفسها . وقال لمن كان يحدثهم فى الأمر : كفانا الله ما كنا نريد . وجمع مستشاريه بعدئذ ، وقال لهم : إن عبد العزيز قد مضى لسبيله ، ولا بد للناس من علم وقائم يقوم بالأمر من بعدى . فأجمعوا على العهد للوليد بن عبد الملك ، ثم من بعده لأخيه سليمان بن عبد الملك .

فعقد عبد الملك العهد لهما ، على هذا الترتيب . وكتب ببيعته لهما إلى جميع البلدان . فبايع الناس ، وبذلك تمت البيعة لهما فى سنة ٨٥ هـ .

ويذكر أن سعيد بن المسيب — أحد فقهاء أهل المدينة — لما طلب إليه

البيعة أبى ، لأن مذاهبه ــ فيما يبدو ــ أن البيعة لا تصح إلا بعد وفاة الخليفة حيث قال : لا أبايع وعبد الملك حى . فضربه والى المدينة — هشام بن إسماعيل المخزومى — وطاف به . فلما بلغ الخبر عبد الملك لم يرض عن ذلك . وكتب إلى هشام يلومه ، ويقول : سعيد والله كان أحوج أن تصل رحمه — (لأنه مخزومى مثله من بنى قومه) — من أن تضربه . وإنا لنعلم ما عنده من شقاق ولا خلاف . وبايع أهل المدينة وجميع الناس فى الآفاق . وأصبح العهد مقرراً للوليد ، وانتهت هذه المسألة .

وفاة الخليفـــه

ووصل عبد الملك إلى عام ٨٦ هـ ، والأمور مستتبة والدولة مستقرة ، وكلها وحدة واحدة ، ولم يعد هناك ثورات ولا خلاف . وكل شىء فيها يسير بانتظام . وفى رمضان من ذلك العام ، كان قد مضى عليه فى الحكم : أى على كرسى الخلافة ، واحد وعشرون عاما . فمرض مرضه الأخير . وكان قد بلغ من العمر اثنين وستين عاما — على ما حققناه .

ومما يروى أنه كان يقول : أخاف الموت فى شهر رمضان : فيه ولدت ، وفيه فطمت ، وفيه جمعت القرآن ، وفيه بايع لى الناس . فكان يتوقع الموت فى ذلك الشهر . لكن القدر الذى يهوى أحياناً إخلاف الظنون كان قدر أن يكون موعد وفاته بعد هذا الشهر . فاشتد عليه المرض . ثم كانت وفاة عبد الملك بن مروان — خليفة المسلمين — فى يوم الخميس للنصف من شوال ، عام ٨٦ هـ .

وكان قد أوصى بنيه ، فى مرض موته ، بهذه الوصية :

« أوصيكم بتقوى الله ؛ فإنها أزين حلية ، وأحصن كهف . ليعطف

الكبير منكم على الصغير ، وليعرف الصغير حق الكبير . وانظروا مسلمة فأصدروا عن رأيه ، فإنه نابكم الذى عنه تفترون ، ومجنكم الذى عنه ترمون . وأكرموا الحجاج ، فإنه الذى وطأ لكم المنابر ودوخ لكم البلاد وأذل الأعداء . وكونوا بنى أم برة ، لا تدب بينكم العقارب . وكونوا فى الحرب أحراراً . وكونوا للمعروف منارا . فإن المعروف يبقى أجره وذكره . وضعوا معروفكم عند ذوى الأحساب ، فإنهم أصون له وأشكر لما يؤتى إليهم منه . وتعهدوا ذنوب أهل الذنوب ، فإن استقالوا فأقيلوا ، وإن عادوا فانتقموا » .

* * *

وهكذا كان عبد الملك يبدأ وصاياه دائماً لأولاده بأن يوصيهم بتقوى الله . فقد كان عبد الملك رجل دين فى الوقت الذى يدبر فيه أمور الدنيا . وهذا يدل على مكان عبد الملك وأكثر خلفاء بنى أمية من الدين . وتنسب لعبد الملك أقوال على أنه قالها فى مرض موته تفيد الندم أو نحو ذلك ، وظاهر أنها من وضع أعدائه ، فهى لا تتفق مع سيرته وتدينه وخلقه . وقد أشرنا من قبل إلى أن الشيعة وضعوا أحاديث وروايات كثيرة مكذوبة عن بنى أمية .

وكانت وفاة عبد الملك بدمشق . فدفن خارج باب الجابية . وصلى عليه ابنه الوليد . وتمثل أحد أولاده بهذا البيت :

وما كان قيس هلكه هلك واحد ... ولكنه بنيان قوم تهدما

ورثاه كثير من الشعراء ، ومنهم كثير عزة الذى قال :

سقاك ابن مروان من الغيث مسبل ... أجش شمالى يجود ويهطل

فما فى حياة بعد موتك رغبة ... لحر ، وإن كنا الوليد نؤمل

* * *

وانصرف الوليد على الفور إلى المسجد -- دون أن يدخل منزله — فصعد المنبر ، واجتمع إليه الناس فخطبهم ، فقال :

« إنا لله وإنا إليه راجعون ، والله المستعـان على مصيبتنا بموت أمير المؤمنين . والحمد لله على ما أنعم به علينا من الخلافة . قوموا فبايعوا » . فبايعه الناس . وكان بذلك أول من عزى نفسه وهنأها . ثم ألقى هذه الخطبة ـ بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، قال : —

« أيها الناس : إنه لا مقدم لما أخر الله ، ولا مؤخر لما قدم الله . وقد كان من قضاء الله وسابق علمه ، وما كتب على أنبيائه وحملة عرشه ، الموت . وقد صار إلى منازل الأبرار ولىّ هذه الأمة بالذى يحق عليه لله : من الشدة على المريب ، واللين لأهل الحق والفضل ، وإقامة ما أقام الله من منار الإسلام وأعلامه : من حج هذا البيت ، وغزو هذه الثغور ، وشن هذه الغارة على أعداء الله ، فلم يكن عاجزاً ولا مفرطاً . أيها الناس : عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة . فإن الشيطان مع الفرد . أيها الناس : من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذى فيه عيناه ، ومن سكت مات بدائه » . ثم نزل .

* * *

وهكذا انتقلت الخلافة فى هدوء ، وبدون خلاف ، إلى الوليد بن عبدالملك . وكان هذا نتيجة جهود عبد الملك ، إذ ترك له : أى لابنه دولة مستقرة موحدة ثابتة الأركان والدعائم ، قوية حربيا وسياسيا واقتصاديا وأدبيا . وظهرت آثار الاستقرار والتوحد والقوة فى عهد الوليد ، فكان عهده الذروة التى وصلت إليها الدولة العربية الإسلامية فى مجدها . كان عهد الفتوحات العظيمة والرغد والرخاء . ولا يزال الجامع الأموى الذى بناه الخليفة الوليد بدمشق

باقياً إلى اليوم ، يرمز إلى ذلك العهد : عهد المجد والقوة ، والوحدة الشاملة للدولة العربية الإسلامية .

أولاده الخلفاء بعده

لم يبق إلا أن نذكر أن أثر عبد الملك ظل باقيا فى أولاده الذين خلفوه ، فقد أحسن تربيتهم وتنشئتهم ، ورسم لهم النهج وكان لهم أسوة . وقد سجل التاريخ أنهم كانوا أكفاء وخلفاء قادرين . وهم : الوليد ، وسليمان ، وهشام — إذا خلينا جانبا يزيد ومدته القصيرة ، وهى أربع سنوات . فهؤلاء الخلفاء الذين ذكرناهم حملوا الأمانة بعد أبيهم ، وقادوا الأمة ورعوا الدولة خير قيادة ورعاية .

فالوليد بن عبد الملك قال عنه الذهبى : إنه أقام الجهاد فى أيامه ، وفيها فتحت الفتوحات العظيمة ، كأيام عمر بن الخطاب . وفضلا عن ذلك ، فإن الوليد — كما أثبت المؤرخون — كان يتعهد الأيتام فيرتب لهم من يختنهم ، ومن يؤدبهم (يعلمهم) ، ويرتب للزمنى (المرضى وكبار السن والمقعدين) من يخدمهم ، والمكفوفين من يقودهم . ورزق العلماء والضعفاء والفقراء . وحرم عليهم سؤال الناس . وفرض لهم ما يكفيهم . أى أنه جعل الدولة كافلة أن تؤدى هذه الخدمات العامة للناس . وهذا هو التكافل الاجتماعى ، أو الاشتراكى — كما نعبر عنه اليوم — سبقت به الدولة الإسلامية النظم الاشتراكية التقدمية ، التى لم تهتد إليها أوروبا إلا منذ عهد قريب ، ولكن الدولة الإسلامية استقتها من روح الإسلام ومبادئه ، وطبقتها .

وأما سليمان : فكان من خيار الخلفاء ، مؤثراً للعدل ، محبا للجهاد ، جوادا ، فصيحا . وفى عهده فتحت أقاليم طبرستان وجرجان ، التى خرجت

فيما بعد كبار العلماء . واستمر جهاده لغزو الروم ، حتى إنه جهز حملة قوية لفتح القسطنطينية نفسها عاصمة الدولة الرومية البيزنطية ، وذلك تحت قيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك . ولولا أن أدركه الأجل لأتم فتحها . وقال عنه ابن سيرين من العلماء : « يرحم الله سليمان . افتتح خلافته بإحيائه للصلاة لأول مواقيتها ، واختتمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز » . وذكروا أن من محاسنه أن عمر ابن عبد العزيز كان له كالوزير ، فكان يمتثل أوامره فى الخير .

وكان لسليمان فضل أنه عهد بالخلافة بعده لابن عمه : عمر بن عبد العزيز . فتولى عمر فى نهاية القرن الأول الهجرى . وهو ابن أخى عبد الملك بن مروان وختنه : أى زوج ابنته فاطمة ، على ما قدمنا ، وحفيد مروان . وقد أدرك عمر عهود عبد الملك والوليد وسليمان ، واشترك معهم فى أعمال الدولة وعمل تحت قيادتهم ، فعمر ماهو إلا فرع من هذه الدوحة . والثمرة الكريمة لا تنبت إلا من شجرة كريمة ، وإن كان هو سما بمثاليته وورعه و « اشتراكيته الاسلامية » ، إلى الحد الأعلى .

وأما هشام ، فكان شبيه أبيه عبد الملك : فى قوة العقل والحزم . وهو الذى اتخذه أبو جعفر المنصور فيما بعد مثله الكامل ، الذى يقتدى به فى إدارته للدولة . فكان يتحدث عنه بكل إعجاب ، ويقول عنه « إنه محشو عقلا » ، وإنه «رجل القوم» . وكانت دواوينه أضبط دواوين. وقد حكم البلاد عشرين عاما ، كانت الدولة فى أثنائها لا تزال تمثل امبراطورية قوية واسعة الأطراف ، تمتد حدودها من جبال البرانس إلى حدود الصين .

* * *

فهؤلاء هم الخلفاء : أولاد عبد الملك . وقد استمرت الدولة الأموية —

بعد انتهاء عهدها فى المشرق — فى الدولة الأموية الجديدة ، التى أقامها بالأندلس أحد أحفاد هشام وعبد الملك — وهو عبد الرحمن الداخل الملقب بـ « صقر قريش » — وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك . فالدولة الاسلامية والحضارة الإسلامية التى ظهرت فى الأندلس، وبهرت أهل أوروبا ، وكانت كالشمس المشرقة وسط ظلام أوروبا الدامس ، وهى التى هدت بنورها أوروبا منذ ذلك الوقت إلى النهضة الحديثة — هذه الدولة كانت من أثر عبد الرحمن الداخل وبنى أمية . والخلفاء العظام الذين تبوأوا عرش الدولة بالأندلس : مثل عبد الرحمن الناصر — الذى كان أعظم عاهل فى أوروبا فى عصره — كانوا من أحفاد عبد الملك ومروان .

وهكذا ظل الأثر باقيا ، وكانت الدولة الأموية — وهى الدولة التى استعرضنا تاريخها فى هذا الكتاب — : الدولة التى أقامها مروان ، وثبت دعائمها وحفظها ، وأعاد إليها قوتها وحقق وحدتها عبد الملك — لها هذا الأثر العظيم الخالد فى التاريخ ، إذ خدمت الدين والعلم والحضارة والتقدم فى المشرق والمغرب ، وهى الدولة العربية الاسلامية ، التى كانت تدفعها روح العروبة وتهتدى بنور الاسلام .

(وبعد) فهذه سيرة الخليفة العربى المسلم عبد الملك بن مروان ، أحد الأعلام فى تاريخنا العربى الإسلامى: سيرة حياته وأعماله وفتوحاته وإصلاحاته وآثاره فى التاريخ ، وسيرة الأمة العربية الإسلامية فى ذلك العهد — رسمنا عنها صورة تاريخية صادقة ، لا هدف لنا منها إلا إثبات وتجلية الحقيقة ، لعل ما فيها من عظات وعبر ينفع الجيل الحاضر ، المتطلع للنهضة والإصلاح : جيل العروبة والإسلام . والله سبحانه الموفق . وله الحمد أولا وآخرا ؟

فهرس الكتاب